دائرة الاغتصاب

رواية

مجدي فتح الله

ليليت للنشر
والتوزيع

مجدي فتح الله
دائرة الاغتصاب
٢٢٠٨/ ٢٠١٤ط١
الترقيم الدولى / ٣- ٩٩ - ٣٥١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد
رئيس لجنة قراءة د/ سالم ابراهيم سالم
مدقق لغوي أ/ جمال على
غلاف / محمد عبد العزيز
المراسلات : ٢٤ ش سيد درويش
كوم الدكة - إسكندرية
ت : ٠١٢٢٤٢٧٢٣٢٧
: ٠١٠٢٢٦٦١٦٣٢
Dar.lilitte@gmail.com
lilettepublishing@gmail.com

كل من يعيش على أرض هذا الوطن يُغتصب
إما اغتصاب ماديّ أو معنويّ
فكلنا نُغتصب بطريقة أو بأخرى

«اختلفت الانتهاكات والاغتصاب واحدٌ»

الكاتب والروائي / مجدي فتح الله

(-)

الآنسة حنفي" في الصين..
رجل صيني يكتشف أنه امرأة بعد ١٠ سنوات زواج

الرجل ذو الـ ٤٤ عامًا ذهب لزيارة الطبيب مع زوجته التي دام زواجها منه ١٠ سنوات، ولكنهما صُدما مما أخبرهما به الطبيب، أن الزوج يحمل عضوين تناسليين واحدًا ذكريًّا والآخر أنثويًّا، ويقومان بوظائفهما الحيوية في نفس الوقت، مما سبَّب الصدمة لهما؛ لأنهما عاشا حياة جنسية طبيعية طوال العشر سنوات. ولكن الأطباء شكَّكا في كلامهما؛ لأن عضوه الذكري يختلف عن أي رجل آخر، لذا زعموا أنه امرأة في المقام الأول، وعند إجراء الأشعة المقطعية وجدوا أن لديه رحمًا ومبيضين، كما أن فحوصات كروموسومات الرجل أوضحت أن لديه هرمونات أنثوية XX، مما يجعله أنثى وراثيًّا. وتتمثل المشكلة في أن السيد «تشين» يعاني من تضخم خِلْقيّ في الغدة الكظرية، مما يزيد عنده هرمونات الذكورة التي خَلقت ذلك الارتباك في تحديده لجنسه، لذلك تم إزالة ورم غدده الكظرية جراحيًّا، ويتلقى علاجًا متأخرًا حاليًّا لحالته النادرة .

خبر تناولته العديد من المواقع الإلكترونية في يوم السبت ٢٦ / ٧ / ٢١٠٤

البلابيش المستجدة ، دار السلام ... سوهاج

من عشر سنوات مضت

الوقت مساء

أفرع اللمبات الكهربائية تزين الفسحاية المتناثرة فيها الكراسي المعدة لاستقبال المدعوين من أهالي القرية لزفاف عسقلاني الصوالحي، الشاب ذي البنيان القوي والملامح الجافَّة ذات البشرة قمحية اللون المائلة للبني الداكن، والتي يبدو لمن لا يعرفها أنها لم تعرف طريقًا للضحك من قبل، مع أنه فكاهي من الدرجة الأولى ، تخرج من فمه ابتسامة تبين لمن يجلس حوله من أقاربه ليشهدوا على عقد قرانه على ناصرة ابنة خاله ذات العشرين ربيعًا - أنه ليس بالشخص الذي عرفوه من قبل، والذي يعيش بينهم منذ خمسة وعشرين ربيعًا ؛ هي عمره . ابتسامة يشوبها قلق تصاحبها عينان زائغتان تبحثان بين الجلوس عن أشخاص بعينهم تخلفوا عن المجيء .

ونظرًا لأسئلة البعض: « ما لك يا عسقلاني ، شكلك مش على بعضك « ، يحاول إلهاء قلقه بالنظر للكوشة التي سيجلس بداخلها هو وعروسه بعد قليل . يبتسم ابتسامة صادقة صادرة من القلب لرؤيته الفتيات الصغيرات وهن يحاولن احتلال مقعديه هو وعروسه ، يترك من حوله لهمسهم وهمهماتهم ، مركزًا بصره للفتيات وهن يتشاجرن، أيّ منهن تعلن عن نفسها العريس والأخرى العروس ، وهن بذلك يعلنَّ - من خلال لعبتهن هذه « عريس وعروسة « - عن استعدادهنّ التامّ لفكرة الزواج التي لا يعرفن عنها شيئًا بعد؛ سوى أنها ارتداء ذلك الفستان الأبيض الذي ستخرج به ناصرة ، يزين جسدها الذي لا يختلف كثيرًا عن جسد عسقلاني ، من حيث بشرتها ذات اللون القمحي، لكنه يميل للّون الفاتح .

المأذون يدخل المنزل فتراه نفس الفتيات المتكالبات على الزواج بعد علمهن بخبر وصوله على فتحة الشباك، ينظرن له بشغف وهو يفتح المحضر ، والإمضاء عليه من قبل عسقلاني، ووكيل ناصرة والشاهدين ، وينصتن له باهتمام ، وهو يلقي بخطبته الصغيرة التي يتحدث فيها عن أهمية الزواج ، ويذكر فيها الآيات القرآنية ، وكذلك بعضًا من الأحاديث النبوية والتي تحضّ على الزواج .

قال تعالى في كتابه الحكيم : « ومِنْ آياتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزواجًا لِتَسْكُنوا إليها وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً إنَّ في ذلكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرون» .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...أما بعد :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ». ويقول أيضًا : ((إذا جاءكم مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَه وخُلُقَه فَأَنْكِحُوهُ ، إلا تفعلوا تكن فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ.

وبعد انتهاء المأذون من خطبته هذه، شاهدت الفتيات عسقلاني يصافح أخو ناصرة ووكيلها في نفس الوقت ، وقد نظر كل منهما للآخرة وهما يرددان وراء المأذون صيغة الإيجاب والقبول:

زوَّجتك موكلتي البكر البالغة العاقلة ناصرة .... على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وعلى المهر المتفق عليه فيما بيننا .

فيردّ عليه عسقلاني : وأنا قبلت منك زواج موكلتك البكر البالغة العاقلة ناصرة...على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم - على المهر المتفق عليه فيما بيننا.

وبعد انتهاء المأذون من مهمته همَّ بالانصراف ، فقام عسقلاني بتوديعه وهو يبحث بعينيه عن أولاد عمه الثلاثة الذين تخلفوا عن حضور عقد القران ، سأل عنهم الحاضرين فلم يُجبه أحدهم بإجابة شافية عنهم ، فكّر في أمرهم للحظات وهو الظانّ أن موقفًا منه صدر دون قصد في حقهم فجعلهم يتجاهلون أمر عقد قرانه ، لكن أصوات الزغاريد الصادرة من فم النساء من حوله أنسته أمرهم، وجعلته يفكر في الساعات القليلة القادمة ، والتي سيختلي فيها بناصرة وحجهما داخل حجرة النوم، ولم تمض ساعة إلا وكان الخبر الذي نزل عليه كالصاعقة ، وهو في الكوشة بجواره ناصرة يحاول إمساك يدها لكنها تتمنع عنه في دلال قائلة بصوت هامس لا يكاد يسمعه:

- عيب يا عسقلاني الناس بتبص علينا .

فيقول لها :

- -مش سامعك .

لكن أصوات طلقات الرصاص الكثيفة التي يظنها تطلق في الهواء ابتهاجًا به وبعروسه الجالسة بجواره تجعلها لا تسمعه هي الأخرى . ولم تمض لحظات حتى علم بأن أرواح أولاد عمه الثلاث حصدت جرّاء فعلة نكراء ؛ أقسم من ارتكبت بحقهم حصدهم لأربعة أرواح بالمقابل ، قتلوا الإخوة الثلاث وهم في طريقهم الآن قاصدين قتل الرابع عسقلاني ؛ لئلا يفكر في الأخذ بالثأر منهم ، إنها عادات الجهل والتخلف والتي تقتضي في مثل مصابهم هذا قتل من مرمغ رؤوسهم في التراب فقط لا أن يحصدوا أرواح ثلاثة إخوة دفعة واحدة ، وبالتالي سيكون عسقلاني ابن عمهم الوحيد المتبقي من العائلة شوكةً في حلوقهم ، وربما يأتي يوم - وحتمًا سيأتي في مثل تلك الحالات - لأن يأخذ بالثأر ممن قتلوا.

فرَّ المدعوون ذُعرًا ، ولم يبق إلا رافعو بنادقهم النارية يشهرونها في وجه عسقلاني وعروسه ناصرة ؛ التي بالكاد تحاول لملمة جسدها وإثناءه عن الرعشة التي ألمت به .

تقدم أحدهم وأخبر عسقلاني بكل ما جرى ، وأن عليه توديع عروسه لأنه سيلقى وجه رب كريم بعد لحظات ، ارتمى عسقلاني تحت أقدامهم يود تقبيلها ، وهو يرجوهم تركه ، فهو ليس له ذنب ، وإن كانوا حقًّا ينوون الثأر فليقتلوا ابنا عمه أخوي فاعل الجرم ، صفعه أحدهم :

- «هذا ما فعلناه» .

قال له ذلك وهو يهم بالخلاص منه .

لم تترك ناصرة عسقلاني في هذه اللحظات الرهيبة التي لم تر مثلها ما حَيت ، إنهما في مركب واحد الآن ، وهذا أول اختبار حقيقي تثبت به ولاءها الكامل له ، ألقت بجسدها فوق جسده ، وقالت لهم :

- « لو عاوزين تقتلوه اقتلوني معه ، نحن الاثنان جسدان بروح واحدة»

اتُّخذ القرار بعد مشاورات لم تدم سوى لحظات .

- « هيا انهض» .

قالها أحدهم ، وأكمل يقول : - ما سيمنعنا عن قتلك يا عسقلاني أنك كنت نعم الصديق بل الأخ لنا وليس لنا فقط بل للقرية كلاتها ، فأنت شهم وكريم ، ولم نرَ منك أي سوء ؛ لذلك فقد قررنا فيما بيننا تركك تعيش لكن بشرط ؛ تأخذ زوجتك وترحل بعيد عنا ، لا نريد رؤية وجهك مرةً أخرى ، فاهم .

نهض العروسان ، وقال الجسدان اللذان تكلما بلسان واحد :- « فاهم».

(١)

حي الدقي
في الوقت الحالي

إنها لمن المرات القليلة التي يظنها عسقلاني الصوالحي ابن قرية « البلابيش المستجدة « عندما امتهن مهنة البواب أنه مضطهد ، وتوجه إليه إهانات لم يكن ليرضى أن توجه لشخصه ، ولولا ما تمرّ به ناصرة زوجته من ظروف الوضع التي تهاجمها منذ صباح ذلك اليوم ، لكان له رأي وتصرف آخر مع من يعمل لديه ، والذي يكلفه بعمل ما لا طاقة به ، ويوجه له تلك التي يظنها إهانات عن طريق الطلبات الكثيرة التي يأمره بتنفيذها ، وهو ما لم يكن متفقًا عليه منذ بداية امتهانه لهذه المهنة ؛ التي لم يكن يتخيل في يوم من الأيام أن يمتهنها عندما طرد ذليلًا من قريته، بوَّابًا ، فقط ليس عليه سوى الجلوس بجوار الباب يفتحه للداخل والخارج ، ولولا الإلحاح الذي وجده من رب العمل - والذي فاق الزنّ على الودان ليكون المُرّبعينه - وهو يرجوه بجعل زوجته ناصرة تقوم بمهام الشغالات اللواتي يُطردن لسبب عدم أمانتهن ، تذرع عسقلاني في بادئ الأمر بأنه ليس بالمضطر أو بالمجبر لجعل ناصرة تخطو هذه الخطوات الفاصلة بين حجرة معيشته وبين المكان التي ستمكث فيه أغلب ساعات يومها ؛ لتعد

الطعام وتغسل وتكنس وغيرها من الأعمال المنزلية الأخرى ، فقط إنه يرتضي عملها حتى المجيء بشغالة غير التي طُردت.

كان ذلك في السنة الأولى من عمله الذي يدخل عامه العاشر ، ومع مرور الوقت - ونظرًا لما نالته زوجته من ثقة لأمانتها - بقي الحال كما هو لم يتغير، لم تأت الشغالة التي تأخذ مكانها الطبيعي مكان زوجته كما يأمل ، لدرجة أن عسقلاني سلَّم أمره للواقع المفروض ولم يُبد أيّ تبرم أو نقاش حول تلك المسألة ، ما دامت زوجته تحت نظره ليل نهار، لكن ما كان يغضبه حقًّا ، ويجعله مستعدًّا لخلع عباءة مهنته المفروضة عليه فرضًا ، والعودة لبلدته ليواجه مصيرًا بسببه حُكم عليه بالرحيل وعدم العودة نهائيًّا وإلا القتل ، إنها الأوامر الموجهة إليه ، وذلك عندما تحين ولادة ناصرة لأحد أبنائه ؛ الذين سيصبح عددهم قبل انتهاء ساعات ذلك اليوم ستة ، بسبب هذه الأوامر ممن يعمل لديه إنه الصحفي منصور ، والذي يترأس مجلس إدارة كبريات الصحف القومية - تلح بقوة فكرة ترك عسقلاني العمل والعودة لبلدته لملاقاة مصيره .

روح يا عسقلاني هات الخضار من السوق ، روح يا عسقلاني رجع الفاكهة دي مش نمرة واحد كما أكدت عليك ، تعالى يا عسقلاني ناولني زجاجة مياه من الثلاجة ، يا عسقلاني فين شغل المكواة ألم أؤكد عليك إحضاره معك وأنت جاي من السوق ، يا عسقلاني روح للسباك ولا تعد إلا وهو آت معك ، يا عسقلاني ..... يخرب بيتك وبيت اللي جابوك يا عسقلاني واليوم الأسود اللي اشتغلت فيه عندك ، الله يكون في عونك يا ناصرة يا زوجتي يا أم أولادي ، أتتحملين كل هذا دون أن تملي أو تكلي أو تشتكين لي مجرد الشكوى ، والله لولا أن ميعاد ولادتك بين لحظة وأخرى لأخذتك أنت والأولاد وعدت للبلدة ، واللي يحصل يحصل أهي كده موتة وكده موتة .

ضرب عسقلاني كفًّا بكفّ ، بعد هذا الحوار الدائر بينه وبين نفسه ، وأنهاه بعبارتي: «يا رب صبرني - استعنت على الشقا بالله « وهو يهم بالذهاب لمطعم البيتزا غير بعيد عن فيلا الصحفي منصور وزوجته الإعلامية جيهان .

وصل للمطعم وقال للعامل الجالس خلف ماكينة دفع الحساب :

- اتنين بيتزا بالحجم الكبير يا ابن العم .

وأخذ يعد الدقائق المارّة أمام عينيه في ساعة يده وهو يقول :

- اوعي تعمليها يا بت يا ناصرة وتولدي دلوقتي ، مين هيجيبلك نحمده الداية التي أكدت على أنه عندما يحين ميعاد الطلق أن تبعث لي طوالي .

ناداه عامل تجهيز الطلبات بالمطعم :

- يا بلدياتنا طلبك جهز يا بلدياتنا !!

انتبه عسقلاني من فوره لمناداة العامل له وعاد بالبيتزا، في الطريق لم يشأ التعليق على مناوشات عمه عبده - بلدياته النازح من بلدته هو الآخر مضطرًّا ، والذي يعمل مثله بوابًا بإحدى عمارات المنطقة - وهو يمسك بجلبابه من الخلف يرجوه الانتظار لتناول كوب شاي مضبوط يعدل الدماغ ، تتفنن في عمله له زوجته أسماء : « سيبني في حالي يا عم عبده ، شورتك كانت مهببة « قال له ذلك وهو ما زال سائرًا في طريقه لم يتوقف ، لم يعلق عبده ، ولم ينطق حرفًا آخر ، فقد وصلته الرسالة ، وبدوره علم عبده من خلالها أن وقت الوضع بالنسبة لناصرة قد أزف ؛ إن لم تكن قد وضعت مولودها بالفعل .

وصل عسقلاني لباب الفيلا ، قطع مسار طريقه ، وفي داخل حجرة معيشته المشيدة بجوار المدخل ألقى نظرة على ناصرة ، فوجدها تتلوى من شدة الألم ،

وضع طلب البيتزا جانبًا ولثم جبينها ، وسألها إن كان الوقت قد حان أم أن عليه التمهل قليلًا ليأتي لها بنحمده الداية ، ابتسمت له ناصرة وهي في شدة ومعاناة ، وقالت له :

- لسة بدري يا عسقلاني حاول تريح جتتك شوية ، فلن ألد إلا فجرًا .

ردّ عليها :

- ومنين تيجي الراحة يا بنت الخال ، البيه منصور عمال يبعتني مشاوير رايح جاي جاي رايح ، عاملني مرمطون وماسح بكرامتي الأرض .

ردت عليه ناصرة :

- معلش يا عسقلاني استحمل شوية عشان الأولاد ، وآهو كلها يومين أقوم وأبقى زي الرهوان ، ولا أشيلك هم أبدًا ، ادعيلي انت بس إن ربنا يقوّمني بالسلامة .

رفع عسقلاني يديه عاليًا بعدما ترك طلب البيتزا من يده ليستقر بجوار قدميه ، ودعا لها :

- يا رب ؛ قوّم ناصرة حبيبتي بالسلامة عشان خاطر الأولاد وبلاش أنا ، دول خمسة أطفال صغار ، مين هيأكلهم ويلبسهم ويشربهم غير ناصرة ، يا رب أنا باغرق في شبر مية من غيرها .

سمعت ناصرة صوت منصور ينادي على زوجها :

- عسقلاني يا عسقلاني .

فقالت لزوجها :

- سامع يا عسقلاني صوت البيه منصور بينادي عليك .

- منصور !! خليه ينادي ويضرب دماغه في الحيط كمان .

أجابها عسقلاني بذلك وهو يأكله الغيظ مما يفعله منصور به في هذا اليوم ، غير عابئ بما ألقاه على مسامعه بأن زوجته في حالة وضع.

- لا يا خوي احنا اللي نضرب دماغنا في الحيط ، روح الله يرضى عنك شوفه عايز إيه .

- هيكون عايز إيه يا ناصرة ، رايق وفايق ، وقال إيه راسه وألف سيف ياكل بيتزا وهو بيتفرج على برنامج الست جيهان زوجته ، الله يعمر بيتها ويطرح فيها البركة .

أحس أن شيئًا ما ساخنًا لسع قدمه ، فمال برأسه ليجد أولاده الخمسة يلتهمون من البيتزا ما تطاله أياديهم بنهم ، ففزع فيهم ولملم ما تبقى من أمامهم ، وقال لناصرة :

- مش قولتلك اليوم دا مش هيعدي على خير.

***

خرج عسقلاني من الحجرة يهرول وهو يقول :

- حاضر يا بيه أنا جاي أهو.

وأخذ يردد : « يا رب استر يا رب « في كل خطوة يخطوها إلى داخل الفيلا ، وصل ووقف خلف منصور ؛ الجالس في الصالة الرحبة الفسيحة التي تزينها لوحات فنية وتماثيل وزخارف جميلة الأشكال والألوان ، وفي أثناء وقوف عسقلاني كالصنم خلفه حيران لا يجد ما يقوله ، اشتم منصور رائحة البيتزا ، فعرف أن عسقلاني وصل لتوّه ، فلفّ بالكرسي في حركة دائرية ، ليبدو بهيئته المكتنزة

المترهلة بعض الشيء ؛ وخصوصًا في منطقة الصدروالمؤخرة ، نائم على ركبتيه قطّه الأليف الشيرازي من نوعية البيكي فيس ، يمرر يديه على فروته البيضاء كثيفة الشعر ، ورمقه بنظرة توحي بعدم الاهتمام بوصوله ، ثم لف مرة أخرى بالكرسي محولًا وجهته ينظر بشغف للتلفاز الظاهر على شاشته أحد الإعلانات ، تقدم عسقلاني خطوتين أو ثلاث ؛ ليكون في محاذاة كتف منصور ، وعلق بصره بوجهه ، فوجد الضجر باديًا عليه وهو يقول - وزفرة الأوف تخرج من فمه - : إعلانات إعلانات دا الواحد زهق ، فلم يحاول عسقلاني النطق وتبرير فعلة أولاده وحلفاناته :

- والله العظيم يا سعت البيه منصور الأولاد مكنوش يقصدوا ياكلوها ، والله والله .....

فقطع منصور ما كان يدور في مخيلته من حلفانات بقوله :

- اتأخرت ليه يا عسقلاني ؟

- أيوه يا سعت البيه منصور أنا بتأسفلك لتأخرى ، وبتأسفلك كمان ؛ أصل الأولاد ....

ترددت الكلمات في جوف عسقلاني ، وبدا التلعثم واضحًا في كل حرف يخرج من فمه :

- أص....أص..ل .... يا...من ....صو..ر...بيه الأولاد ...

قاطعه منصور بعد سماحه للقط بمغادرة جلسة التدليك الخاصة التي يقوم يوميًّا بعملها له بقوله :

- خلاص يا عسقلاني فهمت ، روح ودّي باقي البيتزا لأولادك يكملوا على بقيتها، زي ما انت شايف ؛ لما لاقيتك اتأخرت قلت أسلي نفسي ، دخلت

المطبخ وعملت سندوتشين جبنة وبيض بالبسطرمة، يلا آهي حاجة أصبر بيها جوعي لما جيهان توصل بالسلامة .

رد عليه عسقلاني والبشر والسرور باديين عليه وهو يقول :

- والله مش عارف أرد جمايلك دي ازاي يا سعادة البيه منصور .

قاطعه منصور :

- خلاص يا عسقلاني روح ودي البيتزا زي ما قلتلك لأولادك ، كده هتشوش على كلام الست جيهان .

***

ظهرت من احتار في وصفها الواصفون ، ظهرت المرأة الشرقية (١) ذات الوجه الجميل المستدير كأنه قمر مستنير ، والخدان المكتنزان كأنهما تفاحتان بلون شقائق النعمان ، والأنف الأقنى كأنه الْمَرجان ، والأسنان لؤلؤ كثيرة اللمعان ، والشفتان من الكرز مخضَّبتان ، والابتسامة كالوردة تزهو ، والعيون تحاكي عيون الغزلان ، والشعر الأسود يظهر حالك كالليل ، حلي الفضة تزين كل الأطراف ، والحلق من زمرد في الأذنين يتراقصان ، والعنق طويل فيه قلائد جمان، وجمال يرافقه جمال.

منتديات عالم الرومانسية ، وصف امرأة شرقية

إنها الإعلامية اللامعة جيهان زوجة منصور ، ذات الخمسة وأربعين ربيعًا ، تظهرعلى شاشة التلفازوهي تقول في مقدمة برنامجها الأسبوعي - الذي ينتظره بفارغ الصبر ملايين المشاهدين ؛ لما يناقشه من قضايا تمس قطاعًا عريضًا من المجتمع -:

سيداتي سادتي ؛ أنا جيهان الخليل سأحلّ عليكم ضيفة ثقيلة الليلة لمدة ساعتين ، في برنامجي الأسبوعي « دائرة الاغتصاب « ، والذي أحاول من خلاله رصد بعض القضايا التي تمسّ حياتكم اليومية مباشرة ، والتي من خلالها تُغتصب أحلى أوقاتكم السعيدة ، والتي تحاولون دومًا ألّا تكون غير ذلك ، لكن نقول إيه !! الهموم ورانا ورانا مش سايبانا في حالنا ، وصدق المثل اللي بيقول : اللي نقوم فيه نصبح فيه ، وعلى عينك يا تاجر ، المسئولين نايمين في العسل نوم ، وللأسف ما بيصحوش من نومهم إلا لما بنتجرأ ونطرح واحدة من هذه المشاكل العديدة ، التي للأسف توجد حلول كثيرة لها ، لكن نقول إيه ... نقول إيه ... آه نقول يا عيني ، نلاقي المسئولين الموكل إليهم حل مشاكلنا ولا همّا على بالهم ، وطبعًا انتوا شوفتوا بعنيكم الأسبوع الماضي لما تعرضنا لمشكلة التحرش الجنسي ، لاقيناهم تاني يوم بهمة ونشاط راحوا يمسكوا في المتحرشين ، ويقدموهم لمحاكمات عاجلة ، والغريبة إن التحرش موجود من زمان ، ييجي

من أربعين سنة أو أكتر بشوية ، وعشان نفكركم بالحلقة الماضية استسمحكم في إعادة جزء من اللي قولناه الحلقة اللي فاتت :

نشوف مشهد من حلقة الأسبوع الماضي اللي أغضبت المسئولين :

مشهد :

مين فاكر فتاة العتبة اللي اغتصبت جهارًا نهارًا عيانًا بيانًا في بدايات التسعينيات من القرن الماضي ؟ آه أنا شايفة واحد بيرفع إيده ويقول أنا ، أقوله برافو عليك ، وعشان أفكركم : المجرم ساعتها ملقاش حدّ يردعه ، فارتكب جريمته ويابو الفكيك فصّ ملح وداب ، ويا عيني الدنيا قامت وهاجت ، وبقى موضوع فتاة العتبة الشغل الشاغل للرأي العام ، الذي وضع المسئولين وقتها في مأزق ، قاموا وسنّوا سكاكينهم على المتهم ، يكيلون له ويتوعدونه بأغلظ العقوبات ، واحد طبعًا من الشباب اللي قاري وفاهم ، واللي برضه ما عاصرش الحكاية دي لكنه سمع بيها من حد يكبره كوالده مثلًا ، هيقوم ويقول لنا هما المسئولين ليه فضلوا ساكتين ونايمين في العسل ، وماشافوش حل للمشكلة دي قبل ما تقع وقتها ، مع إني موضوع التحرش دا بدايته كانت مع بدايات عصر الانفتاح الاقتصادي في بدايات السبعينيات من القرن الماضي ... cut» .

عودة للحلقة

ولحد كده ونقول كفاية ، ندخل في موضوع حلقة الليلة ، اعذروني ما احنا برضه لازم نفكر المسئولين الكرام : اللي بنلاقيهم بعد فوات الأوان يقوموا يتخبطوا في بعض زي المساطيل ، يبحثوا عن حلول لهذه المشاكل الخطيرة التي يرونها أمام أعينهم ليل ونهار ، وكأنهم غير مصدقين أنها موجودة ، عارفين ليه هما كده ، عشان هما لما اعتلوا مناصبهم انفصلوا عن الواقع ، أصبحوا عايشين في برج

عالي عالي ، وللأسف هما عارفين كويس إنهم هينزلوا في يوم من البرج دا ، وعشان كده هما بيعملوا أقصى ما في استطاعتهم لجمع أكبر قدر من المال السايب ؛ والذي سيحميهم حتمًا - زي ما هما فاكرين - من شرّ تقلبات الزمن ، واحنا عارفين برضه عزّ المعرفة المال دا بيجمعوه إزاي ؛ عن طريق النهب والسرقة طبعًا ، بكل الوسائل وبشتى السبل ، وبأكثر من طريقة يتفننون في سرقة هذا المال ، المال السايب اللي مالوش أصحاب ، زي هما فاكرين ، لكن اصحي يا شعب وفوق ، المال اللي هما بينهبوه دا له أصحاب ، عارفين مين أصحابه ؟ هو انتو يا غلابة .

وعشان كده بفكر كل واحد مسئول إن البرج العالي اللي قاعد فيه دلوقتي ، لو حكّم عقله وفهم اللي بنقوله ، ممكن ينزل على رجليه سليم ويمشي بينّا عادي ، لكن لو - وآه من لو - لو ما سمعش الكلام ؛ وحياة ربنا ليجيلوا يوم ويقع من فوق البرج دا ، وهو وحظه ، يا تنقطم رقبته يا ينزل مفتفت حتت ، يا يطب ساكت .

آه وأنا سامعة واحد منهم دلوقتي بيضحك على كلامي وبيقول : وممكن ينزل سليم ، أقوله : آه يا حلو وما له ما ينزل سليم ، هو ربنا كاتبله إن الوقعة ما تأثرش فيه ، لكن يا حليوة ؛ افتكر كويس إن فيه ملايين من الشعب جعانة ، ومكلتش لحمة من زمان ، ونفسها تاخد شيء من الدبيحة حتى لو كانت اللية اللي تشبه لية الخروف ، ويا سلام ؛ الدبيحة اتدبحت يا جماعة الحقوا ، وساعتها بقى اللي نفسه في ورك في حتة كبدة في الكلاوي ، المهم إن المحرومين والغلابة ياكلو لحمة والسلام.

دلوقتي بقا اسيبكم عشان فيه فاصل إعلاني ، يلا ؛ اشوفكم بعد شوية مع موضوع لا يقل أهمية عما قلناه .

وانقطعت الصورة عنها بعد تلك المقدمة ، وحتمًا جعلت كل مسئول جالس يشاهد حلقتها يغلي ويفرك من الغيظ ، لتنزل الإعلانات المملة المطولة المضجرة لمشاهدي برنامجها ، كما يفعل زوجها منصور « إعلانات إعلانات أوف دا الواحد زهق» .

نظر منصور خلفه ليجد عسقلاني ما زال مكانه كالتمثال يشير بيده ناحية التلفاز لا يتحرك

- إنت لسه واقف يا عسقلاني !!

قال له منصور ذلك بتعجب .

انتبه عسقلاني لكلامه وقال :

- ممكن يا منصور بيه أودي البيتزا لأولادي وآجي اتفرج مع سيادتك ع الست جيهان ، أصلها حلوة جوي جوي في التليفزيون .

استشاط منصور غضبًا على غضبه من الفقرة الإعلانية المطولة ، بل ويزيدها عسقلاني بكلمات الإطراء الرامي بها زوجته أمامه ، ظنًّا منه أنه سيجد إنسانًا مثقفًّا فاهمًا وواعيًا لكل كلمة قالتها زوجته ، سيستأذن بعدها للجلوس معه لمناقشته فيما قالته بشأن هؤلاء المسئولين غير المتعظين من كلام سمعوه ويسمعوه ، في حق مسئولين سابقين وحاليين لم يراعوا مسئولية ما تحت أيديهم من أمانة ، أوتذكير حفظوه عن ظهر قلب بأن هؤلاء المسئولين السابقين ، ومن كانوا حاليين ، رحلوا تاركين بصمة سوداء في تاريخهم الوظيفي ، كانت وصمة عار في جبينهم لا تسقط بالتقادم ، بل وأصبحت وزرًا يتحمله أولادهم وأحفادهم من بعدهم .

ويا ليتهم تذكروا تنبيهات مَلّوا سماعها من كثرة تكرارها على مسامعهم ، بالعزل من الوظيفة إن لم يرتدعوا وإلا فمصيرهم كغيرهم ممن رُحّلوا إلى السجون الأولى بهم ؛ نظرًا لجرمهم ، وإنها لكفيلة بعقابهم .

تخيل نفسه يسمع زوجته جيهان من خلف شاشة الإعلانات تتوسل إليهم بعدم الانسياق وراء أهوائهم ، وأنهم لا بد لهم من تحكيم ضمائرهم فيما وكل إليهم من مهامّ جسام ، دون تراخٍ أو تهاون أو طمع .

تذكر منصور كل هذا ، وأكثر منه ، من خلال واقع عاشه بنفسه ، خلال ما يقرب من الخمس وعشرين عامًا أي منذ امتهانه لمهنة البحث عن المتاعب ، وعاد بمخيلته لواقعه وقال لعسقلاني - وهو يكتم غيظه بعد أن رمقه بنظرة تبين له من خلالها أن كلمات الإطراء التي رمى بها زوجته وعلى مسامعه إنما خرجت من فم عفويّ لا يرغب في شيء من ورائها ، قال له وهو مغلوب على أمره - :

- أمري لله يا عسقلاني ، روح ودي البيتزا لأولادك وتعالى اتفرج معايا على الست .

انتهت الفقرة الاعلانية ، وبدأت دقائق البرنامج تمرّ أمام المشاهدين المنتظرين بفارغ الصبر ما ستطرحه جيهان من خلال الحلقة .

ظهرت جيهان من جديد ، متألقة كعادتها ، وجهها مشرق ، عليه ابتسامة لم تكن لتفارقها حتى في أشد لحظات حزنها ، وقالت :

قبل أن تملوا مني مشاهديّ الكرام وجمهوري العزيز ، كمللكم من الفقرة الإعلانية مثلي ، هخش في الموضوع على طول ، إنه من أهم المواضيع في دايرة الاغتصاب ، يلا بينا عشان تدخلوا معايا سوق مكنش حد من المسئولين يتوقع أنه موجود ، لأوليه ميتوقعوش إنو موجود هنا في بلدنا ، دول عارفين إنو سوق

كبير ، وكبير قوي كمان ، وساكتين ومكتمين طبعًا عشان ميتفضحوش ، لكن احنا بقى هنفضحهم ، وبطالب ع الهوا أمامكم مشاهديّ الكرام محاسبة كل مقصر وليه إيد في تمادي تلك المصيبة التي استفحلت .

إنها يا سادة سوق النخاسة ، أنا شايفة في حد قدامي بيضحك وبيقول : سوق نخاسة إيه يا مدام جيهان !! آه والله العظيم موجود في بلدنا سوق نخاسة ؛ لا ومش كده وبس ، دا المصيبة السودة إن أغلبية من تباع أجسادهن فيه بنات صغيرة ؛ تتراوح أعمارهن بين العاشرة والسادسة عشرة، والبنات الصغيرين دول بيبيعوا أجسادهم ليه ياسادة !!

عاوزين تعرفوا ليه هاقولكم ؛ عشان يصرفوا طبعًا على كوم اللحم المكون من اخوات صغيرين على أم مطلقة على أب اتقطعت رجليه الاتنين وهو معدّي رايح شغله من على قضبان السكة الحديد ، وغيرها وغيرها من الأسباب ؛ التي ستقنعنا حتمًا أنهن أقدمن على امتهان هذه المهنة عشان أهاليهم ما يمتوش من الجوع ، عارفين يعني إيه الجوع يا سادة يا مسئولين ، مش هقولكم ؛ جاوبوا انتوا بقى ، والطمي يا اللي انتي مش غرمانة ، بقى عندنا أسواق نخاسة من أجل أن تغتصب فيها أجساد النساء ، نساء مين يابا دول فتيات صغيرين يا عم ، قاصرات يا خال .

يا لهوي يا خرابي ، مش دا برضه تكرار للحلقة الماضية ولّا أنا غلطانة ، تحرش بس إيه على وسع ، حد يفوّقني ويقوللي أنا غلطانة ، أنا غلطانة يا أخ ، والنبي يا عم أنا غلطانة ، وربنا يا خال لا تقولي أنا غلطانة ، عليكوا نووووور، دبروني بقى ؛ شاوروا عليّ نعمل إيه أدام أجمعتوا إن أنا صح ، في حدّ عنده حل للمصيبة دي ؟

ولا أقولّكم أحسن ؛ إحنا نبعت لباولو كويلهو نترجاه ونبوس إيده ورجله إنو يكتب لنا رواية عن بناتنا القاصرات ؛ اللي للأسف تحت وطأة ظروف المعيشة القاسية هاجروا من أزقاتهم وحواريهم وشواريعهم ، وركبوا طيارة الأمل اللي رمت بيهم في شوارع العاصمة ، وهُبا افتكروا إنهم عايشين في بلد متحررة زي سويسرا ، لكن منلمش واحدة منهم ، لازم نلوم نفسنا كلنا .

احنا يا سادة اللي وصلنا لهذا الانحطاط الأخلاقي لأن تمتهن بنات في عمر الزهور تلك المهنة ، حرام والله حرام ، مين مننا يرضى إنو تكون بنته ...

مش قادرة أكمل ، نفسي أختم الحلقة دلوقتي ، قبل ما نسمع ، لكن للأسف مش هنقدر نشوف وجوه ؛ لأن ديننا وعادتنا وتقاليدنا لا يسمحوا .... إن الله حليم ستار.

كانت جيهان مستضيفة في الحلقة أربع بنات ، وقد نزلت ستارة على وجوههن ؛ كي لا يتعرف عليهم أحد من أهاليهن أو أيّ من المشاهدين ، بُحن لها عن عملهن ، وكيف أنهن يُغتصبن كل ليلة مقابل حفنة من المال ؛ لأجل الإنفاق على أُسر مكونة من خمسة وستة أفراد ، وهكذا من الأسر ، فرضت عليهن الظروف العمل في هذه المهنة ، ووجدوها أنسب وأشرف مهنة لا يخجلون من الاعتراف بامتهانها علنًا أمام كل الناس بأنهم يعملون بها ، فهي الاختصار لطريق طويل ، أوله التحرشات الجنسية بهن في أي عمل تمتهنه أي شابة في عمر الزهور مثلهن .

صفق منصور بيده ، وقال في منتصف البرنامج: والله براوة عليكي يا جيهان ، أشهد لكِ وأبصم بالعشرة أنها أحلى وأهم حلقة قدمتيها في حياتك المهنية .

اعتدل ناحية عسقلاني الجالس أرضًا ، فوجده في حالة شديدة من التركيز ليسأله إن كان يعجبه موضوع الحلقة أم لا ؟ فرد عليه عسقلاني - الظاهر على

وجهه الصدمة والذهول مما يسمعه من اعترافات الفتيات الأربعة - :

- إنت عارف يا سعادة البيه منصور ؛ لو بنت من دول عملت العملة دي في بلدنا لكنا قطعناها قطيع ، وبمرارة بصق جانبًا ، وقال في سره : الله يلعنك يا ولد عمي .

اضطر منصور النزول لمستواه الثقافي ليبدأ النقاش بينهما :

- بس الذنب مش ذنبهم يا عسقلاني .
- أمال ذنب مين يا سعادة البيه .
- الفقر يا عسقلاني ، الذنب ذنب الفقر ، الفقر اللي اتولد من صلبه ولد اسمه الجهل ، والجهل دا اللي خلى فيه عادات وتقاليد عمياء تدوس دوس على أعتى القوانين ، الجهل اللي حتم عليك تسيب بلدك وترحل بهدمتك إنت ومراتك في ليلة دخلتك ، والجهل برضه اللي خلاك تشتغل شغلانة البواب اللي إنت بذات نفسك بتلعن الظروف نفسها اللي خلتك تشتغلها ، والجهل برضو اللي خلي مراتك تزرب كل سنة والتانية عيل لحدّ ما هيبقوا الليلادي ستة.
- لا يا سعادة البيه منصور أنا والحمد لله ...
- متحاولش تبرر ، أنا عارف يا عسقلاني إنت هتقول إيه ، إنك واخد الابتدائية وإنك ابن ناس ، ومن عيلة محترمة جوي جوي في الصعيد ، وأنت الوحيد اللي باقي على وش الدنيا منها ، ولك ورث طين كبير لازمًا ولا بد تعاود لبلدك لاسترداده ممن هم واضعين يدهم عليه , بس برضو الجهل ابن الفقر هو اللي عمل فيك كده ، صح ولا أنا غلطان؟
- الله ينور عليك يا سعادة البيه منصور .

انتبه منصور للمستوى الذي وصل إليه بمناقشاته وحواراته مع عسقلاني ، وتذكر أنه مهما كان مجرد بواب لا راح ولا جه ، وتذكر أيضًا أنه الصحفي المرموق

رئيس تحرير واحدة من كبريات الصحف ، فقال لعسقلاني :

- أنا سامع مراتك بتنده عليك يا عسقلاني .

هبّ عسقلاني من مكانه ، وقام مهرولًا وهو يقول :

- حاضر يا ناصرة .

بدت نواجذ منصور على إثر ابتسامة خفيفة صدرت من فمه ، شرد بذهنه بعدها لفترة ، يحاول استحضار كل ما مرّ به المجتمع من حوادث وأفعال غريبة ، لم تكن موجودة قبل حلول أعوام الثمانينيات ؛ التي حملت لنا كل ما هو أسوأ ، وبسبب ذلك الأسوأ الذي لم تقتلع جذوره في وقتها ما زلنا ، وما زالت الأجيال المتعاقبة ، تتفتح عيونها آملةً رؤية المستقبل المشرق البراق ، المليء بالوعود الكاذبة ، نعاني وتعاني هي الأخرى بل إنها تصطدم بما تراه ، بل وتنجرف مع التيار تطاوعه ، وتتماشي معه ؛ كي تعيش ليس في يدها أي سلاح تقاوم به هذا الهجوم العاتي ، من قيم وأخلاق انحدرت انحدارًا لا يمكن تقويمه بسهولة داخل مجتمع أصبح على وشك أن يكون تعداده بين لحظة وأخرى المائة مليون نسمة ، بل وسيتجاوز ضعف هذا الرقم خلال سنوات قليلة .

انتبه منصور على ما تقوله زوجته ، والذي به تختتم حلقة برنامجها : « إن تدمير الأخلاق ونشر الفواحش وهتك الأعراض وهدم الأسر ، أسوأ مليون مرة من كل الجرائم السياسية ، ومن نهب المال العام ... فالنقود يمكن تعويضها، لكن أجيالًا تفسد تحت وطأة الانهيار؛ الذي ما زلنا نتعرض له ، وتحديدًا منذ حقبة سبعينيات القرن المنصرم ، والتي كان أخطر القرارات التي اتخذت فيها هي الانفتاح الاقتصادي.

وصدقوني لن يمكننا إعادة إصلاح اعوجاج هذه الأجيال بسهولة، بل وأؤكد أنه سيستمرّ تأثيرها السلبي على المجتمع لعقود طويلة قادمة، خاصة أن منها مثقفين وإعلاميين ومفكرين وكتابًا يدافعون عن الرذيلة كأنها دين! إنه الحصاد المرّيا سادة ، اصحوا وفوقوا بقى ، إننا بِصَمْتنا نحقق لأعدائنا أكثر مما كانوا يستطيعون فعله فينا باحتلالهم العسكري لبلادنا!».

ألقى منصور بما تبقى من ساندوتشاته لِقطّه الأليف الجالس بين قدميه ، والمنتظر بفارغ الصبر الظفر لأي شيء مما يأكله ؛ حتى يعود إلى مكانه المفضل تحت الكرسي .

كان منصور - قد أثرت فيه كلمات زوجته المختتمة بها حلقة برنامجها التأثير البالغ ، تأثيرًا يدمي القلوب ، ويجعلها تتحسر بحق على الأيام التي لم يعشها إلا الأجداد ؛ بدايةً من الفراعنة حتى أواخر الستينيات من القرن العشرين ، وبعد الستينيات حدِّث ولا حرج ، بدأ المجتمع في الانحدار ، بدايةً من الانحدار الاقتصادي فالسياسي فالثقافي ، بكل أنواعه وأشكاله وألوانه ... إلخ ؛ ليتجمع كل هذا في زجاجة نرجّها جيدًا لتنتج لنا انحدارًا أخلاقيًّا لم ينج منه أحد ، ورغمًا عنه عاد لواقعه الذي لن يجد مهربًا من العيش فيه بحلوه ومره ، مقررًّا أن يكون أول مهنئ لزوجته على الحلقة الرائعة التي قدمتها ، فبدأ يفتش عن هاتفه المختفي في كل مكان ترمي بيده إليه ، طاردًا ظنه بأن عسقلاني أغراه غلاء ثمنه فوضعه في جيبه ، وهو الآن فاصلٌ بطاريته عنه كي يتصرف فيه ببيعه في الصباح .

وبينما هو كذلك مشتت الفكر، هائم يبحث بكل جدّ عن الهاتف ، سمع مواء القط لا يتوقف لرفضه محتويات الوجبة المقدمة إليه ، فذهب منصور ناحيته لعله يستطيع صبّ جام غضبه عليه لعله يصمت ، مدّ يده تحت الكرسي ليأتي

به ، فاصطدمت يده بالتليفون ، فابتسم وهو يقول : والله ظلمتك يا عسقلاني ، فعلًا إن بعض الظن إثم . وشكر القط على صنيعه هذا وهو يقول له : « ليك عليّ يا عم أحضرلك أحلى وجبة بتحبها ، مع إنك عارف إني مبعرفش اطبخ» .

وقبل اتصاله بزوجته تذكر شيئًا مهمًّا يخص عمله ، فاتصل من فوره برئيس قسم الإخراج في الجريدة يأمره بإفرد صفحتين كاملتين في عدد الغد لتحقيق مشابه لما قدمته زوجته ، وإن لم يجد فليبحث عن تحقيق يتكلم عن بنات الليل ، ردّ عليه رئيس قسم الإخراج أنّ فعل ما يقوله مستحيل ؛ لأن الطبعة الأولى على أرصفة الشوارع الآن تُشترى ، والثانية على وشك الطبع .

لم يكن في وسع منصور غير أن يقول له : افعل ما آمرك به ، اتصل بالمطابع وأمرها بالتوقف عن إصدار الطبعة الثانية لحين وضع التحقيق الذي آمرك بأن يكون بين صفحات ذلك العدد وما يليه من طبعات ، ونبه عليه إن لم يفعل ما يأمره به فعليه تقديم نفسه للتحقيق تمهيدًا لتركه وظيفته ، أو يوفر على نفسه عناء كل هذا ويضع استقالته على مكتبه في الغد ، وأعلمه أن هناك العديد من التحقيقات التي أجريت في السنوات السابقة عن هذا الموضوع ، وهي موجودة بالأرشيف ؛ عليه فقط أن يأمر بإخراجها ، وليختر منها الأفضل والأقوى والمثير، أو فليقتطف مقتطفات من كل تحقيق ويجمعها معًا ، وبذلك ينتهي الموضوع .

ونبه عليه في نهاية اتصاله له أن يجد ذلك الموضوع المثير للاهتمام ، وهو يقلب صفحات العدد بين يديه في الصباح ، وأغلق التليفون وألقى به من يده في أقرب مكان بجواره ، وراح يبحث مرة أخرى عن القط تحت الكرسي ليشكره .

علا صُوات ناصرة ، ولم تعد تحتمل المزيد من الصبر، طلبت من عسقلاني الذهاب للمجيء بنحمده الداية في التوّواللحظة ولا يعود إلا بها، حاول عسقلاني إقناعها أن ميعاد ولادتها لم يحن بعد وأن إتيانه بنحمده لن يقدم ولن يؤخرفي شيء ، وراهنها على ذلك ؛ وهو الخبيرفي ذلك بعدما أشرف على ولاداتها الخمس السابقين من قبل.

يساعد نحمده ، يأتي لها بالمياه المغلية ، وهو لا يعرف حتى لحظته ماذا تفعل بها ، ولم يحاول أن يسأل أو يستفسر لماذا ، إلى أن تنتهي عملية الولادة بخيرويحمل المولود بن يديه ، ويلبسه ملابسه الجديدة المهداة من جيهان ربة المنزل ، بعد قطع حبله السُّري وانفصاله جسديًّا عن ناصرة .

أزعجه صواتها المتقطع ، ولم تفلح محاولاته في إراحة قدميه المنهكتين من كثرة المشاوير طيلة النهار، سلَّم أمره لله ، وذهب لنحمده يرجوها السير برفقته ، بقوله لها إن ناصرة قررت الولادة الآن ، وليس فجرًا كما قالت لهما ذلك في الصباح .

لم يكن من الصعب على نحمده رفض طلبه ، بعدما أصبحت بلا عمل في هذا المجال منذ وقت طويل ، وبالتحديد منذ فشلها في عملية ختان لإحدى بنات نجع الجزيرة التابع لقرية البلابيش ، حيث منشأها ومنشأ والديها وأجدادها، حُكم عليها وقتها بالسجن ثلاث سنوات ، وكذلك والد الطفلة ضحية ختانها ، إثر نزيف حادّ لم تفلح نحمده في إيقافه . بعد سجنها مباشرةً لملم زوجها حاجياته ، ورحل هو وأولاده بعيدًا آثرًا السلامة ؛ خوفًا من الاحتكاكات المتعمدة المتعرض لها ، بسبب ذلك الحكم الصادر بحق والد الفتاة .

وجدها عسقلاني ملاذه الآمن عند أول ولادة لزوجته وقتها ، لم تفلح محاولات

جيهان في إقناعه بنقل زوجته إلى أقرب مستشفى لتضع مولوده هناك ، تعلل بأن المولود نصفه خارج من رحم زوجته ، وأن نحمده هي الأقرب من أي مستشفى تبعد عنه قرابة الساعة حتى الوصول إليها .

وبعد تلك الولادة التي استهلتها زوجته بالولد تناسى جرم نحمده ، وجعلها فأل خير عليه كما يظن من أنها وراء خلفة زوجته للصبيان لا البنات ، ولذلك السبب تجددت مهنة نحمده من خلال ناصرة ، وعسقلاني من شجعها على ذلك ، وغير ذلك لا تمتهن أي مهنة أخرى ، تنتظر الحَوْل وراء الحَوْل لتمدّ يدها داخل بطن ناصرة ؛ لتخرج بالولد تلو الولد ، وتصمم على الافتخار بذلك ، وتتعمد نشر الخبر بنفسها بين سكان الحي لعل واحدة من النساء تطلبها لأجل ذلك ، لكنهن يخيبن رجاءها ، ولا يطلبنها إلا لتنظيف مداخل العمارات ، وكذلك درجات السلالم التي تؤدي إلى شققهن ، من الأوساخ التي تلتصق بأقدام أفراد الأسرة ولا تستقر إلا في المداخل ، فترفض لرفض زوجها وأولادها .

استقرت نحمده بين قدمي ناصرة تطلب منها الحزق بكل ما أُوتيت من قوة ؛ لعل المولود يستجيب ويطل برأسه كما فعل إخوته من قبل ، طلبت من عسقلاني تسخين المياه ، وأكثر من مرة يفعل والمياه تبرد ، أنهكه التعب ، وبدا واضحًا عليه ، وأطفاله الخمسة الصغار حواليه لا يستطيع فعل شيء لهم ، هو يعلم أنهم جوعى ، لم تفلح البيتزا في إشباعهم ، إنه طبيخ والدتهم سر ملء بطونهم ، وهو متعب مجهد ؛ لدرجة وصول جيهان بسيارتها حاولت معه في وقوفه على قدميه ، ويفتح لها باب المدخل لكنه لم يستطع تنفيذ طلبها .

- مش قادر أقوم من مكاني ، سامحيني يا ست جيهان ، من كتر التعب لم أعد أستطيع تحمل الوقوف على قدماي .

لم تجد جيهان بُدًّا من النزول والترجل لفتح الباب بنفسها ، دخلت بالسيارة وهي محتارة في أمره ، من خلال جلسته وكلامه هذا لم تعهده عليه من قبل وهو متكوم هكذا في مكانه .

- ما لك يا عسقلاني ؟

- أبدًا يا ست جيهان الموضوع وما فيه إني تعبان حبّتين .

صدرت آهات شبه مكتومة من داخل حجرته ، تبعها صراخ أطفاله الجوعى حواليه ، لطم خديه ، فظهرت الحيرة أكثرعلى وجه جيهان التي سألته وهي فزِعة:

- في إيه يا عسقلاني أخبرني ماذا يحدث بالداخل ؟ .

- لا مؤاخذة يا ست جيهان ناصرة ميعاد ولادتها الليلة ، والظاهر والله أعلم إن الولادة متعسرة هذه المرة ، نحمده الداية معاها بالداخل ولا تستطيع فعل شيء لها .

- ومستني إيه يا مجنون لِمَ لَمْ تبعث بها إلى أقرب مستشفى !!

- مستشفى إيه يا ست هانم ، ما هي كل مرة بتولد على يد نحمده يبقى إيه لزومها المستشفى !!

- كفاية تخلف يا عسقلاني وقوم معايا ، مراتك لازم تروح المستشفى حالًا .

دخلت ورأت حالة ناصرة يرثى لها ، فاقشعرّ بدنها وهي ترى النزيف الشديد المتعرضة له ، تحاول نحمده كتمه بجلباب من جلاليب ناصرة ، فاستفسرت جيهان بتطفل - وهي الجاهلة بأمور الولادة - : « أخبارك إيه يا ناصرة» ردت عليها نحمده «ربنا يستر يا ست هانم ، المشيمة ظهرت قبل الجنين ، وزي ما انتي شايفة أدَّى ذلك لحالة نزيف شديدة أحاول جاهدة كتمانه .

انتابت جيهان حالة فزع لم تطرأ عليها من قبل ، وأحست أن ناصرة سيحدث لها كما حدث للطفلة التي ماتت على يد نحمده وهي تُجري لها عملية الختان ، وأن هذا النزيف تراه أمام عينيها من الممكن أن يؤدي لوفاتها ، مما اضطرها لنقل ناصرة إلى أقرب مستشفى ، وبفضلها لم تمرّ الساعة إلا وكانت ناصرة داخل حجرة العمليات تجرى لها عملية قيصرية ؛ لاستخراج الجنين الذي كان يحاول الخروج إلى الدنيا بقدميه أولًا لا برأسه ، كان سيقضي على ناصرة ويعجل بموته أيضًا ؛ لحالة تعب وإرهاق نالهما من خلال محاولات نحمده المصممة على إخراجه للحياة على يديها من خلال الولادة الطبيعية .

***

لم تكن الفرصة مواتية لجيهان لإعلام منصور بشأن توصيلها لناصرة ، والمكوث بجانبها داخل المستشفى حتى انتهاء عملية ولادتها بخير، واطمئنانها على صحتها ، اتصلت به تتأسف له على تأخرها وأخبرته بمكان تواجدها ، فتفهم منصور الموقف ولم تبدُ عليه أي علامات للحزن أو للامتعاض عند مجيئها ، فقط حاول رسم ابتسامة خفيفة وأن يملأ الجو بهجة وسرورًا لنجاحها المبهر في تقديم حلقة برنامجها ، وما ستثيره من زوابع لدى المسئولين والعامة كافّة ، ولن تهدأ كسابقاتها من القضايا التي قدمتها ، لكن جيهان قابلت كل ما قاله بفتور واضح وهي تقول له :

- كل هذا لا يعنيني في شيء ، إن ما يعنيني فقط هو حال المسكينة ناصرة الراقدة الآن في المستشفى بين الحياة والموت ، لا تفكر في شيء سوى رؤية مولودها الصغير، وهل هو بخير أم لا ؟ ألهذا الحدّ وصل بها الجنون لعدم الاهتمام لما حدث لها وهي من كانت على شفا الموت وتفكر في مولودها الصغير !!

جلست من فورها على أقرب كرسي ، وحل الصمت على المكان ، صمتٌ رهيب قطعه مواء القط ، ليستهل منصور بعده الكلام بقوله - بعدما فهم المغزى الحقيقي من وراء كلامها الذي يقطع بل وينهش أعضاءه الداخلية نهشًا بدون رحمة ولا هوادة - :

- وأي الحلول تفضلين الآن ؟

وسكت برهة ليتكلم بعدها - وجيهان واضعة خديها بين يديها - :

- واضح من سكوتك إنك قررت أخيرًا الانفصال عني ، وما دام هذا قرارك فلن أقف حائلًا دون تحقيقه .

رفعت جيهان رأسها وردت عليه بنبرة ملؤها الانكسار :

- أنا لم أقل ذلك ، أنا فقط أحلم بأن أكون مثل كل سيدة في هذا العالم ، أريد أن أكون أُمًّا ، وهذا حقي ، ألا تعلم ما مدى العذاب الذي ينهش في أعصابي يوميًّا ، كلما رأيت طفلًا صغيرًا أمامي أرى بأم عيني العام يليه الآخروناصرة تأتي بالمولود يليه المولود ، وهي سعيدة بهم ، رغم الأهوال التي تلاقيها في كل ولادة .

تكلم منصور وقال :

- أبادلك نفس الإحساس ، فكل ما حققته من شهرة ، وما وصلت فيه من أعلى المناصب لرئاسة تحرير الجورنال ، إلا أن كل ذلك لا يساوي شيئًا أمام عاطفة الأبوة ، أتمنى مثلك وأحلم كل يوم بأن يكون لي ولد من صلبي ، يقول لي بابا منصور ويناديك بماما جيهان ، لكنها إرادة الله في أن يجعلني عقيمًا ، ولقد خيَّرتك مرارًا وتكرارًا على الانفصال لتحقيق حلم أمومتك بعيدًا عني مع رجل آخر، لكن ...

- لكن إيه ما تتكلم .. لكني أرفض ، في كل مرة أدوس على عاطفتي وأنحيها

جانبًا ، لماذا ؟ ألا تفهم لماذا ؟ لأني أحبك ، ألا تفهم يا منصور لأنني أحبك .. أحبك ، ولا أتصور أني سأحب رجلًا آخر غيرك ، مهما أعطاني ما أتمناه وأرجوه في هذه الحياة .

تذكرا سويًّا قصة حبهما التي بدأت أثناء دراستهما بكلية الإعلام ، وصمودهما أمام تحديات كالحائط الصدّ مانعٌ دون إتمام زيجتهما ، من عدم اتفاق أسرتيهما على التفاصيل الصغيرة من مهر وشبكة ، هذا غير السكن ، اشترطت أسرتها وجوده في نفس منطقتهم السكنية ؛ إن لم يكن بالجوار ، ناهيك عن تعنت كلا الوالدين ، وتمسك كل منهما برأيه وإلا فلا زواج ، ولتذهب كل أسرة إلى حال سبيلها ، ورغم تلك العقبات تحدّيا أسرتيهما وصمما على إتمام الزواج ، تهديد صريح لأسرتيهما بالذهاب للمأذون وحدهما إن صمما على رفضهما .

وعلى إثر رجوعهما بذاكرتهما لوقتهما الحاضر تقرب الاثنان من بعضهما ، نظراتهما لبعضهما تعلن صراحة أنه لا انفصال بينهما مهما حدث ، وللتأكيد على حسن النوايا قال لها منصور إنه سيعاود عرض نفسه على أكبر الدكاترة المتخصصين في مجال الذكورة والعقم ، وذلك من خلال هوايته المفضلة لديه في الآونة الأخيرة ، ألا وهي زيارة عياداتهم بصفة دورية ، لعل وعسى ظهور جديد في مجال الطب المتقدم كل يوم عن الآخر ، ويظهر فيه بعض المستجدات التي تبعث الأمل في قلوب الحيارى مثله ، ووعدها أنه لن يترك مجالًا للتهاون أو الكسل أن ينال من عزيمته هذه المرة في اتباع البرنامج الذي سيفرضه عليه أكثر الدكاترة خبرة في مجاله ، ولثم يديها وهو يطمئنها برجاءٍ عرفته جيدًا من خلال نظرات عينيه اللتين تفضحانه ، بمحاولة استرضائها واستعطافها بعدم تركه ، وإلا كان هزيمًا لحالة اكتئاب ، لن يخرج منها إلا وهو مرفوع ، في نعش يوصله لمكان دفنه بين المقابر في عالم الأموات ، لا يجد من يترحم عليه .

استيقظ منصور باكرًا ، لثم وجهها وتركها نائمة ، لم يشأ إيقاظها ، فقط حاول التأقلم على الوضع الجديد الذي تخلقه ناصرة مع كل ولادة من ولادتها لأولادها الستة ، قال لنفسه وهو يعدّ طعام الإفطار بنفسه :

- كلها أسبوعين ولّا ثلاثة وتعود الأمور لطبيعتها ، عليّ فقط التأقلم على هذا الوضع الجديد .

أعد لنفسه طبقًا من عجة يجيد عملها ، وأخرج بعضًا من أنواع جبن مليئة بها ثلاجته ، بجانب أرغفة من الفينو والكايزر، تفحص كل الجرائد الصادرة في ذلك الصباح ، وقارنها جميعًا بين صحيفته ، فلم يجد من بينها نشر خبر التحقيق الذي أمر بنشره ، وحتمًا سيثير من وجهة نظره ضجة في أوساط الرأي العام ، قاصدًا بذلك إضافة لحلقة برنامج زوجته بالأمس ، فهو يعتبره تدعيمًا لنجاحها الإعلامي منقطع النظير، وليس في هذه القضية فقط بل في كل القضايا التي تطرحها وتعمل جاهدة على تقديمها بالشكل المناسب ، من خلال أوجه عدة كي يفهمها ويعي خطورتها المواطن البسيط والعادي قبل المثقف والمتعلم ، وفي النهاية يصل مغزاها جيدًا للمسئولين ؛ الذين لا يتحركون من تلقاء أنفسهم لحل هذه القضايا ، ينتظرون فقط طرحها وبعدها يتحركون لإيجاد حلول لها ، وكأنهم في عالم آخر يسكنونه يحجبهم أو يجعلهم مصممين على نسيان واقع ملموس يعيشونه ، لكنها مناصبهم هي من فصلتهم عنه ، أجهزة التكييف تجعل درجة حرارة نيران مكاتبهم جنة ؛ لذلك فهم لا يحبّذون فكرة تركها وممارسة عملهم الواجب فعليًا أن يكون في الشوارع بين الناس ، يقنعوهم بمجهوداتهم ، والكدّ والعرق المبذول لتذليل كل ما يعوق معيشتهم لا بالكلام المعسول المحشوّ بالكذب والنفاق .

سحب منصور ورقة بيضاء من أمامه ، كتب فيها - وهو يقضم لقمة من رغيف الفينو- :

- أعتذرلك حبيبتي جيهان وأهنئك في ذات الوقت على حلقة الأمس ، وأتمنى لك التوفيق والنجاح الدائم في جميع الحلقات المقبلة ، زوجك العزيز المحب المخلص والوفي لك .... منصور .

وضع الرسالة بجانب التحقيق المنشور ، خرج بعدها واستقلّ سيارته متجهًا إلى عمله ، نادى على عسقلاني ليفتح له باب المدخل ، فلم يسمع استجابته له ، ترجّل من السيارة ليتأكد إن كان ما زال بداخل حجرته نائمًا أم أنه ذهب ليطمئن على زوجته ناصرة الراقدة في المستشفى بقرارمن الأطباء ، تم حجزها لمدة أسبوع حتى اكتمال شفائها من العملية القيصرية التي أجريت لها .

نادى مرة أخرى : « يا عسقلاني « ، وهو أمام الحجرة مباشرة ، فلم يجد ردًّا ، أسند يده على الباب فوجده مفتوحًا ، حب الاستطلاع والتطفل جعله يدخل الحجرة الخالية من عسقلاني وأولاده الخمسة ، أخرج منديلًا ورقيًّا من جيبه وكتم به أنفاسه المشتمة لرائحة عطن ممزوج برائحة بول وبراز أطفال عسقلاني الصغار الذين لا يمسكون أنفسهم حتمًا وهم نائمون ليلًا ، فيفعلونها لتلتصق بعدها بالمرتبة المهترئة الوحيدة التي ينامون عليها جميعًا ، فهي من أصدرت تلك الرائحة التي اعتاد عليها الزوجان عسقلاني وناصرة ، ولا يستطع منصور اشتمامها ، هزّكتفيه يسأل نفسه : هل أخذ عسقلاني أولاده وعاد بهم إلى بلدته ، وهذا هو المحال بعينه ، أم أنه في المستشفى بجوارزوجته ، وترك الأولاد بمفردهم يبيتون ليلتهم ، فهجر الأولاد الحجرة منذ قليل ، عندما نهضوا من نومهم هائمين الآن في الشوارع فزعين ، يبحثون عن والدهم ووالدتهم ، واللذين تركوهما دون أن يفهموهما بأن أخًا لهم سيزاحمهم مكانهم ويضيق عليهم الحجرة التي تشتكي وتئن من تصرفاتهم وروائحهم الكريهة التي لا يطيقها؟

تفحص أركان الحجرة وقال في نفسه :

- سبحان الله ؛ حجرة مثل هذه يعيش فيها ثمانية أفراد ، وأنا وزوجتي نعيش في فيلا طويلة وعريضة !! فعلًا يدّي الحلق للي بلا ودان !! فيها إيه يعني لو الأولاد دول أولادي مش أولاد عسقلاني ، والله كنت عيشتهم أحلى عيشة ، المهم لا بد من ذهابي لألحق بميعاد عملي، وعند عودتي سيكون هناك كلام آخر مع عسقلاني ، فلن أطيق صبرًا بعد الآن رؤية أولاده يمرحون حوله ذهابًا وجيئة داخل فناء الفيلا ، فعليه الاختيار بين إيجاد سكن لهم يستقل بهم فيه ، أو الرحيل إلى حيث يشاء.

خرج من الحجرة ليلقي بالمنديل أرضًا ، وأخذ نفسًا عميقًا ، فتح باب المدخل منطلقًا بعدها بسيارته ، ناسيًا النزول مرةً أخرى لإغلاق الباب ، استراحت نفسه عند لمحه أطفال عسقلاني تسحبهم امرأة خلفها كأنثي الماعز في طريقها لإطعامهم ، تفحصها جيدًا ، وحاول تذكر من هي ، وبعد برهة تذكرها ، وقال لنفسه بصوت عالٍ :

- أسماء زوجة عبده البواب بلديات عسقلاني ، يبقي كده وضحت الرؤية أولاد عسقلاني باتوا ليلتهم في أحضان عبده البواب وزوجته ، الله يهنّي سعيد بسعيدة .

أفاقت جيهان من نومها متأخرة عند الظهيرة ، دخلت الحمام ، أخذت دشًّا ، مشطت شعرها ، وخرجت منه مرتدية روبًا يستر جسدها ، جلست مكان زوجها ، وقرأت رسالته لها ، بعدها تفحصت جريدته ، وضحكت بملء فيها وهي تقول :

- ولو أنا الأشهر منك يا منصور مهما فعلت ، وأوعدك أنك لن تستطيع اكتساب شهرة مثل شهرتي ، مع أنك رئيس تحرير أكبر صحيفة في الوطن العربي كله .

قامت وتراقصت إثر قولها هذا الكلام ، وغنت أول مقطع من أغنية « أنا قلبي دليلي « لليلى مراد ، عادت لمجلسها مرة أخرى لتكملة عادتها الصباحية المفضل، المتأخرة حتى ظهيرة هذا اليوم ، بتصفح كل ما أمامها من جرائد ، آملةً في إيجاد

خبريكون محتواه : « أبشروا يا شعب المحروسة ؛ جميع مشاكلكم المستعصية للحل - ستحل فورًا بدون أي مجهود يذكر من جانبكم ، فقط أغمضوا أعينكم لمدة دقيقة واحدة ، وافتحوها لتجدوا أنفسكم داخل المدينة « اليوتيوبية « الفاضلة ، تعرف أنها لن تجد هذا الخبر الذي يكتبه عقلها يوميًّا ، متمنيةً في أن تراه مكتوبًا أمام عينيها ، واللتين بهما لا تترك خبرًا يمرّ مرور الكرام دون معرفة محتواه .

وبينما هي كذلك تبحث وتنقّب عن أخبار شاذّة عن قاعدة الروتينيات ؛ التي تجعل أغلب الصحف تكتب في سياق المألوف والمتبع ، من أخبار مكررة في مضمونها فقط ، هو العنوان يُعاد صياغته حتى لا يشك القارئ في أن أغلب الصحف تسرق الأخبار من بعضها البعض خصوصًا الأخبار الطازجة الحادثة للتوّ ، وتنسبها لنفسها تحت مسمى انفراد وسبق صحفي .

كانت جيهان على وشك الانتهاء من الجرائد جميعها ، عندما استوقفها خبرٌ اقشعرّ له بدنها ، وهي تقرأ مطلعة ، خبرٌ أحست إثر قراءتها له بشعور غريب هاجمها ، وجعلها تفرّ هاربةً حتى باب الحمام لتفرغ كل ما في معدتها من سوائل كانت تفضل استفراغها ليس من فمها بل من فتحة الإخراج الطبيعية لهذه السوائل ، عندما يلفظها الجسم سمومًا لا فائدة من وجودها ، ألقت بوجهها تحت صنبور المياه ، تحاول جاهدة طرد ما ألمّ بها ، وعادت مرة أخرى لمكانها ولديها إصرار غريب بقراءة الخبر مرة أخرى ، قرأت الخبر مرة أخرى « الآنسة حنفي» في الصين .. رجل صيني يكتشف أنه امرأة بعد ١٠ سنوات زواج ، لكن عزيمتها وإصرارها الغريب لقراءة الخبر لآخره فتر بمجرد إحساسها بالاستنطاق مرة أخرى ، ألقت بصفحات الجريدة المكتوب فيها الخبر أمامها ، ونظرت له مطولًا ، هي ساهمة شاردة ، أمور كثيرة داهمت تفكيرها .

لم يخرجها من حالتها هذه سوى مواء القط الذي لمحته يلعق ما خرج من فيها ، لم تكن حالتها لتسمح بنهره وإبعاده عما يفعله ، جلست القرفصاء أرضًا ، واضعةً رأسها بين ساقيها تبكي بكاءً يحتويه الأنين والنشيج ، يتردد صداه من حولها ، لم يمرّ وقت طويل على مكوثها هكذا ، فقد أبدلت ملابسها وتهيأت للخروج ؛ لعلها تستطيع طرد أثرهذا الخبر الذي قلب كيانها لهذه الدرجة لمجرد قراءتها له .

وكما فعل منصور مرت على حجرة عسقلاني ، لكنها لم تجدها خالية كما ظنت ، وجدت الأطفال الخمسة برفقتهم أسماء ، تجلس أمام موقد الكيروسين تعدّ لهم بعض الطعام ، سألتها عمن تكون ؟ فأجابتها أسماء بكل بساطة عن كل أسئلتها دون لفّ أو دوران ، ولم يكن من الصعب على جيهان مناولتها بعض الأموال ، تعطيهم لها وهي تأمرها بأن تأتي للأطفال بما يريدون من طعام وحلوى ولعب وخلافه .

ونبهت عليها ألا تفكرمجرد التفكيرفي الاقتراب من مسكنها ، دائرتها تدور في فلك الحجرة الجالسة فيها فقط ، وغيرمسموح لها بتخطي حاجزها إلى باقي السكن ، وذلك لخبرتها بفئة الشغالات عندما تقع عيونهم على أشياء ثمينة يحلمون بامتلاكها فلا يترددن في سرقتها ، هذا غيرتقديمها لحلقة من قبل عن فئة الشغالات ناقشت خلالها الأسباب والدوافع وراء إقدامهن على ارتكاب الجرائم في حق من يعملون لديهم ، وما أكثرها السرقة وذلك تحت بند المال السايب يعلم السرقة ، وكذلك الفقروالحرمان والعوز والحاجة ، لذلك فهي حريصة كل الحرص على عدم دخول أي شغالة إلى مسكنها الخاص ؛ اللهم إلا ناصرة التي وثقت فيها بعد عدة اختبارات واقعية أجرتها لها من ترك أشياء ثمينة وأموال أمامها وهي تقوم بمهمة التنظيف ، لتأخذ بعدها ناصرة شهادة الثقة بكل اقتدار.

مرقت جيهان بسيارتها لخارج الحي الذي كان في الماضي القريب يتبارى مع الأحياء الراقية الأخرى التي اندثرت مبانيها هي الأخرى إلى غير رجعة ، من روعة وتصميم مبانيها من فيلل وقصور فخمة ليتحول خلال سنوات معدودات إلى النقيض تمامًا ، مع هجرة معظم سكانه الأصليين إلى أماكن أخرى أكثر هدوءًا بعدما وجدوا الضجيج والتلوث يشاركهم معيشتهم ، وإن كان أغلبهم قد فضل الرحيل مهاجرًا إلى أوروبا وكندا وأستراليا وأمريكا ، وإن كان أغلبهم يعلم أيضًا أن ما كان يعيش بداخله من فيلل أو قصور لو بقي إلى وقتنا هذا لكان تراثًا معماريًّا لا يقدّر بمال ، إن بقي قائمًا كما هو ، شامخًا بروعته وجمال تصميمه ، لكن حبهم لذاتهم وخوفهم على أولادهم والمحافظة على صحتهم ، غلبت على حبهم للأماكن التي ولدوا وتربوا ونشؤوا بداخلها ، بيعت معظم الفيلل والقصور كما هو الحال أيضًا في كل الأحياء الراقية الأخرى لتجار ومقاولي هدم كل ما هو جميل ، لتتحول مناطق بأكملها من طراز معماري وثروة عقارية فنية أثرية لا تقدر بمال إلى أبراج سكنية تحتوي علب سردينية خانقة ، شيدها أناس لا يهمهم سوى جني المال واللهث وراء الثراء السريع .

خرجت جيهان لعالم الضوضاء والضجيج والتلوث وهي تحاول بقدر المستطاع إخفاء معالم وجهها بنظارتها السوداء ؛ كي لا يزعجها المتطفلون والمعجبون والمنافقون والأفاقون والكذابون والسبابون واللعانون .... إلخ ، لكن محاولات التخفي فشلت ، فقد عرفها القليلون وسط الزحام خلال توقفها في إشارة المرور المغلقة ، وهي على أحرّ من الجمر ، ترجو الوقت المرور ، وتغير لون الإشارة للأخضر ، لون عبورها المفضل ، من مأزق تجد نفسها فيه يوميًّا .

وجدت المتجمهرين حولها وقد نزلوا من سياراتهم ومن على الرصيف ، قد أتوا ليعرفوا ماذا يحدث ؟ دخلوا في نقاش طويل حولها وهي صامتة ومصرّة على

عدم فتح زجاج سيارتها لأي منهم ، ولو كان أقربهم منها من يمسكون بورقة وقلم يريدون توقيعها لهم على أوتوجرافاتهم ، أو رغبةً في أن تجمعهم معها صورة تظل على تليفوناتهم يتباهون بها أينما حلوا ، ساعدها ضابط المرور المتفهم للموقف ، بقدر الإمكان أفسح لها الطريق.

وصلت للمستشفى الراقدة في أحد حجراتها ناصرة ، وهي تلعن نفسها مائة مرة عندما قررت أخذ هذه الخطوة غير المتوقعة عواقبها ، فما وجدته في إشارة المرور حدث أكثر منه في المستشفى ، التفّت الممرضات حولها فالعاملون ، لدرجة أن الأطباء تركوا ما في أيديهم من كشف على المرضى الذين ترجّلوا بصعوبة خلفهم ، ومن خلال أصوات متداخلة تزداد نبرتها نحوها تناديها باسمها ، تتبعها بالإطراء تارة وبالحلفانات تارة ، رجاء البتّ في مشكلة أحدهم ، وبالتودد تارة كي تتذكر أحدهم لعلها تستضيفه في حلقة برنامجها القادمة .

لمحها عسقلاني وهي تحاول جاهدة الهروب ممن يحيطون بها ، فاندفع نحوها ومن خلال قوته الجسمانية استطاع صنع حائط بشريّ بينهم وبينها ، وناداها - بما تبقى من قوة صوته التائه منذ الأمس وسط التعب والإرهاق اللذين لازماه - بالعودة من حيث أتت ، وتترك المستشفى ، لكنها صممت على المضي قدمًا إلى سرير ناصرة للاطمئنان عليها وعلى مولودها الجديد .

وصلت لحجرتها وهي تتلو الشهادتين ، نقل عسقلاني حائط الصد الذي بناه حولها ، ووضعه أمام باب الحجرة وظل واقفًا ، حائلًا بينهم وبين دخولهم إليها ، كالديدبان لا يدخل أحدًا ولا يخرج أحدًا ، إلى أن انتهت زيارتها لزوجته على خير، ولم يتركها إلا بعد أن أوصلها لسيارتها بنفس حائط الصد الذي قاوم كل تصدعاته التي كانت تلح عليه ، الاندكاك والانهزام ؛ رغبةً في الاستراحة قليلًا ؛ نظرًا للمعاناة التي يفرضها عليه التعب الذي لا يزال يشمله .

وفي ظل هذا الجو المشحون والخانق بسبب تصرفات البسطاء من حولها ، لم تجد غير تليفونها لتحول من خلاله شحنة الغضب ، المتمنية عدم الانفلات منها إلى حالتها الطبيعية المتسمة بالبشاشة والسرور والسعادة المرسومة على صفحتي خديها باستمرار.

لم تجد غير زوجها لتخبره بما حدث لها ، فاتصلت به ، وكانت الساعة وقتها تشير نحو الثانية ظهرًا ، وهي لا تعلم أن منصور في اجتماع مغلق مع العاملين في المؤسسة الصحفية التي يرأسها ، يوضح لهم كيف أن أحوال المؤسسة لا تسرّه ، ونبههم أن بعض الصحف الصادرة حديثًا بدأت تجتذب جزءًا كبيرًا من القراء ، ولذلك فلزامًا عليه وعليهم التطوير من عملهم ، وأن يعملوا جاهدين على تقديم الأفضل لقراءهم .

وفي ذروة الاجتماع تلقى اتصالها ، فأمر على الفور بإشارة من يده انتهاء الاجتماع ، وانتظر حتى أصبح بمفرده في الحجرة ، وبدأ التحدث معها ، أعلمها أولًا على سبيل الفكاهة أن صفحة خالية بالجريدة تنتظرها بفارغ الصبر لتكتب فيها ما تشاء ، فردت عليه بكل ثقة - وحالة الغضب تنزاح رويدًا رويدًا - أنها تفضل في الوقت الحالي التركيز في عملها ، الآخذ كل اهتمامها، علق منصور على ما قالته :

- أو لست أولى بالاهتمام والرعاية !!

فسمع ردها الفوري ، وقد استعادت طبيعتها من خلال الابتسامة الرقيقة التي لا تفارق شفتيها :

- أنتِ حبيبي وحياتي كلها ، ولك مكانة خاصة في قلبي ، وهي أعلى وأجلّ المراتب ، والتي هي أهم من أهم اهتماماتي .

انفرجت أسارير منصور ، وفي نهاية المكالمة أخبرها أنه سيضطر للعودة متأخرًا الليلة ؛ لحجزه - كما وعدها - عند أهم الدكاترة في مجال العقم والذكورة ، وبنبرة متغيرة من السرور إلى الحزن أمرها بالدعاء له بالتوفيق هذه المرة .

بولاق الدكرور[1]

منطقة زنين

داخل قهوة « روقان البال» المكتظة طول الوقت بروّادها ، وقف علاء الحسيني على بابها يبحث عمن يعرفه من أصدقائه ؛ ليقضي معه وقتًا جاء ليضيعه معه ، ماسكًا بيده جورنال ، إنه شاب في منتصف العشرينيات ، وسيم يتسم

---

١ بولاق الدكرور هو واحد من أشهر أحياء مصر الشعبية ، ويقع بمحافظة الجيزة ضمن ما يعرف بمحافظة القاهرة الكبرى ، ليجعله ملتقى القادمين من جميع الاتجاهات من وإلى أرقى وأغنى أحياء القاهرة وأكثرها فقرًا في نفس الوقت ، فهذا الحى المصري المليوني الشعبي للنخاع يقع غرب الدقي والمهندسين وشمال شارع الملك فيصل وحي الهرم وجنوب إمبابة . وتاريخيًّا كانت بولاق الدكرور قرية قديمة وردت في قوانين الدواوين وتحفة الإرشاد باسم بولاق . وأصل كلمة «بولاق « هو « بِلاق « بكسر الباء ، وهي كلمة مصرية قديمة معناها المرساة أو الموردة، وقد أطلق هذا الاسم على « بولاق « لأنها كانت الموردة قبل إنشاء الجيزة ثم حرِّف اسمها إلى بولاق .

وهو الأمر الذي تكرر بعد ذلك في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، عندما أنشأ مدينة جديدة على النيل تجاه القاهرة في عام ٧١٣هـ/ ١٣١٣ م ، وأطلق عليها اسم بولاق أيضًا ؛ لأنها صارت مرساة ترسو فيها السفن القادمة والمبحرة إلى القاهرة .

غير أن تسميتها ببولاق الدكرور يرجع إلى عهد الخليفة المعزّ لدين الله الفاطمي ٣٦٥-٩٧٥/٣٨٦-٩٩٦ عندما نزل ببولاق الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله الدكروري، كان الناس يعتقدون فيه الخير والصلاح ، فاشتهرت القرية باسم بولاق الدكروري .

وكانت مساكن بولاق الدكرور واقعة على شاطئ النيل الغربي في شمال سكن قرية الدقي ، وقت أن كان النيل يجري تحت سكن القريتين المذكورتين، وعليه ساقيتان لري أراضيهما الزراعية . عرفت الأولى بساقية بيان والثانية بساقية خواجا . هذا وكانت بولاق الدكرور إحدى قرى محافظة الجيزة ، ثم دخلت منذ عام ١٩٦٧ في زمام مدينة الجيزة ، وأصبحت مقرًّا لأحد أقسامها الإدارية ، ويتبعها بعض الشياخات . (ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة) .

بالهدوء في كلامه ، غير انفعالي ، مبتسم طول الوقت ، الابتسامة على وجهه أينما حلّ ، تجد الراحة النفسية فيمن حوله لوجوده معهم ، تقدم داخل القهوة بخطوات واثقة يبحث عن أيّ من أصدقائه ، تلفّت حواليه فوجد مصطفى زميل الدراسة في الصغر وجيران منطقة واحدة ، كل منهما انفصل عن الآخر وشقّ طريق حياته الذي فرضته الظروف عليهما ، مصطفى فرض عليه موت والده في الصغر ترك دراسته والعمل «صبي ميكانيكي» ، رفض خروج والدته أو أيّ من أخواته البنات الأربعة للعمل ، وقف أمام باب الشقة وهو ما يزال في الثانية عشرة من عمره يعلن لهم أنه منذ تلك اللحظة رجل البيت ، وهو المسئول عنهم المسئولية الكاملة بعد رحيل والده ، لم يضيع الوقت في التفكير في أي المهن يمتهنها ، وكيف سيأتي بالمال الذي يسد به أفواه أسرة مكونة من ستة أفراد ، أول ورشة صادفته في طريقه دخلها ، وقال لصاحبها عبدالرؤوف :

- « شغّلني عندك يا أسطى « .

نظر له عبدالرؤوف ، وتذكر والده الذي لم يمرّ على موته الأسبوع :

- الورشة ورشتك يا ابني ؛ الله يرحم والدك .

وخلال وقت قياسي كان « البرنس « لقب أطلقه عليه عبدالرؤوف لما وجده منه من ذكاء وسرعة التعلم وتشرب المهنة بطريقة جعلت الزبائن تأتي لا تريد غير البرنس لتصليح العطل الملم بسياراتهم ، لكنه رغم ما أحاطه بصفات جعلته مشهورًا بين أصحاب الورش الأخرى المتمنين عمله لديهم ، كان هناك جانب آخر خفي لم يعلم به أحد إلا متأخرًا ، وتحديدًا عندما استقلّ بعمله وفتح ورشة لحسابه ، إنها السرقة ، الوسيلة الوحيدة التي أمّنت أسرته ، وكفتها شرّ مدّ يد الحاجة والعوز .

٩٩شبّ عليه ، وديل الكلب لا ينعدل ولو علق فيه قالب .

أما علاء فقد شق طريقه جهة التعليم بكامل إرادته ، بعدما فرض بادئ الأمر عليه فرضًا من جانب والده ؛ الذي لم يدخر جهدًا في صرف أية نقود في سبيل تعليمه ، كان حلم حياة والده أن يكون حاجة حلوة في هذه الدنيا ، وكلما كرر عليه جملة : نفسي يا ابني أشوفك حاجة حلوة في هذه الدنيا ، لدرجة في أيام كثيرة ضربه وعلّقه من رجليه ؛ كي ينتبه لمدرسته ويذاكر دروسه ويبتعد عن مصطفى الذي كان متعلقًا به ، لدرجة أنه أسرّله في يوم من الأيام عندما رأى الأموال الكثيرة التي يكتسبها من مهنته أن ينضم له ويكون برفقته ليتشرب مهنته مثله ، وقتها انفعل عليه والده الذي أصابته ذبحه صدرية من الصدمة التي تلقاها ، نقل على إثرها إلى المستشفى ، وقضى هناك أيامًا عدة ، ولم تتحسن حالته إلا عندما عاهده علاء أن ينتبه لدراسته ، ويحقق حلم حياته بأن يكون حاجة حلوة ، لكن هيهات له ولوالده الذي جلس معه بعد خروجه من المستشفى ، وأقنعه بأن مصطفى اضطر لترك دراسته وامتهانه لمهنته إنما لسبب أن والده توفي وترك في رقبته أخواته البنات ، إنما أنت والدك أمامك يوفر لك كل ما تحتاجه من سبل المعيشة ، هذا غير أنك وحيد لم يشأ خالقي أن يكون لك أخٌ أو أخت ، فلماذا تضن عليّ بحلم حياتي الذي أتمني تحقيقه من خلالك .

تخرج وكغيره من مئات الآلاف من الشباب من هم في مثل سنه ، بل هو أفضلهم كما كان يظن ، ولم لا فهو خريج كلية من كليات القمة ؛ اقتصاد وعلوم سياسية ، ظانًّا أن الحظ سيبتسم له ويحقق حلم والده بكل سهولة ، فشاب مثله أول دفعته انتظر جواب التكليف بتعيينه معيدًا بالقسم الذي كان فيه ، لكن هيهات ترك أحد أساتذته في حاله ، كيف يعين معيدًا وابنته الآتية في المرتبة الثانية بعد علاء تترك هكذا ، وكانت أول صدمة لعلاء التي تحطمت أولى أحلام

والده على صخرة التوريث ، حمل راية العصيان والرفض وقال لا في وجه عميد الكلية ، سأشتكي وأعتصم حتى يعود لي حقي ، لكن لم تفلح محاولات الشكاوى أو الاعتصامات التي قام بها هو وزملاء كثيرون من أقسام أخرى في عدد من الكليات المختلفة على مستوى الجمهورية أمام مقر مجلس الوزراء أو أمام مبنى وزارة التعليم العالي ، النية مبيتة منذ زمن على أن تكون مهنة التدريس داخل الجامعات على أعضاء التدريس فقط يورثونها لأولادهم من بعدهم ، ولا مجال لاعتصاماتنا ، إنها مجرد تحصيل حاصل ، فأنا هنا منذ زمن يقارب العام تقريبًا ، لدرجة أني لم أعد أفكر في استرداد حقي ، المتأكد أنه ذهب لمن لا يستحقه ، ولن أستطيع استرداده حتى لو ظللت جالسًا مكاني ، واعتصمت ما بقي من عمري هنا ، أنا هنا لأني لم أستطع العودة لوالدي ، ماذا أقول له بعدما صرف دمه عليّ ؟ هل أقول له إن فلوسك التي حرمت نفسك من شراء مجرد موسى حلاقة لحلاقة ذقنك ؛ المطلق لنموها العنان تحت ذريعة أنها سنة عن الرسول (ص) ؛ كي توفر لي مصاريف دراستي طوال ستة عشرة عامًا « ، قال له ذلك رفيقٌ له في أيام اعتصامه تعرف عليه علاء ، وعرف منه أنه آتٍ من أسوان للبحث عن حق مسلوب منه هو الآخر.

وهكذا تحطمت أولى أحلام علاء على صخرة من اليأس ، ولم يفلح في الوصول إلى ما حلم به بأن يكون معيدًا، وكانت الصدمة الثانية والقاضية على جميع أحلامه المشروعة عندما استسلم للأمر الواقع برفع راية الاستسلام ، وخروجه من الاعتصام خالي الوفاض آملًا نيل وظيفة أعلنت عنها جهة سيادية ، ظانًّا مرةً أخرى أن مجموعه سينصفه ، ويجعله ينال الوظيفة بجدارة ، لم يكن يظن أنها ستتحطم بل ستتفت بكل تلك الأنانية المتصفون بها من جلس أمامهم في لجنة الاختبار الشفوي للالتحاق بوظيفة ملحقين بالسلك الدبلوماسي والقنصلي ، اجتيازه للامتحان التحريري وامتحان القدرات بتفوق لم يشفع له سؤال

أحدهم عن مهنة والده ، فأجاب بكل ثقة إنها المهنة الموجودة أمام سيادتكم في سيرتي الذاتية ، إن والدي يعمل موظفًا تحت مسمى عامل بوفيه بمجمع التحرير بإحدى الهيئات الحكومية والتي لها فرع بالمجمع .

لم يعجب رده أحد أعضاء اللجنة الذي انفعل عليه بكل عصبية : يا أخي كفاية عنطزة وقرف، ما تقول إن أبوك عامل بوفيه وخلاص بدون مطّ وتطويل . رد عليه آخر هو عاوز يعرّفنا إنو بيلحنها ، فاكر إننا بنمتحنه ليكون مطربًا . وقال ثالث : عارفين لو قال إن أبوه بتاع شاي وقهوة وحاجة ساقعة من غير لفّ ودوران كان ريحنا وكنا في نفس الوقت قبلناه .

انفعل علاء عليهم ، وهو المطلوب إثباته كما ينوون ، فقد كان فخًّا منهم لجرّه لذلك الشجار الذي نشب بينه وبينهم ، فالنية مبيتة لأن ينال الوظيفة ابن لأحد المسئولين ، وبسببهم أيضًا ذاق علاء مرارة السجن ، ألقي فيه ظلمًا لمدة شهر ، بتهمة التعدي على موظف في جهة سيادية أثناء تأدية عمله ، ولولا سماعه لأدعية والديه المتكررة بتوسل كل يوم فجرًا بأن يخرجه الله من هذه الأزمة ؛ التي جعلته يتوارى عن الأعين داخل حجرته لمدة شهرين بعد خروجه من السجن لا يكلم أحدًا ، فأرسل الله إليهم مصطفى المشتاق لرؤية صديقه الذي رغم ما تحتمه حالتاهما من تناقض وتضادّ لا يجعلهما يتلاقيان ؛ إلا أن علاء لم يكن لينسى أبدًا صديق طفولته ودراسته ، لا يمرّ يوم إلا ويكون مارًّا عليه في ورشته يطمئن على أحواله ، وكذلك ردّ مصطفى الجميل لصديقه ولبى نداء الوالد بأن يأتي معه لإخراج علاء من حالته النفسية السيئة التي لازمته .

خرج علاء من حجرته عند سماعه لصوت مصطفى ، ووقف بجواره يقول لوالده : «كانت ما لها الورشة يا بابا، شوف الفرق بيني وبين مصطفى ، الآن هو أحسن مني ، طبعًا برنس وكسيب ، وجوّز إخواته البنات ، أما ابنك اللي صممت

تعلمه ، لأ ويطلع الأول على دفعته ، وفي الآخر يبقى ردّ سجون ، هو دا حلمك يا عم حسيني!!».

ومرة أخرى لخوفه من امتهان ابنه مهنة أسطى الورشة لم يكن أمام الحسيني حلٌّ آخر سوى التوسط لدى مديرته في العمل كي يشغّله معه ، وجدها فرصة مناسبة للتودد لها وتقديم أسمى آيات الولاء والطاعة ، بل والدعاء لها كلما دخل عليها بفنجان قهوتها المحوج بأن يرزقها الله الزوج الصالح ؛ الذي من خلاله تنجب أيضًا الذرية الصالحة ، رغم علمه بسنها الطاعن والمقارب لسنه ، كان يدعو أمامها علنًا ما دامت هي بنفسها تؤمِّن وراءه وتقول : يا رب يسمع منك يا حسيني يا رب .

وكانت الفرصة التي اغتنمها من خلال مسابقة طُرحت لسدّ وظائف شاغرة بمكان عمله ، وبعد عناء ومعاناة جعلها ترضخ لطلبه بتعيين علاء في وظيفة بالدرجة الثالثة بالمجموعات النوعية المخصصة لحملة المؤهلات العليا لحين ما تفرج ، هكذا أعلم علاء، فرضي علاء بالوظيفة حتى لا يغضبه ، وعلى مضض رافقه علاء كل صباح إلى المجمع يرفع يده ، يذكّره وهو سائر بجواره بدعائه الذي لا يتغير حتى يومه هذا :

- نفسي أشوفك حاجة حلوة يا علاء .

ويكمل :

- شفت يا بابا أنا بقيت حاجة حلوة ازاي ، صرفت عليّ دم قلبك عشان تقعدني جارك في المصلحة أشوفك بتتهان من اللي يسوى واللي ما يسواش ، وكله كوم والمديرة كوم تاني ، يوميًّا تبعث في طلبي ، وتجلسني بجوارها بالساعة ، وتحكي لي وحدتها الموحشة ، متعللة بأنها رفضت الزواج من عِرسان كثيرين تقدموا لطلب يدها ، لكنها رفضت لأنها لم تكن تفكر في هذا

الموضوع من قبل ، والآن فقط عندما أتيت للمصلحة بدأت تلحّ عليها هذه الفكرة بكل قوة ، تقول لي : إيه رأيك يا علاء . الكركوبة عاوزة تتجوزني يا بابا ، شفت بقيت حاجة حلوة ازاي !! ثم كانت ما لها الورشة ، كنت زماني فتحت ورشة زي مصطفى ، وبقيت كسّيب أد الدنيا جاتني ستين نيلة .

وهكذا تمضي أيامه دون تقدم ، متوقف مكانه محلك سر لم يفكر يومًا في التقرب من فتاة كي لا تتعلق بالأحبال الدايبة معه ، بدايتها بحبك وخلافه من خطوبة وشبكة ومهروشقة مشروطة بأن تكون في المكان الفلاني ، وينتهي الأمر بالزواج ليكون كوالده طبق الأصل منه .

نادى علاء بصوته الهادئ :

- مصطفى .

نظر إليه مصطفى الجالس بمفرده يتابع التلفاز باهتمام ، وهو ماسك بـبايب الشيشة ، يطلق لدخانها العنان الخارج من فمه وفتحتي أنفه ، وقال له وهو يرحب به :

- مين صاحبي حبيبي علاء الذي لم يتخلّ عن صحوبيتي له وهو على وشك أن يكون أستاذ جامعة أد الدنيا أو سفير يشرفنا ويرفع راسنا في الخارج ، تعالَ يا ذوق .

وقام احترامًا لما بينهما من عشرة عُمر ، وسلم عليه مهيئًا له الكرسي المقابل ، وأجلسه .

- اقعد اقعد .

وسأله بعد مناداته على كنكة صبي القهوة :

- تشرب إيه يا صاحبي ؟

- أي حاجة ، والأفضل يكون شاي .

- مش عوايدك يعني تقعد على القهاوي .

- والله زهقت يا صاحبي ، واتخنقت من قاعدة البيت بجوار السيد الوالد الذي يلازمني الآن في كل خطواتي ، في الشغل وفي البيت كمان ، دا غير الست الوالدة ودعواتها التي مللت منها ؛ لأنها لم تؤتِ بثمارها .

ضحك مصطفى وقال :

- هما لسه بيدعولك !! يا بختك يا عم ، مش زي واحد مات « يقصد والده»، واللي فاضلة بتدعي عليّ ليل ونهار، جاتنا ستين نيلة في حظنا الهباب.

- الحال من بعضه يا صاحبي بص لشكلك وبص لشكلي ، السحنة واحدة ، استغفر الله العظيم ما تتخيرش ، تنمو براحتها وعلى مهل ، ولا تجد من يرعاها بتهذيبها وجزّها من جذورها «قاصدًا شعر ذقنه» .

- شكلنا كده والله أعلم هننضمّ لأولياء الله الصالحين قريبًا ونبقى من الأولياء وأصحاب الكرامات ، مدد يا سيدنا الحسين ، ينقصنا بس سبحتين كهرمان .

سادت لحظات من الصمت ، مصطفى يدخن وعلاء يهوّي بالجورنال الدخان الهالل عليه ، تكلم مصطفى وسأل علاء :

- عامل إيه يا صاحبي في دنيتك ؟

- زفت – زفت – زفت .

- يا ساتر؛ تلاتة زفت ومفيش ولا واحدة منهم معاها أطران .

- زفت وأطران يا سيدي ، عاجبك كده .

- بس بس دا انت حالتك صاعبة قوي ، وكنت فاكر أنا لوحدي اللي حالتي

وصلت لهذه الدرجة .

- وانت إيه اللي وصَّلك زيي للدرجادي . .

- مفيش شغل يا صاحبي ، والزبائن بتقول يا ابو الفكيك ، اللي بييجي يكمل عندي شغل مرة مبيهوبهاش مرة تانية وهلمّ جرّا ، والزباين بيقولوا لبعض ، وبقيت أشهر من النار على العلم ، اكتُشِفت حيلي وألاعيبي الوسخة يا صاحبي ، وكل اللي أكلته وزّ وزّ طلع على عيني بطّ بطّ ، مش بقولك حظي نحس ، قال عشان ابتديت أفكر اتأهل الحظّ يديني ضهره ، والله البنات إخواتي الأربعة دول حظهم بمب ، على يدك البنت من دول ييجي عدالها لحد عندها تلاقي يا أخي وسبحان الله رزقها بالكوم ، العربية من دول صاحبها يجيبها لحد عندي وفيها شيء وشويات كنت أطلع يوميًّا بمصلحة تعدي الباكو والباكوين ، أما دلوقتي فالعملية ميح ميييييييح ، وزي ما انت شايف رسيت أخيرًا على القهوة أنتظر الفرج ، عايز أتجوز يا عالم .

رأى فتاة جميلة مارّة من أمام القهوة تتغندر في مشيتها ، فزاغ بصره عليها وقال : « ابعت ياللي بتبعت .

- يا ريتني زيّك ، فأنا بقى عكسك تمامًا .

- إزاي مش فاهم يا صاحبي لا مؤاخذة ؟ إنت عارف فهمي على أدّي .

- هو أنا مقولتلكش !!

- أول مرة يا صاحبي أعرف إنك مخبي سرّ من أسرارك عني ؟!

- ولا سرّ ولا حاجة يا برنس ، الحكاية وما فيها يا صاحبي إن السيدة الآنسة المحترمة المديرة مديرتي في الشغل ...

- ما لها الولية دي .

- يعني حاطة عينها عليّ وبتعاكسني في الرايحة والجاية .

- مقولتليش على السرّدا قبل كده يا صاحبي هو لسه طازة .
- لا قديم حبتين ثلاث أربع شهور ، يعني تقول كده من ساعت ما الحسيني اتوسط لي في وظيفتي ، ما أنت عارف الباقي .
- إنت قلت المديرة يا زمل صح ؟
- صح .
- يا راجل ودا اسمه كلام ، ثلاث أربع شهور وسايبها كده بتتعذب اتكل على الله واتجوزها .
- أتجوز إيه يا مصطفى !! أنا بتكلم جدّ ، أنا اتمنى العمى ولا اتمنى رؤيتها تقوم تقولي اتجوزها .
- طب بقولك إيه : البنت أختي سامية متخانقة مع جوزها خناقة كبيرة قوي ، م الآخر كده ضربته علقة موت ، شقت له فيها دماغه نصين وكسرت له دراع ولوتله رجل ، ولو شفت وشه يا عيني ما تعرفوش ، والواد باعت ولاد الحلال يتوسطوا في موضوع طلاقها بالتراضي ، إيه رأيك لو وافقت على طلاقها منه واجوزهالك .
- يوه يا مصطفى أنا مبهزرش يا أخي .
- ولا أنا والله يا صاحبي ، وديني تبقي عملت فيا معروف عمري ما هنسهولك ، وبشرط اكتبلك عليها قبل شهور العدة ما تخلص ، والتخين يبقي ييجي يحاسبني .
- وهتروح فين من حساب الذي لا يغفل ولا ينام .
- الذي لا يغفل ولا ينام كان بص لحالنا .
- أستغفر الله العظيم .
- أستغفر الله العظيم ، م الآخر يا صاحبي : أنا السرقة في دمي ومش عارف

أبطلها ، ومن ساعة الزباين ما ابتدوا يهربوا وما رجعوش وأنا جالي أكلان ، أنا عايز أسرق يا جدع قل لي أعمل إيه ؟!

- يخرب بيتك صوتك ، متعليش صوتك مش كفاية إني عارف ببلوتك دي وساكت عليك !!

- طب قل لي أعمل إيه ، قل لي وإيدي على كتفك ، شغل وما فيش بقيت ع الحديدة يا جدع وأمي مش رحماني فضحتني في الحتة ، كل شوية عايزة فلوس عايزة فلوس ، دا غير عمك عبدالرؤوف ما أنت عارفه معلمي اللي شربني المهنة ورباني على إيده بعد ما ابويا مات ، رحت أطلب إيد بنته شربات رفض ، وقال لي في وشي : إمشي يا حرامي ؛ لما تبقي عدل أبقى أفكر ، وقال إيه ديل الكلب لم ينعدل لو علقت فيه قالب .

« قهقه وهو ينفث دخان شيشته وردّ على نفسه : « والله الراجل عنده حق .

- إعقل واستغفر ربك ، وبكرة هتتعدل وتبقى الدنيا تمام .

وكأن مصطفى لا يريد سماعه راح يكمل كلامه :

- متشيلش هم اللي هسرقهم من البهوات اللي كانوا زبايني في السابق وقت ما كان لي زباين ، شوف بقى هي فكرة وضربت في دماغي ، آه هما الزباين بعدوا بعربياتهم لكن ما بعدوش ببيوتهم المليانة بشيء وشويات .

- يخرب بيتك ، ناوي تبقي حرامي منازل .

- وما له يا أخي ؛ مش أحسن ما أبقى عاطل ، طب هات الجورنال اللي معاك كده.

خطفه من يده ، وظل يقلب في صفحاته إلى أن أتى على الصفحة الموجود فيها تحقيق بنات الليل ، وقال لعلاء :

- أنا لسه متصفح واحد شبهه من شوية ، بص بقى ؛ والله أنا فكرت أشتري

فستانين ثلاثة وألبس زي البنات دول وأقف في جامعة الدول ، واصطاد العيال المايصين المايعين أقلبهم وأنفضهم من المال السايب اللي أبهاتهم جمعينه بالشفط والمص من دم الغلابة ، ولّا أقولك ألبس خمار واطلع على أي قناة فضائية مع أي مذيعة مشهورة زي الإعلامية جيهان ، وأدّعي إن جوز أمي اغتصبني أو أهلي رموني في الشارع أو أبويا باعني لأصحابه بعد جلسة قمار، وهكذا مما نسمعه ونراه يوميًّا من أهوال تشيب لها الولدان .

- وله ؛ أنا قايم ماشي .
- ماشي رايح على فين ؟
- رايح اقعد جار ابويا وأمي أحسن.
- طب يعني مش ناوي تيجي معايا .
- فين ؟
- أول شقة أسرقها .
- اعقل يا مصطفى .
- طب أقولك إيه رأيك في البت سامية أختي ، « وبأعلى صوته « : والله ما هسيبك إلا لما اجوزهالك ، أبوك وأمك خليهم ينفعوك يا صاحبي في الزمن الصعب ابن اللذينا .

ترك علاء القهوة خلفه ، وأخذ يتفحص الوجوه المارّة حوله ، يقول في قرارة نفسه ، لدي كلام كثير أودّ البوح به لأحد يفهمني ، لأحد يرأف لحال هؤلاء الذين لا يختلفون عني في شيء ما داموا يسكنون مثلي الأحياء الفقيرة ، في أثاثاتها المتهالكة ، ومبانيها الآيلة للسقوط في أية لحظة على ساكنيها ، وشوارعها الضيقة من الاكتظاظ والزحام ، وأزقتها المدفونة في عالم النسيان ، ينقصها قباب الجبانات لتصبح مدافن لمن يحيون بداخلها، أحياء كان يطلق عليها فيما

مضى مناطق شعبية ، وعندما يئس المسئولون في إيجاد حلول لانتشال ذلك العالم الموشك على الفناء أطلقوا عليه عشوائيات ، يعلنون للكافّة أنهم أخلوا مسئوليتهم إن حدثت كارثة وحصدت أرواح هؤلاء جميعًا : « إننا نتذركم بهجر مساكنكم إلى أي مكان آخر، إن مساكنكم آيلة للسقوط من أثر قِدَمها ، وطريقة بنائها العشوائي ، والمياه الجوفية الآكلة لأساساتها ، ومياه الصرف الطافحة من خزاناتها كالقنبلة الموقوتة ، في أي وقت تريده تندفع ، وبين يوم وليلة تكون المنطقة بأكملها ملاذًا آمنًا لجميع الحشرات الناقلة لجميع الأمراض المتوطنة والمعدية من باعوض وذباب وقمل وبراغيث ، وجراثيم قاتلة لا ترى بالعين المجردة ، ناهيك عن الحيوانات الضالّة من كلاب وقطط وسلعوة ، وحدّث ولا حرج عن الزواحف السامة من عقارب وحيات وثعابين ... إلخ .

المسئولون يهددون ويتوعدون مع أن الموضوع سهل ولا يحتاج لكل نذيرهم هذا ، إن حل مشكلات العشوائيات لسهل كسهولة الطعام الذي يلتهمه كل ذي متخذي قرار، والحدق لازم يفهم أنه مهما علا الفقير من ساكني ما أطلقوا عليه عشوائيات وأصبح غنيًّا وما زال يحيا بينهم لا يفكر في الانتقال لأي مكان آخر يخص الطبقة التي توليها الدولة الاهتمام والرعاية من خدمات ومرافق وطرق وحدائق ، وخلافه من الخدمات التي يحلم الفقراء بنيل ولو فتافيت منها ، حتى الدعم الموجه في الأساس لهؤلاء الفقراء استولى عليه الأغنياء أيضًا ، ولم يتركوا شيئًا لذلك الفقير الذي لن ينسى مرارة التمييز الذي تجسدت على أرض الواقع مطبات في طريق كفاحه ونضاله من أجل حلم الثراء الذي وصل إليه بكل جدّ واجتهاد ، وبعد ذلك النجاح لم يكن لينسى أنه ما زال ينتمي لتلك البقعة التي تربى وترعرع فيها ، فهو حتمًا فقير لم ولن يتغير، ولن يتميز عنهم في شيء ، حتى لو خرج إلى ذلك العالم الذي يحيط بعالمه من كل الجوانب ، فإنه حتمًا سيملّه سريعًا ، ويعود أدراجه إلى أهله وناسه الذين تربى ونشأ بينهم ، حتى ولو كانت

هذه العودة مشروطة بفقد كل ما كافح من أجل الوصول إليه .

إنه بذلك كمثال الذي هاجر إلى بلد أخرى « نفطي « على سبيل الافتراض ، يرتضي شروط الكفيل المجحفة ، وهو المضطر من أجل جمع المال كي يوفر حياة كريمة لأسرته ، يظل عامًا وراء الآخر ساكتًا على تجاوزات ذلك الكفيل ، وفي نفسه الحنين والشوق للعودة لبلده وأهله وناسه ، وعندما تحين لحظة الانفجار - التي لا ينبغي التأخر لحظة واحدة بعدها - يملي هو بشروطه على الكفيل بأن يدعه يرحل ، حتى لو كان المقابل كل الثروة التي من أجلها تأخر كثيرًا عن معانقته للحنين وأخذه بالأحضان .

إنه نفسه ذلك الفقير يخرج من عالمه صباحًا من أجل الرجوع آخر النهار بقوت أولاده ، يرى في رحلة رجوعه التمييز الواضح في المعاملة ودرجة الاهتمام التي تتميز بها منطقة دون أخرى ، من اختصاصها بالخدمات جميعها دون استثناء ، ومناطق أخرى كالتي أتواجد بها وتوجعني لدرجة الحزن الممزوج بالبكاء .

ضرب كفًّا بكفّ ، وقال وهو موشك على الابتعاد عن حيّه الشعبي : « اصحوا وفوقوا يا بشر يخرب بيوتكم» .

***

ظل علاء سائرًا على قدميه حتى كوبري الخشب ، تخطاه ليجد نفسه في شارع السودان أمام سيارة ميكروباص ، فاضطر للانحشار بداخلها ، وعندما سمحت له الظروف بالجلوس مكان راكب نزل في أقرب محطة جلس ينظر من خلف الزجاج على فاترينات المحلات بما تعرضه من شتى أنواع ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين ، يتنقل ببصره يمينًا ويسارًا ، لعله يتناسى أمر الزحام الحاطط برحاله

فجأة على نهر الطريق ، تكدّس لا معنى له للسيارات من جميع الاتجاهات ، كل يريد أخذ فرصته في التقدم بسيارته للاتجاه الذي يريده ، هذا غير التصميم والعناد الذي يصل في أغلب الأوقات للشجار بالأيدي ، وبعد معاناة بدأ الطريق ينفك رويدًا عنه الحصار، لكن علاء كان له رأي آخر عندما رأى صفحة النيل على مقربة منه ، فأمر السائق بالانتظار جانبًا لينزل : « على جنب يا أسطى « ، فما كان من كل العيون المتواجدة معه داخل السيارة تنظر له بكل حنق تود الانقضاض عليه وقذفه من فتحة الشباك بجواره إلى قلب النيل والخلاص منه ومن قرفه .

- ما احنا كنا واقفين يا أستاذ ، يا سبحان الله على دي بشر « تفوه السائق بعصبية»

وبعنف انقضت قدمه على الفرامل لتقف السيارة، وقد أصدرت صوت اصطكاك أفزع طفلًا صغيرًا تحمله والدته جالسة خلف علاء ، تهدهده وتحاول إلهاءه بالنوم حتى وصولها لمنزلها لإعطائه رضعته ، هذا غير الشتائم المنهالة على شخص السائق من سائقي السيارات المتوقفة خلفه في صفّ طويل .

***

نزل علاء ومشى على قدميه يبحث عن منفرج بين الجالسين على ضفتي النهر أعلى كوبري قصر النيل ، والذي لا يبعد كثيرًا عن مكان عمله ، تعمد النزول من السيارة والسير على قدميه لعل وعسى يجد متنفسًا يزيح عنه همومه ، لكن ما رأته عيناه وهو يبحث عن مبتغاه زاده ألمًا وعمّق من جراحه ، متحسرًا على عمره الذي يذهب سدى مع كل طلعة شمس ، فالمكان من حوله مليء بالأحبة والعشاق ، لا يوجد شخص بمفرده إلا هو يكاد يرى العيون من حوله تقول له :

- لماذا أنت هنا وحدك بدون الحبيب ؟ سنسمح لك فقط بالانتظار قليلًا إن كنت ستنتظر قدومه ، أما لو كنت آتيًا تتطفل علينا وتتمنى الظفر بأي حبيبة تجلس بيننا فعذرًا ؛ ليس لك مكان بيننا ، وإلا كان مصيرك القذف داخل المياه النيلية ، ارحل فورًا وإلا ...

فترك علاء المكان من فوره ، ملبيًا لطلبهم برحيله بعيدًا عنهم ، ومرّ من بين السيارات إلى الجانب المواجه الذي لم تطئه أقدام العشاق والأحبة بعد بسبب شعاع الشمس القائظ الحرارة الذي لم يرحل عنه ، وقف لفترة ينظر من بعيد عليهم ، وهو يتمنى مجيء اليوم الذي يأتي بحبيبته إلى هنا ، ويجلس بين هؤلاء يقدم لها الذرة المشوي ، وأكواب حمص الشام ؛ الذي يلهب المشاعر المشتاقة والحالمة بتكليل اللقاءات المتكررة ، والشاهد عليها النيل بالحياة الزوجية ، يتمناها ويحلم بها كل هؤلاء ، في الجو الشاعريّ الذي لا يستطيع الزحام تعكيره مهما فعل ، صفوهم إنهم مصممون على الظفر بكل لحظة ، يجلسونها هنا من خلالها كل يأخذ مراده ومبتغاه .

وبعد رؤيته لنفس العيون المهددة له بالرحيل ، تنظر له من بعيد ، وكأنها تقول له : نراك تتلصص علينا ، لذا فليس أمامك بالكثير من الوقت لترحل وإلا ، فمد علاء يده وأشار لسيارة أجرة مارقة من أمامه ، وبنفس درجة صوت اصطكاك عجلات السيارة التي كان يستقلها منذ قليل حدث بالمثل ، فتعجب لاستجابة السائق لإشارته ، وهو من كان يفعل ذلك كتجربة يحاول بها التحايل على العشاق والأحبة المستهلين وجودهم من حوله بكثافة ، لعل وعسى يستطيع تمضية بعض الوقت في عمق زحامهم ، ينظر بطرف عينه لهم متلصصًا ، يتمنى ويحلم بالوقوف مثلهم في يوم من الأيام مع حبيبته بينهم .

- على فين يا أستاذ ؟ « سأله السائق وهو يهم بالدخول إلى داخل السيارة».

انتبه علاء من أحلامه وقال للسائق :

- على البيت يا أسطى .

وبمجرد رده على السائق سمع من حوله أصداء ضحكات صدرت دون إرادتها ، من أفواه كانت منذ قليل تحاول تعنيفه هو والسائق المتوقف في نهر الطريق دون إرادتهم .

- انت فاكر نفسك راكب عربيتك ودا سواقك الخاص يا أستاذ « رد أحد الركاب على علاء « ، وغيرها من التعليقات .

ما إن استهل ذلك الراكب كلامه المتهكم هذا حتى انثالت كومة من القفشات والإفيهات تميز هؤلاء الغلابة عن غيرهم ، المتصفون بأنهم حتمًا ولا بد لهم ميزة التغلب على جميع مشاكلهم اليومية ، بالنأورة والاستهزاء ببعضهم بعضًا بطريقة فكاهية ، تجعلهم لا يفكرون في شيء سوى الترويح من خلالها عن أنفسهم .

لم يفكر علاء في مجاراتهم أو التعليق على ما يقولون أو ما يتفوهون به ، فقط التزم الصمت لأن عقله مشغول بعالم آخر هم يحلمون به مثله ، لكن ليس بالمكان المناسب بالنسبة لهم ، إنه سرير النوم عندما يتمددون عليه ، وقتها يحلمون أحلامًا وردية يتمنون تحققها ، لكنهم عندما ينهضون صباحًا يطردون هذه الأحلام فورًا ؛ لأنهم يعلمون جيدًا أنها لن تتحق ، فيطردونها بالتمطع لتفرّ هاربةً ، وإن ظنها أحدهم ستنال من عزيمته فركعتا الصبح كفيلتان بطردها ، أما من صمم منهم بجرها خلفه مرة وحملها على كتفيه مرة أخرى وقت الشدة يريد تحقيقها في اللحظة والتوّ ، وهي ما تحتاج لعشرات من السنين ، هذا إن صبر خلال السنوات العشر ، وبنسبة كبيرة لن يستطيع تحقيق جزء بسيط منها - فمصيره الحتمي خلف القضبان .

وصل علاء لباب شقته أدار المفتاح في الكالون ، وفتح الباب ليجد أبويه جالسين في المواجهة ، ألقى السلام عليهما، بعدها قال لهما اطمئنانا على حالهما :

- إزيك يا بابا إزيك يا ماما .

بعدها رد على كلام والده غير المسمن ولا المغني من جوع من وجهة نظره .

- يا علاء يا ابني إنت نازل من البيت ومعاك الجورنال ، ووعدتني ترجع بيه ، وأهو إنت راجع من غيره زي كل مرة ، قولي بقى أسلّي نفسي إزاي دلوقتي .
- معلش يا أبوعلاء أعوضها لك بكرة بجورنالين .

وللهروب من الزيادات الكلامية الخارجة من فم والده ، سأل والدته على عجل عما تفعله - وكانت واضعةً أمامها طبقًا من الأرز تنقيه من حبات الطين الجافة الهاربة بلا شك من آلة التنقية بل والهاربة من نية صاحب مضرب الأرز ، فرحة تظن أنها ستعود إلى أخواتها في الحقل تحتضن جذور الزروع والثمار تغذيهم عشقًا ، وبدورهم يلقحونها مني تكاثرهم ونموهم ، لكن لا مفرّ لها من التعبئة داخل أكياس الأرز من جانب المتعمد إضافتها وأطنان غيرها توزن على أنها أرز يشتريه المستهلكون الجاهلون بقيمتها ، إنها قيمة مالية كبيرة تضاف لأرصدة في بنوك عدة من جراء غش تجاري غافلون عنه ، ولا نتصور أنه يُكون ثروات هائلة لهؤلاء التجار الجشعين .

ردت والدته :

- زي ما أنت شايف يا ابني يا علاء بنقي حبيتين الأرز آهو بسلي نفسي .
- ليه والتليفزيون راح فين يا ست الكل .

ردت عليه بتهكم وهي تنظر لزوجها نظرة عتاب :

- التليفزيون .

ونظرت ناحية زوجها وأكملت :

- كل ما أشغله وأنظر البنات الحلوين اللي بيطلعوا فيه أخاف على أبوك لواحدة منهم تميل عقله وتخليه يتجوز عليّا .

تدخل الحسيني ما إن سمع كلامها ، وقال وهو يحاول الهروب من نظراتها :

- أنا يا أم علاء ، على آخر الزمن أتجوز عليكي .

تركهما علاء يكملان جدالهما ونقاشهما ، المنتهي كعادتهما ببضع كلمات من الإطراء والإعجاب لبعضهما ، وكأنهما ما زالا في سنة أولى حب ، هكذا هما متجددان يوميًّا ، يود يومًا أن يكون مثلهما مع زوجته التي لم يعرف لها اسمًا ولا شكلًا بعد .

دخل إلى حجرته ملقيًا بجسده على السرير ممدًّا يتفحص جوانب الحجرة بنفس غير راضية .

(٣)

من داخل المستشفى ودع عسقلاني زوجته ناصرة ، بعد رجائها له بالرحيل ليطمئن على الأولاد ، ونبهت عليه ألا يأتيها في الغد كي ينتبه لعمله ، فكان يبدو من كلامه معها أنه أهمله ؛ بسبب انشغاله بها والجلوس أغلب يومه بجوارها ، فطمأنها ألّا تقلق على الأولاد ؛ لأنه كما سبق وأخبرها أنه تركهم في رعاية أسماء زوجة عبده ، وطمأنها بأنه سيمرّ في طريقه على عبده ليشكره هو وأسماء على صنيعهما هذا ، أما بالنسبة لعمله فأكد عليها أن صاحبي العمل الصحفي منصور والإعلامية الكبيرة والمشهورة زوجته جيهان يقدرون ما هم فيه ، فودعته ناصرة متمنية له السلامة .

وفي طريق عودته مرّ كما وعدها على عبده ، لكنه لم يجده ، فسأل عنه شوقي الولد الصغير ذي الأربعة عشر عامًا ابن صاحب كشك البقالة الوحيد في الشارع والذي لا يشتري من بضائع كشكه إلا بلدياته من أصحاب الطبقة الفقيرة ؛ الذين حتّمت عليهم الظروف الانتقال بأولادهم وزوجاتهم للعيش في هذا الحي الراقي الذي يودّ لفظهم لفظًا وإلقاءهم بعيدًا مع أول صناديق قمامة تمر على الحي في الصباح لتجمع زبالتهم ، لكن قاطني هذا الحي من الملاك لا يعلمون أن هؤلاء المرتضين بامتهان أعمالهم كبوّابين وخدّام ، لو قدر لهم المكوث في قراهم النائية البعيدة القابعة في قلب الصعيد الجواني ، ولم يفكروا في الهجرة إلى هذه الأحياء الغريبة عليهم في كل شيء من مأكل وملبس وعادات وتقاليد - لكانوا الآن

يتباهون بعائلاتهم وعزوتهم ، ويا ليتهم يعلمون أيضًا أن هؤلاء إنما يتألمون وهم يعيشون في عالم غير عالمهم الذي ولدوا وتربوا بداخله ، ولم يكونوا يتصورون أنهم سيجيء يوم عليهم ، ويتركوه راحلين من أجل لقمة العيش ، لكنهم رغم كل ما يعانونه يوميًّا بسبب الاشتياق والحنين للعودة إلى المنشأ تجدهم راضين بما فرضته عليهم الظروف ، شاكرين حامدين غير متبرمين ، فقط ما يؤرقهم كيفية استعادة هيبتهم التي تركوها في قراهم هناك إذا فكر أيّ من أقاربهم زيارتهم وقضاء بعض من الأيام بالجوار.

أخبره شوقي أن عمه عبده ذهب لقضاء بعض من الوقت على القهوة التي أنشأها أحد أفراد جلدته بتجرؤ يحسد عليه ، متعللًا لصاحب العمارة - الذي ارتضى بعد إلحاح - أن ما يفعله هو لمصلحة سكان الحي ، فتجمعهم هذا يكون لمعالجة أية مشاكل يحاول إثارتها أيّ من البوابين بتعنتهم ونشوفية أدمغتهم الصعيدية التي لا ينفع معها أية محاولة للإقناع ، إذا صممت على فعل شيء ستفعله ، ولو كان سيوصل صاحبه إلى قضاء باقي عمره خلف القضبان .

وكرر عليه شوقي إجابته إن كان يريده فليذهب إلى هناك حيث جلسته اليومية في هذا التوقيت لعله يقابل فيها الزبائن الهالّين على الحي ، ممن يطمعون في شقة ؛ مفروشة كانت أو إيجارًا ، إذا اضطر أحد سكان المنطقة لتأجيرها ؛ رغبةً منه في الظفر بأموال الإيجار الشهري الذي يتعدى آلاف الجنيهات ، تحت تبرير عدم حاجته لها في وقته الحالي ؛ نظرًا لما يمتلكه من شقق مترامية أغلبها في المدن الجديدة .

أشاح له عسقلاني بعدما تذكر ذلك ، وضرب جبهته ببطن يده ، بعدها قال لشوقي :

- معلش يا ابني ؛ نسيت ، لا تؤاخذني فأنا اليومين دول تعبان أشد التعب .

ولف بكامل هيئته ليكمل طريقه إلى مكان عمله لكنه التفت مرة أخرى لشوقي قائلًا له :

- مش قولتلك يا ابني التعب منسّيني كل حاجة ، حتى ولادي اللي جيت لآخذهم معي كنت هنساهم ، ادخل يا شوقي اشكر أسماء مرت عمك سيدك عبده ، واجعلها توقظ أولادي إن كانوا نائمين كي آخذهم معي .

فأخبره شوقي أنه لا أسماء ولا أولاده بالداخل ، وأنه لا يعلم إلى أين ذهبت بهم .

أفاق عسقلاني وألقى بتعبه جانبًا ، وشخط في الصبي وهو يقول له :

- يعني إيه مش موجودة لا هي ولا أولادي يا بن الفرطوس .

لكنه عاد لهدوئه مرة أخرى عندما رأى الصبي وقد بدا الخوف على كيانه ، وربت على كتفه بعدما اقترب منه ، يتأسف له مرة ويقول له :

- لا تؤاخذني يا شوقي يا ابني ،هل أنت متأكد مما تقوله ؟ أرجوك يا ابني ادخل شوف ولادي بالداخل أم لا .

فأقسم له شوقي وكرر عليه ما قاله ، بل زاده أنه رأى أسماء ترحل بهم باكر ، وقت تسليمه وردية الصباح لوالده ، وأنها - على حد علمه - لم تعد بعد لأنه لم يرها من وقتها.

***

ازدادت حيرة عسقلاني المتلهف لرؤية أولاده ، وظهر القلق واضحًا عليه من خلال تعابيروجهه ، فقد كان خوفه من أن يكون حدث لأحدهم مكروه ، لدرجة أنه حاول بقدر المستطاع ألا تنفلت أعصابه ، وأمسك بلجام انفعاله وغضبه ، وقال لشوقي - وهو يهزه من كتفيه - :

- المشكلة أنك ليس لك ذنب .

وتركه يشق طريقه نحو القهوة ، وهناك ألقى السلام على الجالسين دون الدخول مع أيّ منهم في مناقشات أو تعليقات كما هو المتبع عند هلوله عليهم والجلوس معهم ساعة من الزمن يختلسها بين الحين والآخر، لكن ليس وقت ما يحلو لهم وله ، إنه يبحث ببصره بينهم عن عبده فلم يجده ، فنادى على صبي القهوة المقارب عمره عمر شوقي ، وسأله عنه ليعلم منه أن عبده ذهب منذ دقائق مع أحد الزبائن ليفرجه على إحدى الشقق المفروشة ، فسأله إن كان يعلم متى سيأتي ؟ فهز الصبي كتفيه ، وقال له : الله أعلم يا معلم .

ازداد قلق عسقلاني ، ولأول مرة تزور جسده قشعريرة الخوف الذي لم يزره منذ عشر سنوات ، عندما خرج بزوجته بلباس العرس ، تاركًا كل ما يخصه من مال وطين ومنزل ؛ خشية قتله في لحظة الغضب التي أصابت من كانوا يريدون قتله ، ووصفه تلك اللحظة وقتها بأنه الجنون بعينه .

أما الآن وخلال هذه اللحظات التي لم يعمل لها حسابًا ولم يكن يتمناها أن يكون مصابه في أولاده ، إنه خائف أشد الخوف عليهم ، فهم فلذات كبده ، يتمنى ويأمل لهم المستقبل المشرق المثقل بالعلم والتنوير كمن يعمل لديهم ، لا أن يكونوا جهلة كابن عمه الذي ارتكب الحمق بعينه ، كما أنه يتمنى ألا ينساقوا لتلك العادات والتقاليد المتوارثة الخاطئة ، والتي تطبق حسب الأهواء وقت الحاجة إليها وبسببها أصبح بوابًا .

لم يكن أمام عسقلاني سبيل آخر غير تسليم أمره لله ، والعودة لحجرته ينتظر هناك لعل وعسى أن يمر عليه عبده وأسماء وبرفقتهم الأولاد ، وإن مر اليوم ولم يكن لهم ظهو وكذلك لأسماء فقد أعلنت الحرب التي خمدت نيرانها بمجرد خروجه من النجع وتنفيذه ما أملي عليه بألا يعود مرةً أخرى برضا وسماحة نفس منه ؛ لأنه في قرارة نفسه يعلم أنه لو كان وضع في نفس موقفهم فلن يكفيه وقتها قتل كل من في النجع من رجال ونساء وأطفال .

وصل للفيلا وجلس أمام باب حجرة معيشته يستريح من عناء المشاوير التي ضربها بين مكان عمل عبده وبين القهوة ، وبينما هو كذلك لا يفكر في شيء سوى الاطمئنان على أولاده ، ارتفع بصره لأعلى دون إرادته يتأمل حجرات الفيلا ، فتراءت له الأنوار لتوّها أضيئت معلنة أن النهار على وشك الرحيل ، وأن الليل سيحلّ عما قليل ، كانت الأنوار تشع بأضوائها المبهرة من حجرة جيهان ، فقام من مكانه نصف قومة ، وعاد للجلوس مرةً أخرى بعدما تردد في النهوض نهضةً كاملة وهو يقول لنفسه :

- ولو أخبرتها ماذا ستفعل ؟ هل ستنزل معي لتبحث لي عن أولادي على آخر الزمن ، يا ولاد بسببكم أعتمد على واحدة ست ؟! هه والله أنا زهقت ، هما هيجرى ليهم إيه أكتر من اللي جرى لأبوهم ، غربة وشقى وقرف وعكننة ليل ونهار، والله لأدخل أريح جتتي واللي يحصل يحصل .

وقف مخرجًا مفتاح الحجرة من جيب سديريته ، وأداره في فتحة الباب ، مد يده وداس على زر اللمبة الكهربائية الوحيدة التي تتوسط سقف الحجرة ، فوقعت عيناه على أولاده النائمين أمامه ، فتهللت أساريره ، وبدت نواجذه ، وراح فمه ينطق بالشكر والحمد لخالقه ، لكنه قطع كل هذا عندما تذكر أن عينيه رأت جسدًا غريبًا ينام بجوارهم ، فالتفت مرة أخرى إلى رقدتهم وتفحص الجسد النائم جيدًا ليجدها أسماء النائمة بجوار الأولاد ، بقميص نوم شفاف يظهر

معظم مفاتنها ، والأدهى أنها في كامل زينتها وكأنها عروس في ليلة زفافها ، بلع ريقه بصعوبة وهو يتفحصها ثانيةً من شعر رأسها إلى أخمص قدميها ، وفي هذه المرة لعب الشيطان في رأسه وهيج مشاعره الحبيسة منذ ما يقارب الأسبوعين ، عندما أعلمته ناصرة باقتراب موعد وضعها لمولودهما السادس ، فابتعد عنها مضطرًّا في فترة صيام جنسي سنوي ، يعلم جيدًا أنها فترة تتعدى الأربعين يومًا ، تستعيد خلالهما ناصرة عافيتها وحيويتها ونضارتها ، بعدها يمارس حياته الطبيعية معها كما كانت ؛ بل إنه يكون أكثر قوة وعنفًا فيما يفعله ؛ نظرًا لرغباته الدفينة والتي يضطر لحبسها طول هذه المدة ، رفع جلبابه لأعلى يهم بخلعه ، لكن نظره المركز على الجسد الممشوق القوام أمام ناظريه انتبه لفيمتو من الثانية لأولاده النائمين بجوارها ، وأنه منذ قليل كاد يجن لأجل الاطمئنان عليهم ، فأرجع الجلباب لهندامه ، واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولف بجسده وجهة الباب والنيام جعلهم في ظهره ، وأخذ ينادي :

- أسماء ؛ إصحي ، إصحي ، يا أسماء أرجوك ، يا ست أسماء ، يا زوجة عبده بلدياتي .

تنحنح وراح يناديها باسمها مرات عدة حتى تحشرج صوته ونشف ريقه ، فلم يجد ردًّا ، فقط سمع تأوهات ، التفت مضطرًّا على إثرها نصف التفاتة ليجد أسماء تتقلب بجسدها ، وهي قاصدة بذلك تحاول بعث رسالة له فحواها ألم تتحرك غرائزك بعد ما اطلعتك على مفاتني ، مدت يدها وشدت قميص نومها الشفاف لمنتصف بطنها ؛ لتتضح لعسقلاني كل العوالم الخفية التي لم يرها إلا من خلال جسد ناصرة .

مد يده لوجهه ، وبصعوبة بالغة أعاد رأسه مرة أخرى في مواجهة الباب ، وبكل عزم ما زال بداخله أخذ يستغفر الله ويستعيذ من الشيطان الرجيم ، وبعد

هدوء أعصابه تكلم ، لكنه تكلم بلكنة عهدتها أسماء عليه قديمًا في صغرها عندما كانت دارها لا تبعد عن داره إلا القليل ، وعهدها به حيث الصرامة التي كان يتصف بها في معاملاته ، جد الجد لا هزار في معاملاته ، تتذكرها الآن تلك الصرامة ، وتعلم أنها هي من تقف حائلًا أمام حدوث ما دبرت له وتتمنى حدوثه ، وقال لها بحزم:

- أسماء جدامك دجيجتين اتنين تستري فيهم جتتك ، وتخرجي طوالي على بيت جوزك ، وعليّ الطلاج بالتلاتة من مرتي اللي راجدة في المستشفى لو مانفذتيش اللي جولته بالحرف الواحد لأكون مجطعك جطيع .

فتح باب الحجرة ووقف أمام بابها ينظر لأعلى حيث حجرة جيهان يدعو الله ألّا تفتح شباك البلكون وترى أسماء وهي خارجة من الحجرة ، رفع معصمه في مواجهة عينيه مركزًا بصره على ساعته مرة وعلى شباك بلكون جيهان مرة أخرى ، يتمنى ألا تهمل أسماء وعيده لها وإلا فستكون العواقب وخيمة ، لا يدري وقتها هل ينفذ ما وعد به أم أنه سيرضخ لرغباتها إن دلف للداخل مرة أخرى وراءها كما هي بقميص نومها ، ووقتها سيسلم أمره لحبائل الشيطان المستعيذ منه ومن شره ومكره منذ قليل .

دقيقتان بالتمام مرّتا ليجد باب الحجرة خلفه يفتح ويصطدم كتفه بكتف أسماء المتعمدة فعل ذلك ؛ لتعلمه أنها نفذت ما أراد لكنها في نفس الوقت مستاءة من تصرفه هذا، التفت إليها نصف التفاتة ردّها للأرض بسرعة البرق غير قادر على مقاومة نظراتها التي تأكله أكلًا وتقول له لمَ لم تغتنم الفرصة الآتية إلى حجرتك على طبق من ذهب ؟

جلس مكانه ، أخرج زفيرًا كان مطبقًا على صدره وهو يقول : الحمد لله ، بعدها نظر حواليه ليجد أسماء وقد غابت عن ناظريه ، ظل مكانه لم يبرحه جالسًا

القرفصاء ، ينظر لأولاده النائمين مرة من فتحة الباب ومرة لباب المدخل ينتظر قدوم منصور بسيارته ، فيستقبله ويغلق وراءه باب الفيلا بإحكام ، ليذهب بعدها في نوم عميق هو في شدة الاشتياق إليه ، حيث إنه لم يزر جفنيه منه إلا القليل في الدقائق المعدودة على الأصابع خلال اليومين الماضيين .

فتحت جيهان شباك البلكون تستر جسدها بروب نومها ، فتراءى لعسقلاني وهو ينظر لها بأنه شفاف يفضح جسدها أكثر مما يستره ، فأومأ برأسه أرضًا يغضّ بصره يودّ التسحب على أطراف أصابعه دالفًا إلى الحجرة متصنعًا عدم رؤيتها ، لكنه عندما هم بفعل ذلك وجدها تنادي عليه :

- يا عسقلاني .

فنظر إليها مرةً أخرى وأخذ يكلم نفسه :

- وبعدين يا بنات حوّا ألاقيها من مرات عبده ولا منك يا ست جيهان .

كررت جيهان مناداتها عليه ، فقام يتخبط كالسكران رافضًا الانصياع لأوامر قدميه اللتين تجبرانه على السير ، إلى أن وصل تحت ناظريها وقال لها :

- اؤمريني يا ست جيهان .

أحست جيهان بأن شيئًا ما حدث من خلال نبرة صوته التي لم تعهدها عليه ، وكذلك مشيته ورأسه المنكس أرضًا ، فقالت له تسأله :

- ما لك يا عسقلاني في حاجة حصلت لناصرة ؟
- أبدًا يا ست هانم ناصرة بخير والحمد لله .
- أمال ما لك ، نبرة صوتك وتعابير وجهك يدلان على حدوث شيء ما .
- الحكاية وما فيها يا ست هانم إني تعبان حبتين .

- اجمد يا عسقلاني كلها يومين ثلاثة وناصرة تيجي وترفع عن كاهلك بعضًا مما تعانيه .

- المهم يا ست هانم تأمريني بشيء .

- آه أنا قلت أأكد عليك إن زوجي منصور قادم في الطريق ، وعليك أن تتأهب لاستقباله .

- حاضريا ستي جيهان .

وتركها عائدًا إلى حيث كان يجلس القرفصاء .

تركت جيهان طاقة من فتحة الشباك تتلصص منها على عسقلاني ، ولما رأته على هيئته المتكوم من خلالها في مكانه رأفت لحاله ورقّ قلبها إشفاقًا عليه مما يعانيه من شقاء هو وزوجته .

أمرت ذاكرتها باستدعاء كل حلقات برنامجها الشهيرمن تفكك أسريّ إلى طلاق وانحراف الأبناء وتعاطيهم للمخدرات ، وغيرها من القضايا التي تثقل كاهل الوطن ، وتجعله كلما يتقدم خطوة للأمام نحو البناء والتنمية يتأخر لآلاف الخطوات نحو الجهل والتخلف ، والتخبط في القرارات التي لا تتخذ من خلال التخطيط والدراسات والبحث العلمي بل عن طريق الفذلكة والدروشة والفكاكة ، ويا عم اعقلها وتوكل على الله ، أدينا بنجرب ، هو إحنا خسرانين حاجة ، دا مال سايب .... وكل هذا بالطبع عائد على الطبقة الفقيرة المهمشة المنحدرة في كل يوم يمرّ عليها لأسفل القاع ، لتجد نفسها في نهاية المطاف ملقاة في حفرة من حفر الجبانات ، مهال عليها التراب ، ولم تجد بعد من يجيب على سؤالها الوحيد ، من المستفيد ومن له المصلحة في أن أدفن هكذا ، ولم أكن قد أخذت حقي في الحياة من عيشة كريمة ، قوامها المسكن اللائق والطعام النظيف الصحي غير الملوث بالمبيدات المسرطنة ، أو على الأقل أجد الرعاية الصحية في أغلبية المستشفيات

التي ينخر فيها الفساد نخرًا ، ناهيك عن التعليم الذي ترك التربية مهملة جانبًا ، واهتم فقط بالميزة الأساسية التي تجعل المدرسين يلهثون لهثًا وراءه فقط ، من أجل جمع أكبر قدر من الأموال من الدروس الخصوصية التي تجعلهم خلال سنوات قليلة يتمكنون من تحقيق حلم الثراء الذي يبحث عنه الجميع ، دون مراعاة للأخلاق والقيم والتربية التي من المفترض أن تكون وجبة دسمة يومية تعطى للطلاب حتى نجني يوم التخرج من الجامعة أجيالًا نتباهي بها بين الأمم ، لكن - وآهٍ من لكن - من هذه الإشكالية المعضلة التي تشبه إلى حد كبير مشكلة المياه النظيفة المخلوطة بمياه الصرف الصحي التي يتجرعها بعض المواطنين مضطرين غير مبالين بما سيصيبهم من أمراض ، وكل هذا بسبب جهلهم وعدم اطلاعهم على حقيقة الوضع المؤلم الذي لا نجني من ورائه في نهاية آخر يوم دراسي جامعي سوى أشباه خريجين لا يصلحون لأن يبنوا وطنًا يليق بهم ، قبل أن يليقون هم به ، وأسفًا من كل ذلك القوام الدنيوي من مسكن آمن وملبس نظيف وطعام صحي ومياه نقية لا بد من توفرها لنا جميعًا ، منذ خروجنا من رحم أمهاتنا داخل حدود وطننا ، فإنه حق مكتسبٌ للجميع ليس لأحد فضلٌ على أحد بأن يقول أنا وأولادي ولا غيري له الحق مثلي فيه .

أفاقت جيهان لتجد نفسها بعد تذكر كل هذا تحمد ربها على النعم الكثيرة التي وهبها إياها ، وغير المتوفرة للكثيرين مثلها، لذلك لم يبد عليها الحزن عندما أخبرها منصور فور عودته وأثناء استقبالها له أنه لا أمل بعد الآن في شفائه ، فاقتربت منه واحتضنته ، وقالت له:

- هوِّن عليك ؛ هذا ما قسمه لنا ربنا ، إنه نصيبنا مقدر ومكتوب ، وما علينا إلا أن نرضى كي لا يحل علينا غضبه ، فنحن والحمد لله في نعمة يحسدنا عليها الكثيرون .

وافقها منصور فيما قالت، لكنه من داخله يعلم بشعورها من حنين واشتياق تجاه مسألة الإنجاب ، ورغبتها في أن يكون لها ذرية منه .

(٤)

تخطى الليل منتصفه وباب القهوة لم يغلق بعد ، « كنكة « صبي القهوة : جالس على الكرسي الوحيد الباقي في البراح أمام القهوة ، ينتظر بفارغ الصبر اتخاذ قرار الرحيل من جانب مصطفى الجالس على كرسيه الذي لم يبرحه منذ حلول طلته البهية في المغربية ، أوكل إلى « كنكة « مهمة إغلاق القهوة صاحبها ، عندما وطئت قدما مصطفى القهوة ، وجلوسه هكذا لما بعد منتصف الليل ، واشتمامه رائحة الغدر الطالّة من عيني مصطفى ؛ الذي أخرج من جيب سترته مطواة يلوح بها في الهواء أمام ناظريه ، وهو يعد إيراد اليوم الطويل الشاقّ الذي لا يخلو من مناوشات ومضايقات الزبائن ، فهو يعلم أن أغلبيتهم ضاقت بهم الدنيا ، ولا يجدون غير القهوة هروبًا من مشاكلهم ، ليفرغوا شحنات همومهم المليئة بالغضب والحنق في دخان الشيشة ولعبة الدومينا ، لذلك فصاحب القهوة في حيطة وحذر من تجرؤ أيّ من أمثال مصطفى بإفراغ شحنات همومه في أخذ قوت أولاده المنتظرين دخوله عليهم بالحلوى وأكياس الفاكهة التي لا يبخل بها عليهم كل مساء .

اندلقت رقبة كنكة على كتفه ، وغطّ في نوم عميق بعدما سلم أمره لله ، فأهون عليه نومته هذه ، فهي أرحم مما سيناله من عقاب إن تجرأ ووقف أمام مصطفى يقول له : أريد إغلاق القهوة يا برنس فقد حان وقت الإغلاق ، لكن مصطفى كان له رأي آخر عندما قرر الرحيل في الوقت واللحظة التي يريدها ، وها هي قد حانت

عندما نادى على كنكة ، فلم يجد ردًّا ، فقام من مكانه ، ووصل أمام جلسة كنكة ، فوجده كالجثة متكومًا فوق الكرسي ، فدلف مرة أخرى داخل القهوة وبحث عن قطعة ثلج ، ووضعها داخل كوب زجاجي وزادها ماءً ورجه رجًّا وهو يشق طريقه خارجًا ، ووقف مرةً أخرى أمام كنكة وألقى بالماء البارد فوق رأسه ، لينهض كنكة من مكانه وهو يرتعد من الخوف لا يزيد قولًا عن :

- تأمرني بشيء يا سي مصطفى .

رد عليه مصطفى :

- مفيش يا كنكة ؛ قولي حسابك كام ؟
- اللي تدفعه يا برنس .

لكمه مصطفى في كتفه وقال له :

- ياد قول حسابك كام ؟
- المعلم أوصاني بألا آخذ منك حسابًا .

فشخط فيه مصطفى وقال له :

- ليه ياولة ؛ هو المعلم بتاعك بيزكي عليّا ، طب إيه رأيك أنا مش مروح ، وقاعد على قلبك لحد النهار ما يطلع .
- لأ خلاص يا معلم أرجوك .

فما كان من كنكة إلا أن نطق بالحساب الذي يحفظ مبلغه عن ظهر قلب ، ومد يده بخوفٍ وأخذه من يد مصطفى ، وهو غير مصدق أنه سيدفعه له .

ذهب مصطفى تاركًا خلفه كنكة يغلق باب القهوة ، لكن ما لم يعلمه كنكة هو ومعلمه أن مصطفى ما جلس جلسته هذه للهجيع الأخير من الليل إلا لأنه

عقد النية على سرقة شقق زبائنه الحافظ لأماكن إقامتهم عن ظهر قلب من خلال حواراته الجانبية معهم كحب استطلاع ومباهاة بين زملائه الصنايعية في نفس الوقت ممن يجاورونه ورشته ، بأن البيه الفلاني من ساكني أو قاطني أرقى المناطق اختاره خصيصًا دون الآلاف غيره ليصلح له أعطال سيارته ، وأن ما صرح به لصديقه علاء لم يكن إلا صدقًا ، ولم تكن جلسته تلك التي لم يبرحها إلا لأنه كان يسترجع بذاكرته كل عناوين زبائنه ، وأنه كان يتخير من بينهم من هو الأصلح صاحب الحظ الأوفر لينال شرف أول سرقة سيقدم عليها من هذا النوع ، وعندما استقر أخيرًا على اختياره ذهب دون تردد أو تأخير ، ومن قلب الشارع الرئيسي للحي ظل سائرًا على قدميه لنصف ساعة أو ما يزيد ؛ لانقطاع الميكروباص وسيلة المواصلات الوحيدة في هذا الوقت المتأخر من الليل ، حتى أطل عليه شارع السودان بأنواره الكثيفة والتي تحول ليله إلى نهار، استقل تاكسيًّا حتى منتصف شارع جامعة الدول العربية ليتخذ وجهته بعدها ماشيًا إلى شارع شهاب ، حتى توقفت قدماه خلف عمارة بعينها في شارع خان يونس ، تسلّق مواسير المجاري بجرأة لم يتخيلها واضعًا المطواة بين أسنانه ، وعند شقة معينة بالدور الرابع توقف ، ومن باب الحمام دلف إلى داخل الشقة الخالية - كما أسرّ إليه صاحبها من قبل - بسبب خلاف قائم بينه وبين زوجته ، فتركته يعاني عذاب وآلام الوحدة .

كان مصطفى من خلال استعادة ذلك الحواريظن أنه سيجد صاحب الشقة بمفرده فتكون مهمته أسهل مما يتصور ، من خلال تهديده له بالمطواة إن وجده في طريقه داخل الشقة ، أو أن ينهال على رأسه بقبضة يده القوية فيسقطه أرضًا مغشيًّا عليه ، أو أن يقضي عليه إن أصر على المقاومة كي لا يفتضح أمره عندما ينادي بأعلى صوته : حرامي ، لكنه لم يتوقع خلو الشقة تمامًا من أي شي ، جدران فقط وجدها قائمة وسيراميك على الأرضية وجده عاريًا من أي

سجاجيد أو فرش يستره ، تنقل بين الحجرات من حجرة إلى أخرى غير مصدق عينيه أن أول مكان يفكر في سرقته ونجح في دخوله بمنتهى السهولة يجده خاويًا هكذا.

جلس في أقرب ركن وجده أمامه ومدّ ساقيه أمامه ، وراح بعدها في نوبة ضحك هيستيرية تبعها ببضع قطرات من بكاء أصابت عينيه لتنزاح الغمامة ، فيزداد تأكده بأن الشقة خالية بالفعل ، دقائق معدودات ظل خلالها جالسًا ، وبعدما هدأ نهض من مكانه متخذًا طريقه جهة الباب ، بعد قرار اتخذه بعدم خروجه من الشباك كما أتى ، لكنه أحسّ بشيء غير السيراميك الأملس الناعم تدوسه قدماه ، فنظر لأسفل ليجد ظرفًا ، انحنى وأمسك به ، وجلس مكانه وفتحه ، ليجد به مبلغًا ماليًّا ، عدّه فوجده ألف جنيه ، ترافقه رسالة مكتوبة على ورقة صغيرة ، فلم يهتم لأمرها وضمّ المال إلى صدره وهو فرح أشد الفرح ، في هذه اللحظة دبّ الخوف في قلبه فقام مسرعًا ، وفتح باب الشقة عنوة بالمطواة ، لكنه تراجع للخلف بعد فتحه للباب وعاد مسرعًا يبحث عن المخرج الآتي منه ، وهو يقول لنفسه : مواسير المجاري أفضل عندي مائة مرة من مواجهة البواب وجهًا لوجه .

***

أشرقت شمس الصباح ؛ والحسيني جالس على سجادة الصلاة في الركعة الأخيرة ، ومن خلفه زوجته الست عزيزة أم علاء تصلي خلفه صلاة الصبح جماعة معه ، وما إن فرغا من صلاتهما حتى رفعا أيديهما يدعوان لعلاء بالهداية وراحة البال ، وغيرها من الأدعية الأخرى متمنين أن يمنّ الله عليهما بنعمة الاستجابة لدعائهما .

قام الحسيني وخلع جلبابه وناوله لعزيزة التي ناولته بدورها سرواله وقميصه المعلقين على شماعة الحائط ، وما إن انتهى من ارتداء ثيابه حتى خرج وخلفه عزيزة تلقي على مسمعه أنها ستعدّ طعام الإفطار خلال دقائق ، وما يتوجب عليه فعله هو التوجه لحجرة علاء لإيقاظه . لم يردّ الحسيني ، فقط تقدم بخطواته ناحية حجرة علاء ورفع يده في مساواة صدره ، وهم بضرب الباب ليصدر نقرات يعرفها ويميزها علاء بأنها له ، ليجد علاء وقد سبقه بفتح الباب من الداخل ، لتنزل ضربة الحسيني على صدر علاء . لم يهتم علاء بضربته ، لكن الحسيني تأسف له ، ولم يتركه إلا وقد ضمه إلى صدره ، فابتسم علاء نصف ابتسامة ، وقال له :

- لا عليك يا والدي ؛ لا تنسى أني ابنك ، ومهما فعلت بي فأنا - رغم أنفي - الطفل الذي خرج من رحم أمه قطعة لحم حمراء وضعت بين يديك ، فرعيتها وربيتها واهتممت لشأنها حتى كبرت ، وشبت أمامك إلى أن أصبحت شابًّا ليس عليه سوى أن يجعلك تفتخر به ، وسيأتي هذا اليوم حتمًا يا أبي .

أراد الحسيني التحدث لكن الكلام توقف عند حنجرته ، رُدّ إلى جوفه مرة أخرى عندما قال علاء - يكمل كلامه - :

- لا تقل شيئًا يا أبي .

وانكبّ على يديه وقبلهما ، بعدها استأذنه في اضطراره للخروج للذهاب إلى عمله دون رفقته لأول مرة ؛ لأنه قرر قطع أغلب مسافة الوصول إلى هناك سائرًا على قدميه ، فقال له الحسيني :

- ولمَ هذه المشقة يا ابني ألا يوجد معك نقود ؟

فربت علاء على كتفه وقال له :

- معي ما يكفيني والله يا بابا ، بس زهقي من الزحمة هي اللي خلتني أجرب فكرة الذهاب سيرًا على الأقدام اليوم ، واطمن مش هامشي إلا من عند بداية الزحمة من عند مترو البحوث .

- بس دا مشواريا ابني .

- دي ساعة مشي يا عم الحسيني أفضل من ساعة وأنا حبيس وسيلة المواصلات متكوم على نفسي في الكرسي لا باعرف اتحرك يمين ولا شمال من كتر الناس وهي متكربسة فوق بعضيها من حولي .

وتركه متجهًا صوب الباب ، فقال له الحسيني :

- يا ابني وكان ما له المترو ، في ربع ساعة وتلاقي نفسك قدام المجمع !

- وبعدين يا بابا !!

- خلاص يا ابني اعذرني نسيت إن عندك فوبيا من كل حاجة تتعلق بحاجة اسمها أنفاق تحت الأرض ، دوخة وزغللة لحد ما يغمى عليك ، كان نفسي أعرف دا سببه إيه ؟!

- كان نفسي أنا كمان أعرف ، يلا سلام يا بابا .

- طب استنى يا ابني لما تاكلّك لقمة ، في حدّ يروح شغله وهو على لحم بطنه برضه ؟!

- معلش يا بابا مليش نفس .

- طب الأكل ومالكش نفس ، طب وذقنك التي تزيد طولًا يومًا عن الآخر ألن تحلقها .

- حلاقتها مثل تركها ، فهي لا تضايقني في شيء يا عم حسيني ، سلام بقى يا عم حسيني .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

دبّ القلق في قلب الحسيني ، ولم يترك أحدًا من زملائه إلا وتأكد منه من صحة الوقت الذي يمرّدون وصول علاء إلى العمل ، ساعتان مرّتا على بدء العمل ، وهو لم يأتِ بعد ، أخذ يردد « يا رب استريا رب « في سره ، ولم ينقطع إلا عندما حدث نفسه ولامها قائلًا :

- كان بس إيه اللي جرالي يا رب وخلاني أسيبك يا علاء يا ابني تنزل لوحدك .

***

مرت نصف ساعة أخرى لتنهال عليه بعدها المراسلات الآتية لشخصه من مكتب المديرة ، تستفسر منه عن تأخر علاء غير المبرر ، سألته بلهفة عن تأخره وهل يغيب اليوم ؟ بعد اضطرارها ترك ما في يدها من أعمال والوقوف معه في أحد الطرقات ، فأقسم لها الحسيني أن علاء ودعه في الصباح بعد تأكيده أنه سيسبقه إلى هنا - مقر العمل - سيرًا على الأقدام ، وأثناء حوارهما هذا هلّ عليهما علاء ، فلم يتمالك الحسيني نفسه وأخذ علاء من يده وانتحى به جانبًا ونهره على تأخره ، فتأسف له علاء وأعلمه بسبب تأخره ، من أنه اضطر لإنقاذ رجل سئم من حياته وقرر الانتحار غرقًا ، فلم يكن أمامه مفرّ غير النزول خلفه في الماء وإنقاذه ، وأنه قضى مدة تأخره هذه جالسًا على حافة النهر يجفف ملابسه المبلولة المصرة على ترك بعض من آثار المياه عليها ، والواضحة أمام عينيه .

ابتسم الحسيني في وجهه وقال له :

- صحيح يا ابني ، والله براوة عليك ، ربنا يحرسك ويحميك وينصرك ويعلّي مراتبك .

كانت منيرة مديرته واقفة خلفهما تسترق السمع ، ولم تمنع نفسها من التطفل عليهما والتدخل في حديثهما طرفًا ثالثًا غير مرغوب فيه ، وقالت لعلاء :

- صحيح ما سمعته الآن يا علاء ؟
- صحيح يا سيادة المديرة وآسف على تأخري هذا .
- لا عليك يا علاء ، لو سمحت تعالى عشان عايزاك .

وتركتهما عائدة إلى مكتبها .

- نظر علاء لوالده وقال له يا ريتني ما كنت جيت .
- ليه يا ابني كده ، أقولك خدها على أد عقلها لحد ما ربنا يحلها من عنده .
- شكلها مش هتتحل إلا بالرضوخ لرغبتها التي تلحّ في تحقيقها يوميًّا .
- توكل على الله يا ابني وارمي حمولك عليه وهو هيصرفها من عنده ، يلا روح شوفها عايزة إيه بدل ما تطيّن عيشتنا .
- إنت شايف كده ؟ ماشي يا حسيني لو وقعت الفاس في الراس هيكون ساعتها بسببك .
- ساعتها إيه يا ابني .
- هقولك الله يسامحك يابا ، قال علاء ذلك وهو يبتسم في وجه والده وتركه نحو ما يخشى وقوعه وحدوثه .

تقدم علاء بخطوات ثقيلة ملؤها الخوف ، يتجرع المرارة في حلقه ، يلعن يوم أن أتى به والده إلى هذه المصلحة .

وقف أمام مكتب منيرة يتردد في الدخول ، لكن منيرة لم تسمح له بالارتداد

للخلف كما هيأ له عقله الباطن في اللحظة الأخيرة ، أمرته منيرة والابتسامة يراها على وجهها ، وكررت عليه كلمة ادخل مرات ثلاث ، فلم يستجب علاء لندائها يودّ العودة إلى حيث مجرى النهر وهو يرى على مقربة منه من يقف على السور الحديدي للكوبري ويلقي بنفسه داخل المياه يحاول الانتحار ، فيلقي بنفسه خلفه لا لأن ينقذه لكن لينتحر مثله ؛ رغبة في إراحة نفسه من زنّ منيرة عليه يوميًّا في طلبها بالزواج منه .

لم يكن أمام منيرة أمام رفض علاء الاستجابة لندائها عليه بالدخول سوى النهوض من جلستها ومدّ يدها نحو ذراعه لتسحبه منه سحبًا إلى أقرب كرسي وجدته أمامها ، أجلسته عليه ، وعادت لتغلق باب المكتب بإحكام ، ظلت نظرات علاء معلقة بكيانها ينتظر بين اللحظة والأخرى ، يتساءل ما الخطوة الهمجية التالية المُقدمة عليها سيادة المديرة ، وألقى على نفسه سؤالًا ثانيًا : هل هذه المجنونة المسماة بمديرته - والمتوقف عليها مصيره ومصير والده العملي - من الممكن أن تكون زوجته كما تخطط وتحلم ؟ توقع إتيانها بخطوة أخيرة تنقض فيها عليه ليأتي أحد زملائه فجأة فيرى اللقاء الغرامي بينهما وبعد ذلك تدعي أمام زميله هذا أنه هجم عليها ، وفي نهاية المطاف يكون أمام خيارين لا ثالث لهما إما اتصالها بالشرطة فتأتي لعمل اللازم ويكون مصيره السجن والفضيحة التي ستلازمه طول حياته ، وإما ؛ وآهٍ من إما من الخيار الثاني الذي لا مفر منه ، فقد اختارته هو دونًا عن كل من في المصلحة الضاجّة بالكثيرين مثله من زملائه لترمي عليه بشباكها من أجل الزواج منه ، لكنه تنهّد عندما وجدها تتركه لحال سبيله وتجلس قبالته على كرسيها يفصل بينهما مكتبها ، انتظر تحدثها لكنه وجدها تخرج ورقة بيضاء من درج مكتبها وتكتب عليها ، فعلق بصره بما تكتب وأخذ يعدّ السطور ، انتهى السطر الأول ، فعدّ : واحد ، والسطر الثاني : اثنان ، وهكذا إلى أن انتهت في منصف السطر السادس ، وفي آخر السطر السابع وقّعت

بإمضاءتها المعروفة ، والتي يحفظها عن ظهر قلب من خلال الورق الكثير الآتي يوميًّا من مكتبها والموقع بخط يدها ز

ارتاحت نفسه وهدأت وهو ينتظر أن تضع خاتم النسر بجوار إمضاءتها ، فيطمئن بعدما أعلمته هواجسه أنه مجرد قرار يخص العمل ، ظنها ستكلفه بتعليقه في المكان المخصص لذلك ، أو لعلها تفعل ما يتمناه من نقله إلى جهة أخرى فيستريح وتستريح هي الأخرى من محاولاتها المتكررة لطلبها الزواج منه ، فلعلها يئست أخيرًا ، وأحست بالخجل بعدما أصبح طلبها هذا يعرف به جميع العاملين .

علق بصره بيدها التي فتحت درج مكتبها مرة أخرى لتخرج خاتم النسر ، فأراد القول لها : الختم أمامك فلم تحيرين نفسك بالبحث عنه في درج مكتبك ، لكنها سبقته بإخراجها ظرفًا وضعت فيه الورقة وسلمته إياه ، بعدها أمرته بالمجيئ خلفها ، سألها : إلى أين ؟ فأجابته : في الوقت المناسب ستعرف ، نادت على الحسيني والده وأمرته إبلاغ كل العاملين أنها ذاهبة للمقرّ الرئيسي لحضور اجتماع هامّ .

***

استقلّت منيرة سيارتها وبجوارها علاء يفتش عن إجابة شافية في فحوى الكلمات المختبئة داخل الظرف المستقرّ بين يديه ، طرد كل الأفكار السيئة التي تلحّ بها عليه يوميًّا في الفترة الأخيرة ، وبالتحديد عندما طلبت منه بكل جرأة أن يتزوجها ، وبدأ يفكر فيما يحتويه هذا الظرف ، إنه حتمًا يخصه ما دام ذاهبًا معها إلى المقرّ الرئيسي ، وقال لنفسه : يا وقعة سودة لتكون المجنونة الجالسة بجواري هداها تفكيرها للتنازل عن منصبها لي مقابل إرضائي . وراح يتساءل هل ستقنع

مجلس الإدارة بالفعل لنيل شرف هذا المنصب الذي ليس لي حق في نيله .

شقّت السيارة طريقها بعيدًا عن الطريق الذي يحفظه عن ظهر قلب إلى المقر الرئيسي آخذة وجهتها حيث منطقة المعادي ، فتساءل مرة أخرى بين نفسه : إلى أين ؟ قطع الصمت الهابط كالظلام على صالون السيارة وقال لها :

- سيادة المديرة ممكن أسأل سيادتك ...

فقاطعته بصوت ناعم لم يعهده عليها من قبل :

- في الوقت المناسب يا علاء ستعرف كل شيء ، وخلال دقائق معدودات أرجوك تحلّ بالصبر.

حل الصمت بينهما ثانية ، ولم تمض بضع دقائق كما وعدته حتى قالت له :

- وصلنا أخيرًا .

***

تفحص علاء المكان من حوله حيث أوقفت منيرة سيارتها أمام عمارة سكنية فخمة ، تدل من وجهتها على رقي وثراء ساكنيها، نظر لأعلى حتى آخر دور من أدوارها الخمسة عشر، يبحث عن أية يافطة معلقة على واجهتها يستدل منها على وجود مكتب أو مصلحة كالتي يعمل بها فلم يجد ، إنها عمارة سكنية كما يظن ، وصدق ظنه عندما ترجّل من السيارة ، وسار خلف منيرة وهو يسمعها تنادي على البواب باسمه ، والذي أجابها هو الآخر سريعًا يرد تحيتها : « حمدالله على السلامة يا ست منيرة هانم « . وتقدم أمامهما يفتح لهما باب المصعد يلقي على مسمعها « كل طلباتك من خضاروفاكهة ولحمة وفراخ أمام باب الشقة كما أمرتيني « وأخرج من جيبه أموالًا يقول لها : « الباقي يا ست هانم « ، فقالت له

منيرة : « خليها علشانك».

صعد المصعد لأعلى ، فما كان من علاء إلا أن تنحنح ليزيح البقعة الكبيرة من الخجل المسيطرة على جزء كبير من عقله منذ استدعاء منيرة له وبدأ في الكلام :

- أستاذة منيرة من حقي الآن التحدث .
- أرجوك يا علاء كلها ثواني وستعرف كل شيء .
- بس دا مش مكان عمل كما أفهمتيني .
- ومن قال لك غير ذلك ؟ إنه يخص عملك بالدرجة الأولى .
- مش فاهم ، أرجوك وضّحي .
- أرجوك يا علاء كفاية كلام ... هيه الحمد لله المصعد أوصلنا لشقتنا .

خرجا من المصعد ، منيرة أولًا وعلاء خلفها بعد شدها له من يده ، وهو يتمنى العودة أدراجه ولا يكمل هذه الخطوات القليلة إلى شقتها ، أحسّ أن العواقب ستكون وخيمة ، لكنه سلم أمره لله واستجاب لجذبتها لدرجة تعمدها ترك شنطتي الطعام مكانهما حتى لا تترك يد علاء فيفرّ هاربًا قبل رؤيته وإعلامه بالمفاجأة التي أعدتها له بعد تفكير وتدبر ، وبادرته مرةً أخرى وهي تغلق الباب وراءها :

- قبل أن تسألني أي سؤال من الأسئلة التي تدور في رأسك وتريد جوابًا شافيًا مني عنها إيه رأيك في شقتنا .

نظر علاء وتفحص بعينيه جيدًا في الأرجاء والجوانب والأرض والسقف ، وقال بتهكم :

- آه هي حلوة وجميلة وذوقك حلو وعالي وراقي ، بس إنت تقصدي يا أستاذة منيرة شقتك مش شقتنا .

- لا أنا قاصدة وتعمدت قول شقتنا بالجمع ونحن في المصعد ، وتعمدت أيضًا قولها لك الآن ، إيه رأيك ، وهذا غير التنازلات الكثيرة التي وضعتها بين يديك لكي ترضى عني ، فأنا وكل ما أملك بين يديك .

اقتربت منه لحد الالتصاق ، ولفّت معصميها بين جنبيه من خلال خطوة جريئة أخذتها وكانت تتمناه البادئ بها بدلًا منه :

- أرجوك يا حبيبي ارضى بقى ووافق على زواجك مني .

بلع علاء ريقه وابتعد عنها لخطوتين بعد اشتمامه لهيب الشوق يخرج من فمها يكاد يحرقه مثلها ، وقال : بس أنا

قاطعته منيرة تقول :

- قبل ما تقول أي حاجة ، هذا الخطاب الموجود بين يديك افتحه ، واقرأ ما بين السطور جيدًا إلى أن آتي لك بشيء تشربه .

- وضحكت تداري دقات قلبها المتسارعة التي وضحت في كلامها الذي يغلب عليه الشهيق والزفير المتصاعدين من فمها ، وأكملت تقول :

- آه نسيت ، تشرب إيه ؟ شاي .. قهوة .. حليب .. حاجة ساقعة ، فكله متوفر والحمد لله ، واعمل حسابك سنتغدى سويًا لترى شطارتي ونفسي في الأكل ، قولي إيه رأيك بقى في المفاجأة الحلوة دي ، دا غير الكلام المكتوب في الجواب « اقتربت منه مرةً أخرى: « صدقني لو قلتلك أنا ممكن أتنازلك عن عمري الباقي أيضًا من أجل قضائك باقي اليوم هنا بجواري ، النهاردة وبس ، وبعد كده هسيبك براحتك تقرر الارتباط بي أم لا .

ولما لم تجد منه ردًا قالت له :

- أرجوك رد على .

نظر علاء للخطاب بين يديه وأخذ يقلبه ، ففهمت منيرة مقصده بأنه يريد استطلاع ما يحتويه الجواب بمفرده ، فتركته وذهبت من فورها إلى باب الشقة ، وأتت بشنطتي الطعام ، وقالت له وهي مارة من أمامه تشق طريقها نحو المطبخ في تؤدة ودلال :

- لن أغيب عليك ، فقط خذ راحتك أنت الآن في مملكتك الخاصة يا حبيبي ويا سيدي ويا تاج راسي.

جلس علاء على أقرب كرسي ملقيًا بالخطاب أمامه بعد استخراج كمية لا بأس بها من الزفير الجاثم على صدره لم يكن ليخرجه أمام منيرة حتى لا ترى لحظة ضعف ألمت به وهي ترجوه بارتباطه بها ، ولو أنها انتظرت لثوانٍ بعد ذلك الرجاء ، فلم يكن ليخيب رجاءها لأنها وصلت معه إلى أبعد مرحلة من « الزن على الودان « .

تنهد وأخذ يتفحص المكان من حوله ويفكر فيما قالته له منيرة من أنه سيكون ملكًا له إن توقف عقله بإشارة منه عن تكملة ما يرفضه قولًا وفعلًا ، نظر للخطاب .. فتحه وأخذ يقرأ ما بين السطور ، وتأكد من صدق منيرة في كلامها الذي ألقته على مسامعه منذ قليل بأنه يعيش في مملكته التي تنازلت له عنها وهي بكامل قواها العقلية ، بل إنها زادت تنازلها له عن قطعة أرض مساحتها ألفا متر، تقع في منطقة من أرقى المناطق ، وتقدر قيمتها بعشرات الملايين من الجنيهات ، تجرأت أيضًا وتنازلت له عن كل أرصدتها في البنوك ، ووضعت أرقام هذه الحسابات بين السطور ، كي يتأكد من صدق كلامها إن كان يريد ذلك .

وضع علاء الورقة أعلى المنضدة أمامه بعد أن انتابته قشعريرة من هول المفاجأة التي أعدتها له منيرة ، فرك عينيه وأمسك بالورقة معيدًا قراءتها مرة أخرى ، فهو لا يصدق ما تراه عيناه بين السطور ويقرؤه بلسانه ، ولم يزد بعد

تأكده على تعليقه لنفسه مما قرأه بأن منيرة يا إما مجنونة ويا إما أنها تحبه وتهيم به عشقًا كما تدعي له وتفضحها نظراتها التي تبعث بها إليه كلما رأته .

ألقى بالورقة على المنضدة مرة أخرى ، ونهض من فوره يبحث عن شنطة يدها ، وهي ليست بالبعيدة عنه ، ففتحها وفتش بين أشيائها عن قلم فوجده ، عاد إلى مكانه وأخذ يكتب تحت التنازل كلمات ستفهم معناها منيرة عندما تقرؤها، وترك المملكة الخاصة التي ظنت أنه سيقبلها منها دون تردد .

وبعد قليل من ذهابه خرجت منيرة من المطبخ حاملة بين يديها صينية عليها طبق مليء ببعض أنواع من الفاكهة وهي تقول ظانة أن علاء ما زال موجودًا .

- ثواني يا حبيبي وسآتي لك بكوب القهوة المحوج الذي تحبه ، والدك هو من أخبرني بحبك للقهوة المحوجة فعشقتها.

تلفتت حواليها فلم تجده ، فتحت كل الحجرات وفتشت عنه ، عادت إلى الصالة وجلست مكانه تتساءل :

- يا ترى هو راح فين ؟

انتابها لحظة خوف بأنه فرّهاربًا بتنازلها ، لكنها اطمأنت عندما وجدت التنازل أمامها لكن الخوف لم يكن قد زال بعد وهي تقرأ ما كتبه علاء أسفل تنازلها :

- سامحيني يا أستاذة منيرة أنا لا أستحق كل هذا ، أرجوك لا تغتري فيّ أكثر من ذلك فأنا لست بالشخص المناسب الذي تتمنين أن تعيشي بقية حياتك في كنفه كزوجة له، فأنا شخص لا قيمة له في هذه الحياة ، أرجو قبول اعتذاري ، كما أرجو قبول استقالتي من عملي ، علاء الحسيني موظف بالدرجة الثالثة مرتبه بالكاد يكفي مواصلاته من وإلى المصلحة التي ترأسها سيادتك .

(٥)

مصر الجديدة

أمام دار سندس للمسنّين أوقفت جيهان سيارتها جانبًا ، ونزلت تسير على قدميها ، مرت من أمام باب الدار وتجاوزته بعدة أمتار ، وتوقفت أمام محل للفاكهة ، فحياها الفكهاني درواني صاحب المحل وقابلها بكل ترحاب وهو الآتي لها بكرسي يستحلفها بالجلوس عليه ، ابتسمت له جيهان وقالت :

- دا كتير أوي يا عم درواني ، تجيب الكرسي بنفسك !!
- وهو انتِ شوية يا ست جيهان .
- والله يا راجل يا طيب هتفضل طول عمرك شباب إنت زي ما انت مبتكبرش ، مع إن سنك عدّى الخمسة وستين .
- الحمد لله نعمة وفضل يا ست جيهان .
- الحمد لله يا راجل يا طيب ، قول لي ؛ أحوالك عاملة إيه ؟
- الحمد لله يا ست جيهان .
- في أية مشاكل أو أية عقبات تواجهك .

- لا يا ست جيهان هانم ، ما عدا عمال البلدية عاملين زي الكلاب ، عمالين ينهشوني نهش ، ف الرايحة والجاية يمدوا إيديهم هات هات يا درواني وإلا ...

- يا سلام ؟!!

- آه والله يا ست جيهان ، عيني عينك ، بيطلبوا بعين فاجرة ، ومفيش حد قادرهم .

- طب سيبلي الموضوع ده ، وديني لودّيهم في ستين داهية كلهم ، قولي تعرف أساميهم .

- ما بلاش يا ست جيهان .

- إزاي يا عم درواني هو احنا من إمتي بنتهدد .

أخرجت هاتفها من شنطتها وبحثت عن رقم بعينه ، وقالت لدرواني وهي تضع الهاتف على أذنها :

- طلباتي جاهزة يا عم درواني ؟

- جاهزة من بدري يا ست جيهان .

- آلو صباح الخير يا سيادة المحافظ .

ذهل درواني وتسمّر في مكانه وقال :

- سيادة المحافظ حتة واحدة يا خبر اسود .

وهرول بعد تلك الكلمات التي صدرت منه إلى داخل المحل .

أكملت جيهان :

- أيوه يا سيادة المحافظ ؛ أنا الإعلامية جيهان الخليل ، مقدمة برنامج «

دائرة الاغتصاب « .

- ....
- أهلًا سيادتك .
- ....
- الأمر لله وحده يا فندم .
- ....
- الموضوع إن عمال البلدية قارفين عمي درواني صاحب محل الفاكهة في الرايحة والجاية .
- ....
- عند ناصية دار سندس لرعاية المسنين ، ومش كده وبس يا فندم دول بيمدوا إيديهم لصاحب المحل وبيطلبوا منه رشوة علني عيني عينك ، ولو رفض بيهددوه بإغلاق محله بالضبة والمفتاح .
- ....
- أيوه والله يا فندم دا الراجل واقف قدامي وما بجبش كلام من عندي ، أنا بكلم سيادتك من أمام المحل مباشرة .
- ....
- ماشي يا فندم ... والله مصدقة سيادتك ... في رعاية الله ... مع السلامة .
- تعالى يا عم درواني .
- نعم يا ست جيهان .

- أهو أنا كلمتلك سيادة المحافظ بذات نفسه وأعلمته بكل شيء ، أرجوك بقى كفاية خوف من شوية موظفين ملهومش لازمة ، إحنا والله اللي بنعمل في نفسنا كده ، لو كل واحد مننا بيقولهم لأ وأعلى ما في خيلهم يركبوه ما كنوش حرامية ولا قعدوا على ظهرنا وقسموه .

- حاضر يا ست هانم ، من هنا ورايح ها قول للحرامي لأ بأعلى صوتي .

- وبكل جرأة يا عم درواني ، إش حال إن إنت صعيدي ، ولو حد هددك هتعمل إيه ؟

- هبلغ فيه الشرطة طوالي .

- شاطر يا عم درواني واوعدك لو المحافظ محلش مشكلتك في أسرع وقت وحاسب المقصرين ستكون ضيف حلقة من حلقاتي الأسبوعية ، وهخليك بنفسك تفضحهم على الهوا قدام كل المسئولين الكبار.

- صحيح يا ست جيهان !

- صحيح يا عم درواني ، المهم دلوقتي إنده ع العمال يسبقوني بالطلبات على الدار.

- حاضر يا ست جيهان هانم يا أصيلة يا بنت الأصلة ، ربنا يشفيلك الست الوالدة ويطولك في عمرها .

- تعيش يا عم درواني .

- يلا يا واد إنت وهو ، خرّجوا حاجة الهانم وودوها على الدار طوالي .

خرج أربع صبية من داخل المحل يحمل كل منهم قفصين من الفاكهة والخضار متوجهين إلى دار المسنين كما أمرهم درواني .

أخرجت جيهان رزمة من الأموال وأخذت تعدها ، وبعد انتهائها من العد قالت

لدرواني :

- حسابك كام يا عم درواني ؟
- خيرك سابق يا ست هانم .
- لا يا حبيبي اللي أوله شرط آخره نور، وديني لو ما أخذتش حساب الحاجة لكون مرجعاهم وأشوف غيرك واشتري منه .
- وأهون عليكي يا ست هانم .
- العشرة ما تهونش إلا على ولاد الحرام يا عم درواني .
- خلاص يا ست هانم نفس حساب المرة اللي فاتت .
- طب خد وزيادة شوية ، عد واتأكد لكون غلطت في الحساب .
- أعد وراكي برضه يا ست جيهان ، سيبيها على الله .
- ونعم بالله يا عم درواني ... ها ... تأمرني بشيء .
- في رعاية الله يا ست هانم يا أحلى إعلامية في الدنيا دي كلها .
- ربنا يخليك يا راجل يا طيب ، سلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

***

تركته جيهان متجهة إلى دار المسنين ، سلمت على رجل الأمن الجالس على البوابة الذي حيّاها وانحنى لها احترامًا وهو يضع ابتسامة عريضة على خديه ، كل من قابلها من العاملين في الدار وهي في طريقها إلى الداخل حيوها ، سلموا عليها وقابلوها بكل ترحاب ، احتضنتها سندس صاحبة الدار وقالت لها :

- زيارتك الأسبوعية لنا تسرنا كثيرًا وتسعدنا ، وإن كنت لا أنافقك لو قلت لك إننا نحسد الست الوالدة عليكِ ، يا ليت لنا أبناء مثلك يبرّونا مثلما

تبرين والدتك وتولينها كل هذه الرعاية .

- دي أمي يا مدام سندس هو في حدّ يتخلى عن أمه .
- في هذا الزمن العجيب كثيرون والله يا مدام جيهان .
- بس أنا بفضل من الله وإن شاء الله مش هكون واحدة منهم مهما حدث ، وأنت تعلمين لولا رأس والدتي الناشفة لما كانت هنا في هذا المكان الذي اختارته بإرادتها لتكون بينكم لكانت معززة مكرمة في بيتي .
- أعلم والله يا ست جيهان ، أقدر أسيب سيادتك دلوقتي كي تقابلينها وتجلسا وحدكما بدون إزعاج من أحد .
- ماشي يا مدام سندس .

واصلت جيهان تقدمها حتى وصلت إلى المكان الجالسة فيه والدتها لبيبة التي تخطي عمرها الثمانين عامًا بعامين ، جلست بجوارها بعد أن انحنت وقبلت يديها وخديها ، ولثمت جبينها بقبلة طويلة أفاقت لبيبة على إثرها من غفوتها التي تلحّ عليها بين الحين والآخر ، وذلك من أثر الدواء الذي تتناوله على فترات ثلاث كي لا تتدهور حالتها أكثر بسبب مرض الزهايمر الذي أصابها منذ فترة قاربت الخمس سنوات .

- إزيك يا ماما .
- مين .... أظن إن إنتي بنتي جيهان .
- صح يا ماما أنا جيهان بنتك .
- أمال فين إخواتك مجوش معاكي ليه ؟!
- يا ماما يا حبيبتي أنا وحيدتك وليس لي إخوة !
- إزاي !! معقول مخلفتش إلا أنتِ !!

- آه والله يا ست الكل !!

تلفتت لبيبة حولها ، وقالت لجيهان تسألها :

- أمال فين أولادك مجوش معاك ليه ؟
- يوه يا ماما برضه كل مرة تسأليني السؤال دا !
- في إيه يا بنتي هما ولادك جرى ليهم حاجة ؟
- أبدًا يا ماما أنا لم أنجب من أساسه ، زوجي العزيز حبيبي أثبتت التحاليل أنه غير قادر على الإنجاب .
- معلش يا بنتي ؛ لو نفسك تخلفي اطلقي منه واتجوزي من غيره .
- يا خبر اسود يا ماما؛ أطلّق ، عايزاني أطلّق من منصور !! دا انت هدّيتي الدنيا ووقفتيها على رِجل وعملتي المستحيل عشان تجوزهولي ، فاكرة لما بابا الله يرحمه كان رافض زواجي منه ، ثم يا ست أنا بحبه ومقدرش استغنى عنه ، والحمد لله رضيت باللي قسمه لي ربنا .
- ونعم بالله يا بنتي ، قوليلي يا بنتي ومتأخذنيش في السؤال اللي هسألهولك .
- لأ اسألي يا ست الكل .
- هو والدك لسه زعلان مني عشان كده مش عايز ييجي يزورني .
- يا ماما يا حبيبتي بابا مات من عشرين سنة الله يرحمه ويحسن إليه .
- مات ! أمّال مقليش ليه ، كان لازم يقولي عشان أروح أزوره واقرأ له الفاتحة على قبره .
- متشليش هم يا ست الكل ، أنا هقوم بالمهمة دي نيابة عنك .
- لأ يا بنتي أنا حاسة إن أجلي خلاص على وشك ، هودع قريب .

- متقوليش كده يا ست الكل ، إن شاء الله ربنا هيطول في عمرك كمان وكمان وتعدّي المائة سنة وزيادة كمان .

- يووه يا بنتي أنا بقولك خلاص ، عشان كده لو سمحت خذيني معاك أقرأ له الفاتحة على قبره يمكن يسامحني .

- يا ماما والله مسامحك ثم هو انتي عملتي فيه حاجة تزعله ، دا انتوا الاثنين كنتوا زي السمنة على العسل وعمري ما شفتكم زعلتوا بعض .

- معلش يا بنتي آهو برضه ، يلا نادي على اخواتك يساعدوك في زقّ الكرسي لجل نروح المقابر.

- حاضر... حاضر يا ماما والله مانا مزعلاكِ ، ولازم نروح المقابر دلوقتي حالًا .

على إثر هذه الرغبة التي ألحت على لبيبة اضطرت جيهان إلى قضاء هذا اليوم بجوارها في المقابر حتى انقضى اليوم ومرّ بسلام ، ولم تتركها إلا بعد أن طلبت منها إعادتها إلى دار الرعاية ، لتغادر بعدها وهي تتلقى الدعوات من العاملين في الدار بألّا تنقطع زيارتها الأسبوعية لهم مهما حدث لها .

(٦)

ساقت أسماء الدلال على زوجها عبده ، ولم تتركه في حاله إلا بعد رضوخه لطلبها بدعوة عسقلاني الليلة على العشاء ، وأن يمضي في طريقه إليه من الآن للجلوس معه حتى تنتهي من إعداد الطعام البادئة في تجهيزه ، كان الوقت عصرًا عندما استجاب عبده لمطلبها بعد تذكره للمواقف الكثيرة التي وقف فيها عسقلاني بجانبه ، خاصة المضايقات التي كانت تحدث لأسماء من بعض بائعي الخضار في السوق وهي تشتري ما يمليه عليه أصحاب الشقق في العمارة .

لم يكن عبده يدري أن إلحاح أسماء في دعوة عسقلاني للعشاء وراؤه فخّ أعدت وخططت له بعناية كي تصطاد به عسقلاني ، ألح عليها شيء ما بداخلها في تنفيذه وقد وضعته لينضج على نار الصبر التي لم تعد في وسعها احتمال غليانها أكثر من ذلك ، قالت لنفسها بعد وداع عبده لها : المرة الماضية فشلت خطتي في نيل مرادي منك يا عسقلاني لكن المرادي وحياة ولادك الغاليين عندك ما هتخرج من هنا إلا وأنا واخدة غرضي منك .

وفور رحيل عبده أخرجت شباكها من المياه الضحلة التي لم تكن في يوم من الأيام لتخرج مليئة بما تشتهيه الأنفس وتتلذذ به الأعين ، غسلت الشباك جيدًا من عطن الضحالة الراكدة فيها منذ سنوات طوال وعطرتها بعطر مفعم بالحب والغرام آملةً ، اجتذاب أكبر قدر من الحيوانات المائية نحوها عندما تلقي بشباكها في ذلك المحيط العفي المتجددة مياهه باستمرار والتي لا تنضب ، نظرًا

لما يتمتع به من حيوية وعنفوان الشباب .

إنها تعد العدة وتنتظر على أحر من الجمر مجيء الزائر لتريه قدرتها في سحب الأعداد الهائلة من الحيوانات المائية التي دخلت شباكها ، وهي غير متبرمة أو حزينة مما سيفعله بها ذلك المحيط العاتي المتلاطمة حتمًا أمواجه ، يعرف أنه ليس بالسهولة الخروج بصيدها منه وهي في أحسن حالاتها ، لكن رغم ذلك ستكون فرحة ومسرورة بما بذلته من جهد فردي في اصطياد ما علق بشباكها ، وإنه مهما كان سيكون صيدًا وفيرًا سيروي ظمأها الذي يبحث باستمرار عن مياه جارية فلا يجد، وإن هيامها لشخص عسقلاني جعلها لا تتردد في تنفيذ ما ألحت عليها رغبتها بكل قوة وعدم تفويت الفرصة في الاختلاء به ونيل مرادها منه ، خاصةً أن ناصرة ترقد في المستشفى لمدة قاربت على الأسبوع ، فقد خاب أملها في أن يكون لها ولد من عبده ، خاصة أنه يكبرها في السن ما يقارب الثلاثين عامًا ، أجبرته على ترك أولاده وزوجته في القرية وتزوجها رغمًا عنهم بعدما أوقعته في نفس الشباك المحكمة خيوطها ، والتي لم يكن ليستطيع الإفلات منها إلا بعقد زواج رسمي موقع عليه من اثنين من الشهود .

وفور نجاح مخططها بالزواج من عبده رأت الخوف في عين عبده وهو يقص عليها تهديد أولاده ووعيدهم له بقتله وقتلها إن صمم على تكملة باقي أيامه بجوارهم في النجع بعد جلبه العار والفضيحة لهم على حد قولهم ، فما كان منها إلا أن قالت له : أرض الله واسعة يا عبده ، يلا بينا نرحل ، وقد كان ، ورحلوا إلى حيث مكانها الجالسة فيه تعد الطعام لم تبرحه .

أحد عشر عامًا اضطرته فيها لأن يعمل بوابًا بعد اضطراره لذلك خوفًا من أن ينفذ أولاده الأربعة « حمدان – رشدان – خلاف – نصار» وعيدهم وتهديدهم له .

أحد عشر عامًا وما زالت أسماء على ذمته تلعن اليوم الذي أوحى لها عقلها الباطن بالإيقاع به ، وهي ظانه وقتها أنها بفوزها به زوجًا سينصلح حالها بعد انتشاله لها من دائرة الفقر التي كانت تحيط بها من كل جانب ، ألا وأنها هي الفقيرة المعدمة المقطوعة من شجرة والذي مات والدها وتركها هي ووالدتها بدون سند أو عائل أو ظهر ؛ اللهم إلا أقارب والدتها التي تناديهم إن رأت أحدهم في طريقها بـ : يا خالي ؛ لعل أحدهم ينظر إليها بعين الرأفة ويزوجها لولد من أولاده ، لكنها وجدتهم مشغولين بأمور أخرى أهمّ منها ومن تزويج أولادهم ، إنه الأخذ بالثأر الذي لا يترك عائلة من عائلات الجنوب في حالها ، وبسببه نلمس الخراب واقعًا ملموسًا نجده في كل مكان من حولنا أينما ذهبنا نجده طال الجميع ، لا يسلم منه أحد ، وكاذب من يقول أنا بعيد كل البعد عنه ، لدرجة أن الشمال والشرق والغرب أصابتهم لعنة ذلك الثأر الذي ضرب القوانين في مقتل ، جاعلًا منها حبرًا على ورق لا تنفذ فعليًّا على أرض الواقع ، وكل هذا بسبب أو خطإٍ ما في العدالة الغائبة التي تركت مقولة : « العين بالعين والسنّ بالسنّ والبادئ أظلم « هي السائدة والمسيطرة على المجتمع الذي أصبح الإنفلات والعصبيات هي من تسيطروتهيمن الآن على مجريات الأمور ، وويل كل الويل لمظلوم تمنى سير العدالة في مسارها الطبيعي بأخذ حقه ممن ظلمه ، فلن يجني إلا الحسرة وسكب دموع الندم على الثقة التي أولاها لتلك العدالة النائمة ، والتي أصبحت لا تقف في كثير من الأحيان إلا لمن لديه نفوذ ويمتلك من الأساليب والحيل القانونية التي تخرجه منتصرًا كخروج الشعرة من العجينة ، «واللي له ظهر ما ينضربش على بطنه «.

وتلك الكلمات إنما توضح لنا وتفهمنا السؤال الذي لم يجد كثيرين الإجابة عليه ، ألا وهو لمَ ومتى أصبح الأهالي في الجنوب لا ينتظرون العدالة لتأخذ لهم حقهم ، ويعمدون إلى أخذها بأنفسهم ؟ !

استدعت أسماء ماضيها وهي في أوج انشغالها بإعداد أشهى وألذّ الأطباق لشخص عسقلاني ، تتذكر كيف تم زواجها من عبده ، وتتذكر أيضًا كيف كانت نظرتها لمن حولها من صديقاتها المتزوجات قبلها في سن الرابعة عشر والخامسة عشر بمن هم في مثل أعمارهن من شباب القرية ، وما يعانينه من عذاب الوحدة بسبب ألم الفراق الذي حتم على أزواجهن الذهاب بعيدًا عنهن لاكتساب لقمة العيش التي تقتضي مثل هذا الهجران ، يا إما وغالبًا يكون إلى بلاد النفط ، وإما إلى العاصمة أو المدن الساحلية ، في أي مكان وإلي أي مكان يهاجرون ويتركونهن ما دامت توجد فرصة عمل لهم في ذلك المكان الذي هاجروا إليه مضطرين مرغمين ، وأيًّا كان نوع هذا العمل هم ونصيبهم ، يعملون ويعودون في إجازة لمدة شهر بعد قضاء العام أو العامين أو الثلاث أو العشر سنوات ، وكلما كان المرتب في ازدياد كلما كان نسيانهم للبلدة وزوجاتهم وأولادهم ، يضطرون للسعي وراء الثراء الذي لو جاء لأحدهم يومًا سيعوضهم عن كل الشقاء الذي يعزف سيمفونية الحزن المتلفحين به مع كل طلعة شمس يوم جديد، بسبب كل ذلك الألم والحزن الذي قرأته أسماء في وجوه صاحباتها بل وسمعته منهن ، من أن نيران الثأر أرحم آلاف المرات من نيران الهجر الذي يكتوون به كل يوم وليلة ، ولأجل هذا السبب اضطرت لرمي حبالها على عبده صاحب الأطيان المستريح البال ظانة بعدم هجرانه لها كأزواج صاحباتها ، سيعوضها حتمًا عن ذلك الحرمان الذي يعانينه وتراه واضحًا طالًّا من أعينهن أينما حلوا .

ولم يدم صبرها طويلًا عندما ألقت بشباكها منتظرةً سبع البرومبة ، أكل الطعم ليطعمها بيده من أشياء كثيرة ، ظنت أنها ستحرم منها لكن خاب رجاؤها بعدما مسحت غشاوة عينيها لتجد أن يده رغم وجوده بجانبها لا يتزحزح ولا يتحرك بعيدًا لا تستطيع أو ليست بالقادرة على إطعامها ، وها هي الآن تتمنى عودة السنوات الإحدى عشرة للخلف ؛ لتسحب بشباكها في حينها متذكرةً كلام

والدتها الخبيرة بما ستجنيه من نفس ذلك الحصاد المر التي تتجرعه صاحباتها كل يوم يمر عليهن وأزواجهم بعيدين عنهن : « لازم تعرفي يا بنتي أن جسدًا تدب فيه روح الحياة ، يزورك كل حين ومين ، وتنتظرين قدومه بفارغ الصبر أفضل من جسد مات وشبع موت تحت ناظريك في الرايحة والجاية ، هييه القصد يا بنتي منين ما تقولي أنا مش فاهمة حاجة من كل الكلام اللي أنا بقوله ، باختصار حطيها حلقة في ودنك يا بنتي ، عبده كخيال المآتة لا بيهش ولا بينش « .

تتذكر أسماء كلام والدتها هذا الذي كان بالنسبة لها لغزًا في حينه ، ومع مرور الأيام علمت أن والدتها كانت على حق في كل كلمة قالتها لها ، وأنها لم تكن رافضة لزواجها من عبده إنما لهذا السبب الذي ظلت إلى وقتها هذا تتعذب بنيران الحرمان وهو في أحضانها كل ليلة ، ليس باستطاعته إطفاء لهيب ذلك الحرمان ، وبسببه أيضًا إلى يومها هذا تنعى حظها ، وتقول لنفسها : ليتني مثل صديقاتي تزوجت من يقاربني في العمر ، فشهر بجواره كل عام أفضل من أحد عشر عامًا بجوار زوج ؛ خيال المآتة أفضل منه .

***

حيا عبده عسقلاني وأثنى عليه وعلى همته ونشاطه وهو يراه يغسل ملابسه وملابس أولاده وفي نفس الوقت يعدّ لهم بعضًا من الطعام الذي أتقن صنعه عامًا بعد الآخر لتعوّده على الطبخ بدلًا من زوجته في هذا التوقيت لظروف ولادتها ، فما كان منه إلا أن شمّر عن ساعديه وبكل همة ونشاط أخذ في مساعدته ، وعسقلاني يثنيه عن فعل ذلك ، وظلا ينظران للأولاد الصغار وهم يأكلون بكل نهم مما أعده لهم والدهم ، لدرجة أن عبده تناسى تمامًا أمر الوليمة التي دبرت أسماء لإعدادها ، ولم يُذكره إلا شكوى عسقلاني نفسه بأنه فقد شهيته

للطعام النازل إلى جوفه غصبًا عنه نظرًا لرداءته ، متعللًا بأنه لا ولن يجيد طهي الطعام بنفس مهارة وشطارة ناصرة ، فابتسم عبده وراح في نوبة من الضحك ، فسأله عسقلاني على ما يضحكه ، فأخبره عبده أنه أتى خصيصًا بخصوص هذا الأمر الذي يشتكي له منه ألا وهو الطعام فبادره عسقلاني بتعجب :

- وضح لي أكثر وكفّ عن الضحك وحياة أبوك يا عم عبده !

فقال له عبده :

- يلا قوم معايا لتتناول بعضًا من الطعام الذي حرمت من تناوله خلال أسبوع مضى ،

فقال له عسقلاني يسأله :

- وما المناسبة ؟ !
- المناسبة ... المناسبة ...

احتار عبده قليلًا وهو يبحث عن إجابة مقنعة غير التي أتعبت رأسه من أن أسماء هي من صممت على أن تعزمه ، فلم يجد غير قول أنه يتمني ردّ بعض من جمايله الكثيرة ، وأنه لم يجد غير هذه العشوة التي تأخرت لبعض الوقت ليردّ له بعضًا من هذه الجمايل التي لن يستطيع مهما طال به من عمر أن يرد جميلًا واحدًا منها .

بادره عسقلاني على الفور أنه لن يستطيع الذهاب معه لعدة أسباب ، منها أنه مجهد ولن يترك الأطفال بمفردهم ، وأيضًا لن يستطيع ترك مكان عمله في هذا الوقت ، ولسبب مقنع وأخير أنه تناول الطعام أمامه للتوّمع أطفاله وأمام عينيه ، فترجّاه عبده وأكد عليه أنها ساعة زمن واحدة فقط وبعدها سيعود ،

وأن السبب الوحيد والأساسي الذي لن يجعله يذهب معه ويتحجج بهم قاصدًا أطفاله الصغار، أشار بيده ناحيتهم وقال له : أولادك بدءوا في النعاس وأنه خلال دقائق وبمجرد انتهائهما معًا من تنظيف مكانهم من بقايا الطعام سيكونون في سابع نومة ، وهو ما حدث بالفعل .

وتحت إلحاحه اضطر عسقلاني للامتثال لدعوته ، تاركًا الأولاد نائمين وحدهم ، وذهب برفقته بعد أن أخذ الإذن من جيهان التي كانت عائدة لتوّها من الخارج ، والتي لم تمانع أيضًا في ذهابه بعد إعلامه أنها لا تريد منه أي طلبات بإمكانه تأديتها لها .

سار عسقلاني بجانب عبده مترددًا في مشيته ، يتأخر عنه بخطوات في أحايين كثيرة ، يود التعلل بأي سبب من الأسباب ويعود أدراجه كي لا ترى عيناه وجه الخائنة أسماء التي لم تحفظ شرف عبده في غيابه ، لكن تصميم عبده القابض على يده يكاد يجرّه خلفه كالأطفال الصغار هو ما جعله يكمل طريقه .

- « الهمة شوية يا بلدياتي يا اللي جمايلك مغرقاني من ساسي لراسي « لدرجة أن تغاضى عبده عن معاتبة أسماء عندما دخلا عليها وهي في أبهى زينتها ، مرتدية فستانصا يبرز مفاتنها وواضعة ألوانًا عدة على خديها وشفتيها ورموش عينيها ، فبدت كالبدر المنور في ليلة اكتماله .

ولم يعلق عبده على ما رآه منها وهو يمسح إحراجه بكمّ جلبابه غير قوله لها : « والله فكرتيني بليلة جوازنا يا أسماء ، كنتِ وقتها تمام البدر المنور» .

ردت عليه - تقصد بكلامها إثارة انتباه عسقلاني الواضع ناظريه أرضًا منذ دخوله - : «ودلوقتي إيه رأيك يا عبده معجبش» .

ردّ عليها عبده إنتي زي ما انتي تعجبيني وتعجبي ال ... « تحشرج ما كان يود قوله بحنجرته فأطبق عليه فمه معيدًا صياغته : « يلا شوفي لك همة يا أسماء هاتي الوكل ؛ عسقلاني جاي معاي بالغصب ، لدرجة أنه فرح أيما فرح ، فرحٌ لم يعهده من قبل لإحساسه أن الليلة ليلته ، وأن ما أقدمت عليه أسماء وتجرأت على فعله إنما لتزيده تجرّؤًا كي يقضي معها ليلة ستكون من أحلى الليالي التي لم يعهدها من قبل ، وبالتحديد مثل الليالي القليلة التي قضاها معها في أول زواجه بها .

ورغم كهولته الواضحة والظاهرة في تجاعيد وجهه وانحناءة ظهره ، والبادية كذلك بوضوح في ابيضاض شعر رأسه وبروز عظام وجنتيه ، إلا أن نصفه السفلي كان يلحّ عليه في فعل شيء في ليلته هذه لم يفعله إلا في شبابه الذي ولّى من زمان مع زوجته الأولى أم أولاده الأربعة .

وُضع الطعام ، ورغم ما أتت به أسماء من إيحاءات جنسية إلا أن عسقلاني تناسى أمرها ، وأخذ يأكل بنهم كأنه لم يأكل من قبل ، لدرجة أن عبده نبهه لهذا الأمر فتجاهله عسقلاني ، وعلق على قوله بأنه هو من عزمه ، وإن كان يضجر من طريقة التهامه للطعام بهذه الطريقة فسيرحل من توّه ، وعليه فقط قول له ذلك ، فلم يعلق عبده وبدء مجاراته في التهام الطعام مثله حتى التهم الاثنان ما وضع أمامهما من طعام ، وأسماء تتلصص عليهما ، وهي معجبة أشد الإعجاب بطريقة تناول عسقلاني للطعام ، لدرجة تمنيها وجودها بين يديه في هذه اللحظة ؛ ليفعل بها مثلما يفعل بالطعام يلتهمها التهامًا ، لكنها صبرت نفسها بأنها دقائق قليلة ستمر وستنال ما رسمت وخططت له .

ناداها عبده وأمرها برفع الأطباق الخاوية من أمامهما ، وأثناء ذلك صدر من فمها جملة قصيرة بادرت هي بقولها قبل زوجها الذي كان يرغب في قول ذلك

لعسقلاني :

- شايك إيه يا عسقلاني ؟

فرد عليها عسقلاني :

- زي عم عبده تمامًا .

فعلق عبده يقول :

- بس أنا شاي خفيف ، وأنا أعهدك منذ زمن تشربه تقيل حبر.

فقال له عسقلاني وهو يبتسم :

- وهو كذلك يا عم عبده ، شاي تجيل حبر ، والله ما انا كسفك .

وضعت أسماء براد الشاي على النار الهائجة مثلها ، وبدأت تحدث تلك النار بغلي الماء بكل ما أوتيت من سرعة حتى تستريح من لهيب النيران المشتعلة بجسدها منذ فترة طويلة ولا يستطع عبده إطفاءها .

من ناحية أخرى تمنى عبده انتهاءها سريعًا من إعداد الشاي الذي سيشربه ضيفه ، والذي أصبح غير مرغوب بوجوده ؛ لكي يودعه تحت دعوى وتعلل أنه يذكره بأولاده النائمين وحدهم في حجرة معيشته دونه ودون زوجته ؛ ليختلي بأسماء التي أوحشته كثيرًا ويود تعويضها عن ليالي الجفاء التي بعد عنها فيها دون إرادته بل بسبب كهولته وشيخوخته .

ومن ناحية عسقلاني حمد الله أن زيارته لعبده على وشك الانتهاء ، ولم يبق إلا كوب الشاي سيضطر لارتشافه على مرتين أو ثلاث رغم شدة سخونته ليرحل بعدها ، وقال ذلك صراحة لعبده الذي ضم رأيه لرأيه :

براد الشاي على النار ماؤه على وشك الفوران ، وأسماء واقفة أمامه تنظر له مرة وتنظر مرة أخرى للأطباق الفارغة أمامها ، تود لو بقي لها بعض من الطعام الشهي الذي أعدته لهذه الليلة حتى تستطيع مجاراة عسقلاني في قوته وقت استجابته لها في إشباع رغبتها كما تتمنى ، لكنها قالت لنفسها - وهي تصبّ الماء المغلي في الكوب أمامها - :

- أمر الطعام يدبّر أما الأمر الثاني فلم يعد في مقدوري الصبر عليه بعد الليلة .

أعادت البراد على وهج النار ثانية ، ومزجته بالشاي كي يغلي ويصبح ثقيلًا حبرًا كما يريد عسقلاني ، وقالت لنفسها : وحياتك يا عسقلاني لن تمرّ الليلة بسلام إن لم تنفذ لي رغبتي .

مرت الدقائق القليلة التي ينتظرها ثلاثتهم بفارغ الصبر، وضعت أسماء كوبي الشاي أمام عبده وعسقلاني ، وتنقلت بنظرها بين الاثنين تشاهدهما وهما يتجرعانه بطريقة أنفسهما لم تعهدها عليهما من قبل .

وقفت أمامهما حائرة ومتعجبة من طريقة شربهما هذه لكنها فرحة في ذات الوقت لأن فرصتها على وشك اقتناصها من فم أسدٍ متمرد لا يفكر في الانصياع لرغباتها ، فبمجرد أن وضع عبده كوبه الخالي أمامه حتى أحس بالنعاس يسيطر بشدة على رأسه وحالات من التتويب بدأت تزور فمه ، فما كان منه إلا أن قال لعسقلاني :

- شربت الشاي يا عسقلاني يلا قوم روح عشان تتطمن على أولادك .

وأكمل يقول - والضجر واضح وضوح الشمس على وجهه - :

- شكل الليلادي باظت .

وقام من فوره يشقّ طريقه الذي أصبح وعرًا من شدة الإلحاح الشديد من النوم الهاجم على جفونه بكل قوة ، وهو يقول جملته الأخيرة قبل وقوعه أرضًا :

- ابقي اقفلي الباب وراه يا أسماء .

أصابت عسقلاني حالة من الهلع والخوف وهو يري عبده يسقط أرضًا أمامه ومال عليه يسنده وهو يقول له :

- ما لك يا عم عبده !!

طمأنته أسماء عليه بقولها :

- لا تخاف عليه هكذا ، فهو لم يحدث له مكروه كما تظن ، إنما النوم أصابه فقط ولن يفيق إلا في منصف نهار الغد .

فتركه عسقلاني وأمسك أسماء من رقبتها وهو يقول لها :

- وانت إش عرفك يا بنت ال.....

أخبرته وهي تاركة نفسها يفعل بها ما يريد :

- وضعت له قرصين منوم في شايه يا حبيبي حتى يخلولنا الجو وتفعل بي ما يحلو لك .

صفعها عسقلاني على خدها بكل قوته وقال لها :

- آه يا بنت الكلب .

ردت عليه :

- بنت ستين كلب وحياتك بس أرجوك اروي ظمأي يا حبيبي .

رد عليها :

- حبّك بُرص ؛ أنت لا يلزمك إلا سكين كي اجطعك جطيع .

فأجابته :

- قلت لك افعل بي ما يحلولك وكما تشاء .

ووضعت يديها الاثنتين على فستانها ونزعته من أعلى كتفيها لتكون أمامه عارية كما ولدتها أمها ، وأعادت على مسامعه وهو لا يدري ماذا يفعل أمام ما تراه عيناه .

- قلت لك افعل بي ما تشاء ولا تخف دي فرصة ولن تتكرر مرة أخرى ، أرجوك

انكبت على قدميه تقبلهما وهي تكمل :

- أتوسل إليك حس بعذابي مرة واحدة .

(٧)

نهض الحسيني وعزيزة في نفس توقيت ميعادهما اليومي ، وكما هو المعتاد صلّيا الصبح ومارسا طقوسهما المعتادة بالدعاء لعلاء ، بعدها بدّل الحسيني ملابسه بملابس الخروج ، وأعدت عزيزة طعام الفطور ، وجلسا سويًّا يتناولان الطعام ، وكل منهما يسأل الآخر عن ابنهما الوحيد علاء ، هل ما زال نائمًا أم أنه نهض مبكرًا ليتخذ طريقه إلى عمله سيرًا على الأقدام كما فعل بالأمس ؟

كان الوقت مناسبًا للحسيني لإعلام عزيزة بأمر ما حدث من علاء بالأمس من إنقاذه لشاب ألقى بنفسه في النيل ، وأن هذا الشاب كان يريد الانتحار ليأسه من حياته التي لم يعد لها طعمًا ولا لونًا ، ضربت عزيزة يدها بصدرها وقالت بعفوية :

- يا ساتر استر يا رب ؛ إنت بتتكلم جد يا حسيني .
- والله هو دا اللي حصل يا عزيزة وإن كنتِ مش مصدقاني اسألي ابنك لما ييجي إن كان خرج أو ادخلي اسأليه إن كان ما يزال نائمًا.
- يا خرابي يا ابني كل دا يحصل امبارح وأنا مش دريانة بحاجة ، أنا بعتب عليك يا حسيني مش كان برضه تقولي على حاجة زي دي أول ما جيت من الشغل ، وأنا باقول هو علاء جه بدري امبارح ليه ، يا عين أمك يا ابني

دا أنت مفتحتش باب أوضتك من ساعتها ، عن إذنك يا حسيني لما اروح اطمئن عليه ، دا الغالي اللي طلعت بيه من الدنيا ، يا رب استريا رب .

ذهبت عزيزة عند باب الحجرة وخبطته خبطات متوالية بيدها ، فلم تسمع ردًّا ، حاولت فتحه لكن الباب كان مغلقًا من الداخل ، فعلمت حينها أن علاء ما يزال بالداخل ، فنادت عليه بصوت رقيق مليء بالحنان :

- اصحى يا حبيبي عشان تفطر وتروح لعملك ، يلا يا ابني والدك بانتظارك، واستدارت عائدة إلى مكانها .

من وراء باب الحجرة كان علاء منصتًا لحديث والديه الدائر عن شخصه ، فلم يشأ الخروج لإعلامهما بأمر استقالته التي قدمها لمديرته بالأمس ، أو بعرض الزواج المغري الذي عرضته عليه ، والذي كان سينقله نقلةً كبيرة من عالمه المدفون بداخله ولا يستطيع من خلاله تحقيق أي شيء ، إلى عالم آخر مسمى بعالم المال والجاه والأبهة والتطلع إلى المستقبل بوجه مشرق ، إنه يخاف ازعاجهما بأمره أكثر من ذلك ، فمن وجهة نظره ليس عليهم مقاسمته همومه ، وهو من كان من المفترض أن يكون مستقلًّا عنهما الآن ، بل إنه من المفترض ولزامًا عليه بعد تخرجه مشاركتهما همومهما وأن يعمل على إسعادهما ، لذلك فضل عدم الخروج والنظر في وجهيهما وهما جالسان معًا في آن واحد .

انتظر حتى سمع صوت باب الشقة يفتح ويخرج منه والده الذي ألقى على والدته تحية المغادرة بصوت مسموع له جيدًا ، وكأن والده يقول له : أرجوك يا علاء يا ابني لا تتأخر عن عملك أكثر من اللازم لتتقي شرّ منيرة ، وما أدراك ما منيرة .

انتظر دقائق بدل فيها ملابسه ، وخرج ليودع والدته بعد أن انحنى على يديها وقبلهما ، خرج ولم يكن في نيته الذهاب إلى عمله الذي استقال منه بالأمس بل

إنه خرج ليبحث عن عمل آخر غيره ، صمم على فعل ذلك وأخذ عهدًا بعدم العودة إلا وقد استلم عمله الجديد .

***

ظن الحسيني وهو يدلف إلى مقرّ العمل أنه أول من أتى من بين زملائه كما تعوّد ، تقدم بخطواته يبحث ويفتش في كل أرجاء المكان عمن فعلها من زملائه وسبقه ، فلم يجد كعادته ، لكن ما أثار انتباهه وأزعجه بشدة وجود باب مكتب منيرة مفتوحًا على مصراعيه ، فوضع يده على قلبه ، وأخذ يردد : « جيب العواقب سليمة يا رب « ، فقد أتاه إحساس بأن اللصوص فتحوا الحجرة ليلًا وسرقوا محتوياتها ، وكاد الخوف يقتلع ضلوعه من صدره وهو يتقدم ناحية المكتب ، لكنه حمد الله وتنفس الصعداء عندما وجد منيرة جالسةً خلف مكتبها تراجع بعض الأوراق أمامها ، فألقى عليها تحية الصباح ، وما إن سمعت منيرة صوته حتى تركت ما بيدها ، وقامت تهرول ناحيته وهي تحييه ، لدرجة أنها لم تعطه فرصة للتحدث .

كانت كثيرة الكلام ، ولأول مرة يعهدها هكذا في كل تصرفاتها ؛ التي كانت توضح أنها مشتتة لم تذق عيناها طعم النوم ، فبدت أمامه وكأنها طفلة صغيرة مصممة البحث عن لعبها الضائعة منها ، رآها تائهة زائغة البصر في كل مكان تتجول فيه بناظريها أمامه ، أطلت برأسها خلفه لآخر الطرقة لعلها تجد علاء قادمًا وراءه ، ولما طال شرود عينيها تلفت الحسيني هو الآخر خلفه ، ولما وجد الطرقة خالية من أي كائن حي سألها في استغراب :

- هو في حاجة يا سيادة المديرة ؟!

فسألته بدورها :

- أمّال علاء فين يا عم الحسيني ، أقصد لماذا تأخر ؟ أخشى أن تتكرر أحداث الأمس معه .

- ربنا يجيب العواقب سليمة يا سيادة المديرة ، وعلى العموم إن شاء الله سيكون هنا خلال دقائق .

- إنت متأكد أنه جاي يا حسيني .

تعجب الحسيني من جملتها الأخيرة هذه ، وسألها وهو في حيرة أكثر :

- ليه هو في حاجة حصلت تجعله لا يأتي ؟ !

تأكدت منيرة من سؤال الحسيني لها أن علاء لم يخبر أسرته بعد بقرار استقالته التي وضعها في أسفل تنازلها له عن كل أملاكها ، فغيرت من نبرة صوتها القوية إلى أضعف مستوى ، وقالت وهي منكسة الرأس :

- علاء قدم استقالته بالأمس يا حسيني .

صدم الحسيني من قولها ، وقال وهو يهز رأسه بالنفي :

- لا مش معقول علاء يفعل هذا !.

وبدأ ينفي قولها وهو غير مصدق .

- بس لو فعل ذلك لكنت أنا أول الناس من يعلم .

فقالت له بانفعال :

- أتكذبني يا حسيني ، بقولك قدم استقالته بالأمس ، وإن كنت لا تصدقني أدخل أجيبلك الاستقالة .

- لا سمح الله يا سيادة المديرة ، مصدقك والله .

وراح في صمت طويل قطعته منيرة بعدما رأت الموظفين حولها يهلّون واحدًا تلو الآخر، وراحت تقول له :

- طب لو سمحت يا حسيني ممكن لو ما فيهاش تطفل مني ، ممكن أذهب لزيارة علاء في المنزل لعل وعسى أحاول إقناعه بالعدول عن هذه الاستقالة .

- البيت بيتك يا ست منيرة ، تأتي كما تشائين وفي أي وقت ستجديني وأهل بيتي مرحبين بكِ ، دا انت خيرك مغرقنا من ساسنا لراسنا .

- تعيش يا حسيني وهو دا كان عشمي برضه .

***

لم تطق منيرة صبرًا حتى انتهاء ساعات العمل ، وكما ادعت بالأمس رحلت وتركت مقر العمل بدون رئيس يتابع حركة العمل والعاملين به ، وبعد مرور ما يقارب الساعتين كانت خلالهما في عصبية زائدة عن الحدّ الذي يعهده موظفوها عليها بسبب زحمة الطريق المتكدس باستمرار بأنواع وماركات السيارات المختلفة .

اتخذت وجهتها حيث مسكن علاء ، وبصعوبة بالغة ركنت سيارتها حيث لم تجد مكانًا خاليًا إلا أمام ورشة مصطفى المرحب بها أيما ترحيب ، وهو الظانّ في بادئ الأمر أنها آتية له خصيصًا لتصليح عطل مفاجئ ألمّ بسيارتها فاستبشر خيرًا ، وانتفخت أوداجه وهو يقول بعلوّ صوته :

- يا مسهل يا رب ، والله يا رب أعلم أنك لن تخذلني .

وذلك ليسمع من حوله من أصحاب الورش جيرانه دائمي العمل لكثرة زبائنهم ، الذين لا ينقطعون عنهم لأي سبب كان ما دام هذا السبب بعيدًا كل البعد

عن سرقة محتويات سياراتهم ، لدرجة أن منيرة احتارت في كرمه الزائد وكأنما يعرفها من قبل وهي لأول مرة في حياتها تراه ، فسألته بتعجب إن كان يعرفها ، فبادرها مصطفى بدون شك أنه لأول مرة في حياته يراها ، فبادرته هي الأخرى قبل أن يزيد في خفة دمه المصطنعة : « قل لي لو سمحت يا أسطى مصطفى « بعد رفعها رأسها لأعلى وقراءتها يافطة ورشته المكتوب عليها اسمه بالبنط العريض « مصطفى البرنس لصيانة السيارات» :

- هو فين منزل علاء الحسيني ؟

امتقع وجه مصطفى وتغير لونه قليلًا عندما سمعها تسأل عن منزل علاء، وأنها ليست آتية كما كان يظن لصيانة سيارتها ، لكنه عاد لطبيعته وهدأت نفسه عندما تفحص منيرة ، وتأكد من صدق ظنه عندما سار بجوارها ليوصلها إلى مبتغاها ، واعترافها له بأنها مديرة علاء في العمل وأنها آتية للاطمئنان عليه ، تقدم مصطفى أمامها وداس على جرس باب شقة علاء لينزاح الباب رويدًا ، لتظهر من خلفه عزيزة التي رحبت بمصطفى وأمرته بالدخول ، وهي تريد أن تسأله من هذه السيدة الواقفة وراءه ، ولم تطل حيرتها عندما علمت من منيرة أنها مديرة علاء في العمل لتفتح الباب على مصراعيه وتدخلها وهي قابضة على يدها ، وكلمات الترحيب والإطراء لها منها تزداد كلما تقدمت خطوة للأمام .

ظل مصطفى واقفًا أمام الباب ينتظر السماح له بالدخول بعد نسيان عزيزة لشخصه ، فآثر الانصراف وهو يلعن الحظّ والظروف التي لم ترمِ في طريقه امرأة مثل منيرة ، وضع قدمه على أول سلمة فسمع صوت عزيزة تناديه ، فعاد يلبي النداء بدون أي تبرم بل فرحًا ، لعلها تقول له تفضل يا ابني أرح قدميك من طلوع السلم ، لكن عزيزة سألته إن كان يعرف المكان المتواجد فيه علاء بعد علمها من منيرة أنه لم يأت إلى العمل اليوم ، لكن مصطفى أجابها وهو يهزّ رأسه

نافيًا عدم معرفته وأين يجده أيضًا ، فقالت له :

- خلاص يا ابني يا مصطفى مع السلامة انت بقى ، بس والنبي يا ابني بحلّفك إن عثرت في علاء وانت في طريقك ، أبلغه أن مديرته في العمل تنتظره على أحرّمن الجمر.

فقال لها وهو يهز رأسه مرة أخرى :

- حاضر يا نينة .

ووضع قدمه على أول سلّمة مرةً أخرى للنزول ، لكنه سمع صوتًا ينادي باسمه مرة أخرى ، لكنه ليس بصوت عزيزة بل صوت منيرة هذه المرة والتي قالت له :

- استنى يا أسطى مصطفى أنا نازلة معاك .

أرادت عزيزة ألّا تجعلها تذهب هكذا بدون شرب أي مشروب ، لكن منيرة الحاقدة عليها بسبب احتفاظها بجمالها ورونقها وأناقتها رغم تقدمها في السن ، وإحساسها بأنها أكبر منها من خلال تجاعيد وجهها واضحة المعالم ، هو ما جعلها تقرر الرحيل ، بعد علمها بعدم وجود علاء ، أكدت عليها فقط وهي تودعها بأنها ستضطر آسفة للعودة مرة أخرى للسؤال والاطمئنان عليه في وقت لاحق من اليوم ، وذهبت برفقة مصطفى الذي أوصلها إلى سيارتها وهو يتمنى لها السلامة .

وفور توديع مصطفى لها تذكرت الطريق المزدحم عن آخره بالسيارات ، ففضلت عدم الذهاب بعيدًا ، متعمدةً ركن سيارتها بأقرب مكان تتمنى من خلاله رؤية علاء وهو هالل بطلته البهية عليها قاصدًا مسكنه .

وظلت ماكثة داخل السيارة تُمَنِّي نفسها رؤية علاء ، فتكون أول مستقبليه ، لتؤكد له أنها لن تتركه في حاله إلا بعد إقناعه بالزواج منها ؛ لأن اختبار الأمس

الذي وضَعَتْه فيه أكّد لها أنه ليس بالنوعية من البشر الكثيرين الذين خطبوا ودّها ، الذين لم يكونوا إلا من الطامعين في ثروتها والذين يتمنون نيل رضاها للظفر بهذه الثروة ، سواء أثناء حياتها أو بعد رحيلها عن الحياة التي أصبحت أيامها معدودة بالنسبة لها ولهم ، وفي الغالب هؤلاء هم إخوتها وأولادهم ، ومن يعلمون بمدى ثرائها ، ويتمنون نيل رضاها بزواجها من أحدهم من الأقارب والمعارف والجيران بل والعاملين تحت رئاستها، لذلك فهي تسعى وتعمل بكل جدّ لأن تكون هذه الأيام الباقية من حياتها التي يعدونها عليها ويتمنون بالدعاء رحيلها.

وسواء قصرت أم طالت تلك الأيام، فقد قررت منيرة لأن تكون أسعد وأحلى الأيام ، عن طريق صرف ثروتها تلك كما تشاء أو بوضعها في يد شخص أمين يقدّرها بعد مماتها بالترحم عليها وزيارة قبرها من حين لآخر، لا أن يكون طامعًا في ثروتها ويتذرع بأن يكون في الجوار من أجل تلك الثروة .

وتحت وطأة كل هذا وما عانته طول حياتها من هؤلاء الطامعين فيها ، لم تجد غير علاء ليكون الشخص المناسب للقيام بهذه المهمة بعدما رأت فيه حسن الأخلاق والرجولة والشهامة والصدق ... إلخ من الأوصاف الكريمة التي قلما تتوفر في شخص مثله ، فقد رأت فيه شبابها الذي ضاع هدرًا بسبب اهتمامها بعملها أكثر من اللازم ، وإهمالها لنفسها وتركيزها على جمع أكبر قدر من المال الذي من خلاله حققت حلم الثراء الذي كان يعني لها الشقة والسيارة ورصيدًا لا بأس به من الأموال في البنوك ، هذا غير أنها لم يكن يعنيها الظهور في المناسبات المجتمعية ، كما كان يفعل من هم في سنها من الفتيات من أجل الزواج والارتباط وخلفة الأولاد من بنين وبنات ، ولم تنتبه لكل ذلك إلا بعد مضي العمر وهو يوشك على نهايته .

انتصف النهار وتعامدت شمسه بقيظها وشدة حرارتها على ورشة مصطفى الذي ملّ من طول الانتظار، يصبر نفسه وهو يعدّ الدقائق دقيقة تلو الأخرى تمرّ أمام عينه ، بأن أحد الزبائن سيحن عليه ويأتي له بسيارته ويطلب منه عمل اللازم لها من صيانة ، وهو بدوره سيقسم له بصدق أنه سيسلمه السيارة دون فقد أي شيء من كمالياتها ، فهذا أهون عليه من مهنة سرقة المنازل التي بدأت تتوغل وتسري في دمه ، وكأنها وباء كالسرطان لن يجد له دواء يشفيه منها بعد ذلك .

وعندما أحس أن انتظاره لن يجني من ورائه سوى جلوسه على الكرسي يغلي كغلي الشمس من فوق رأسه ، وهو يرى الزبائن بسياراتهم يذهبون بها إلى الورش المجاورة ، أغلق الورشة وأمر الصبية بالذهاب دون العودة إلا صباحًا ؛ لأنه قرر إعطاءهم بقية اليوم إجازة ، وهو في طريقه إلى منزله قابل إبراهيم زوج أخته سامية ، فطيب خاطره وتأسف له عما بدر من سامية تجاهه ، ونبه عليه بل وترجّاه أن تكون المرة المقبلة التي يتعارك فيها مع أخته عليه هو بأخذ مبادرة شجّ رأسها قبل أن تفعل هي ذلك به ، فكادت الدموع تهم بالنزول من عيني إبراهيم وهو يحاول استعادة ما حدث ، وهو يبوح به لمصطفى ؛ الذي ربت على كتفه وقال له:

- الكلام لن يفيد يا إبراهيم ، ما حدث قد حدث ، احرص فقط على ما أوصيتك به ، والآن تعال معي لتصالحك زوجتك وتحب على رأسك كمان ، ودا بس عشان خاطر أولادك اللي لولاهم لما طلبت منك مصالحتها ، بل كنت طلبت منك أن تطلقها على الفور .

وصل الاثنان ، وفتحت لهما كريمة والدة مصطفى : التي لم تهتم لأمر إبراهيم ولا بوجوده ، فهو شخص غير مرغوب فيه بسبب ضعف شخصيته أمام ابنتها التي تزداد جبروتًا يومًا عن الآخر، وبدورها أوصته كما أوصاها به ابنها مصطفى ، بعدما أمرها مصطفى بالترحيب به والسماح له بالدخول .

وعند السابعة مساء تم الصلح بين الزوجين إبراهيم وسامية التي عادت مرغمة تحت ضغط وتهديد ووعيد من مصطفى لها ، يحذرها إن أقدمت على فعل ما فعلته بزوجها ستعاقب أشد العقاب منه شخصيًّا ، ونظر لهما وهما يقفان أمام بعضهما يتعاتبان ليضحك ضحكة ليست صادرة إلا من القلب في تلك المواقف ، وهو يقارن بين الفارق الجسماني بينهما ، والذي لم يلحظه إلا خلال عتابهما هذا ، والواضح على جسد سامية الممتلئة الهرمة اليافعة ذات الحيوية والصحة الظاهرة على هيئتها ، وعلى النقيض تمامًا إبراهيم النحيف المشبه بالعصاة المتعاصة لحمًا كما يصفه أهل الحي .

ودّعتهم الأم وودعهم أيضًا مصطفى الذي أصرّعلى مرافقتهم حتى باب شقتهم ، وعندما انتهى من أمرهما أخرج زفيرًا ، وحمد الله بأن الجوّ أصبح مهيّئًا للذهاب برفقة والدته كريمة لخطبة شربات ابنة معلمه عبدالرؤوف ، خصوصًا أنه الآن معه مبلغ لا بأس به من المال من خلال عمليات السطو القليلة التي قام بها ، والتي لم يخرج من إحداها خالي الوفاض ، وظن أن الحظ يبتسم له عندما اصطدم بشربات بعدما خرج من باب العمارة الموجودة بها مسكن زوج أخته ، فقد كانت شربات في طريق عودتها بعد شرائها احتياجات المنزل من محل البقالة الذي لا يبعد كثيرًا عن مسكن أخته سامية ، فأراد إبداء أسفه لما بدر منه ، وهو القاصد من ذلك تحدثه معها ، ولو كلمات قلائل يكون مقصدهم : إزيك وحشتيني ، عاملة إيه ، بتفكري فيّا زي ما بفكر فيكِ . لكن عبدالرؤوف الواقف

في البلكونة منتظرًا قدومها وهي من تأخرت كثيرًا عن مجيئها على حد تبريره لزوجته ظانًّا أن مكروهًا حدث لها ، هدده بإشارات الوعيد من يده قائلًا له :

- إياك يا مصطفى ، وأنت تفهمني جيدًا .

فزاد مصطفى وقال له :

- يا عمي والله أنا قصدي شريف ، ونفسي ...

قطع عبدالرؤوف كلامه وقال له :

- يا جدع انت مبتفهمش !! أنا بقولك قدام الناس كلها أنا معنديش بنات للجوازيا ريت تفهم بقى ، دا لو حمار كان فهمها وهي طايرة !!

وأعطى له ظهره ينادي على شربات التي كانت قد اقتربت من مدخل السكن يشوح لها بيده :

- اطلعي يا بنتي على فوق لما أشوف الحيوان دا عايز إيه .

وجد مصطفى الناس ملتفين حوله ، أنظارهم متعلقة بشخص عبدالرؤوف في الأعلى وهو ينهره تارة ويتوعده تارة إن اقترب من شربات مرة أخرى ، فقال له :

- خلاص يا أسطى والله أنا آسف ، ولو فاتحتك في الموضوع دا مرة أخرى ما عليك إلا أن تخلع مداسك وتضربني بيه على رأسي كما كنت تفعل بي وأنا صبي صغير أعمل في ورشتك .

وتركه في حالة انفعاله الواضحة على قسمات وجهه يشق طريقه إلى القهوة ؛ فإنها المكان الذي يحتضنه حتى الفجر موعد بدء عمليات السطو الحريص على تنفيذها يوميًّا .

خطوات لم تكن بالبعيدة خطاها حتى اصطدم مرةً أخرى بجسد امرأة خطت هي الأخرى خطوات قليلة حتى كانت بالقرب من ورشته ، إنها منيرة التي ظلت حبيسة داخل سيارتها بعد سنة من النوم غلبتها لعدم تمكنها من النوم في الليلة الماضية ظلت خلالها ساهرة تفكر في الطريقة أو الحيلة التي تجعل علاء يميل كل الميل ناحيتها ويستجيب لطلبها بالزواج منها ، أفاقت من غفوتها هذه لتجد المساء حل ، ونفرٌ من الناس حول السيارة يخبطون على زجاجها خائفين من حدوث مكروه لها كالوفاة مثلًا ، لكنها طمأنتهم عندما فتحت باب السيارة ، ووقفت أمامهم على قدميها تشكرهم على حرصهم الشديد للاطمئنان عليها مع أنهم لا يعرفونها وهي لا تعرفهم ، لكنها صفات وميزات لطالما تواجدت في قاطني تلك المناطق الشعبية التي يحاول أهلوها الاطمئنان على بعضهم بعضًا ، وليس على بعضهم بعضًا فقط بل لو كان هذا الشخص غريبًا عنهم لا يتركونه أيضًا إلا بعد الاطمئنان عليه ، بادرته هي بالتأسف هذه المرة وقالت له :

- أنا آسفة ، ثم مش حضرتك الأسطى مصطفى برضه .

أجابها مصطفى باقتضاب ولغة خشنة لم تعهدها منذ زمن صادرة من رجل يقف أمامها ويكلمها هكذا :

أيوه أنا زفت مصطفى تأمريني بشيء .

تذكرت منيرة أن تلك الخشونة وذلك الغضب البادي على وجه المكتمل الرجولة أمامها إنما هو لشخص حرّ لم ترمه المقادير لأن يعمل تحت إمرتها ، وإلا لكان الأمر مختلفًا الآن ، ابتسمت في وجه مصطفى وقالت له :

- إنت مش فاكرني يا أسطى .
- فاكرك كويس ؛ مش سيادتك اللي بتجري ورا صاحبي علاء وعايزة

تتجوزيه غصب عنه .

أحست منيرة لأول مرة في حياتها بالإهانة ، فنكست رأسها وانسحبت من أمامه في هدوء ، عائدة أدراجها بخطواتها القليلة إلى داخل سيارتها تدير محركها مقررة العودة من حيث أتت .

وبدوره أحس مصطفى بما سببه لها من إحراج ، فهرول خلفها يبدي أسفه وندمه على ما بدر منه ، ويبرر ما قاله بأنه منذ لحظات خسر الإنسانة الوحيدة التي أحبها من خلال تعنت والدها الرافض بشدة تزويجها له ، فتفهمت منيرة موقفه وقالت له :

- هوّن عليك ، المهم هل رأيت صاحبك علاء ؟
- والله سيادتك النهاردة بالذات لم أروجهه .
- طب عن إذنك أنا مضطرة للذهاب لبيته كي أطمئن عليه .
- طب لو ممكن تسمحيلي أتمشى مع سيادتك ، أصل أنا كمان عايز اطمن عليه ، ولا مؤاخذة يعني هو حكى لي حكاية سيادتك من طقطق لسلامو عليكم ، ومن الممكن لو قابلته في وجود سيادتك أن استطيع التأثير عليه وأحوله من حالة الرفض إلى حالة القبول ، هو حد يطول يلاقي واحدة زي حضرتك في جمالها ومكانتها الاجتماعية ويرفض طلبها بالزواج منه !! دا يبقى شخص مجنون !!
- شكرًا يا أسطى مصطفى .
- لا شكر على واجب يا مدام منيرة .
- آنسة لو سمحت .

(٨)

خرجت ناصرة من المستشفى تتساند على كتف عسقلاني المردد على مسمعها كلمة «أحملك» أكثر من مرة ؛ لولا تذكيرها له بأن من العيب إقدامه على فعل ذلك ، ضاربةً تشجيع جيهان الحاملة لطفلهما الرضيع عرض الحائط ، وخلال طريق العودة لم يملّ الاثنان من ترديد الأدعية التي اختصا بها جيهان ومنصور لوقوفهما بجانبهما في تلك المحنة التي مرت بهما ، خصوصًا جيهان التي تحمّلت تكاليف المستشفى بكاملها إلى جانب مصاريف الأدوية ، وما سرّهما أكثر أن جيهان قررت انتقالهما للعيش في الدور الأرضي من الفيلا بدلًا من الغرفة التي ضاقت وضجرت من كثرتهم ، ليس هذا فحسب بل إنها صممت على تحمل مصاريف السبوع والعقيقة للمولود الجديد « منصور» الذي أطلقه عليه عسقلاني لرد جزء من جمايل جيهان التي أعلنت أيضًا وبكل ترحاب إقامة حفلة السبوع في قلب فيلتها ؛ عالمها الخاص هي وزوجها ، والتي لم تكن تسمح لأحد بتجاوز حدود هذا العالم إلى داخله ، وها هي تتخطى حرصها وخوفها عليه بالسماح لعسقلاني بدعوة من يشاء للدخول إليه ، فلم يكذب عسقلاني خبرًا وبمجرد وصولهم نزل من السيارة مهرولًا يدعو كل من يقابله من بلدياته ومعارفه وجيرانه من البوابين ومن يمتهنون مهنًا أخرى ، تاركًا أو ناسيًا أمر زوجته التي لم تستطع رفع صوتها وهي تناديه بالتمهل حتى يسندها إلى مضجعها : « استنى يا عسقلاني خد بإيدي

ووصلني لرقدتي وبعدين روح زي ما انت عاوز « ، أمرتها جيهان والبسمة ترتسم على شفتيها بتركه يذهب وهي من ستقوم بما تريده من عسقلاني ، لكنها عند التنفيذ احتارت وهي تفتح لها باب السيارة من أن تسندها أولًا أم تأخذ الرضيع منصور من على حجرها وتُدخله إلى الحجرة التي أصرت ناصرة دخولها أولًا ، وعدم الانتقال إلى السكن الجديد داخل الفيلا إلا في وجود زوجها ، ولكن أين تضعه جيهان؟ عندما استأذنتها ناصرة في ذلك وقالت لها :

- ضعيه في أي مكان يقابلك ولو كان هذا المكان أرضًا .

نظرت لها جيهان نظرة تعجب وقالت لها :

- بتقولي إيه يا مجنونة !

ردت عليها ناصرة :

- لا تتعجبي يا ست هانم فأولادي جميعًا تعودوا على ذلك .

نظرت جيهان للرضيع نظرة إشفاق وقالت في نفسها :

- أنتِ لا تستحقينه .

صدرصوت من داخل الحجرة صاحبه قادمة في اتجاههما ، جعل جيهان تترك حديثها جانبًا وتنظرباهتمام ناحية الحجرة ، لترى من صاحبة الصوت تلك ، فبادرتها ناصرة بالكلام لتعلمها وهي ترحب بها .

- مين ... أسماء ؟!!

رسمت أسماء ابتسامة خفيفة على خديها ، وقالت لجيهان : عنك انتي يا ست هانم ، ودلفت إلى داخل السيارة آخذةً الرضيع من على حجرناصرة وأعطته

لجيهان ، ودلفت مرة أخرى إلى داخل السيارة لتعاون ناصرة على الخروج وأثناء ذلك قالت ناصرة لجيهان تعرفها بأسماء :

- دي أسماء يا ست جيهان زوجة عم عبده البواب بلدياتنا ، ما أنتِ عرفاه .
- عرفاه يا ناصرة وعارفة أسماء زي مانا عارفة ناصرة عزّ المعرفة ، مش كده يا أسماء .
- كده يا ست هانم .

وعلى الفور وجدت جيهان مبتغاها في أسماء ، وهي من كانت تفكر حائرة بمن سيأتيها بأغراض السبوع ولوازمه وتجهيزها للمعازيم من أصحاب عسقلاني وبلدياته ، وضعت في يدها مبالغ مالية وأعلمتها بأمر السبوع والعقيقة ، وأفهمتها أن تقوم بما هو عليها القيام به .

هزت أسماء رأسها ولم يصدر من فمها غير:

- حاضر يا ستي حاضر.

***

لم يمر وقت طويل على إتيان المساء ، ولم يكذب أيضًا أصحاب وبلديات عسقلاني خبرًا ، حضروا ملبّين دعوته ، وبرفقتهم أولادهم وزوجاتهم ، حلّوا ضيوفًا مرحبًا بهم ، وغير مغضوب عليهم من تصرفاتهم .

قالت لهم جيهان وهي في مقدمة مستقبليهم : تفضلوا ؛ البيت بيتكم . فلم يكذبوا خبرًا ، وعندما وجدت الصالة مكتظة بهم تذكرت كل الأشياء الجميلة المهداة لها من زوجها ، وتكاد الفيلا تكتظ بها من لوح زيتية تزين الحوائط ، وبعضًا من

القطع الفنية المتمثلة في تحف وكريستالات وفازات ، كان آخرها فازة أثرية يبلغ قطرها ١٦ بوصة وتعلوها رسوم أسماك ، أهداها لها منصور في عيد ميلادها الأخيرولم يشأ البوح لها بثمنها ، فقط قال لها : « إن هذه الفازة باهظة الثمن ، لا تتصورين كم عانيت من أجل شرائها من أجلك « ، لذلك خافت من حدوث مكروه لها ، فنادتهم بأن ينتبهوا في خطواتهم وألا يحاولوا تحطيم أي شيء غالٍ أمامهم خصوصًا تلك الفازة ، دخلت النساء في نوبة من الزغاريد تعلن كل منهن عن مدى قوة صوتها ومدى حلاوته وهي تجلجل به ، التف الرجال حولهن وكل من تذكر أغنية فلكلورية تغنّى بها ، والأيادي تعلو وتنخفض بالتصفيق ، لدرجة نسيانهم لأمر سبوع المولود الصغير ، وتناسوا كذلك أمر وليمة العقيقة المعدة لهم .

أصروا على تفريغ الدائرة من نسائهم والإتيان بجيهان بداخلها ففهمت جيهان ما يريدونه ، ورحبت أيما ترحيب بالدخول في الدائرة ، وبدأت في تقليد ما كانت تفعله النسوة من محاولتها في إصدار زغرودة تفوق زغاريدهن علوًّا في الصوت ففعلت ذلك وهي لا تصدق مثلهم .

شجعتها النسوة من حولها وهم يبعدون الرجال الذين تفرقوا مرغمين ، وأخذن يرقصن معها ويغنين ، وظللن في نشوة فرحهم هذه وقد مضى الوقت على فعل ذلك حتى نال التعب من جسد جيهان التي قررت - بإشارة من يدها لأسماء - الذهاب لإحضار الطعام ، مالت ناصرة على أذنها تخبرها أنه لا بد من الإتيان بالمنخل أولًا ووضع المولود فيه ، وتبدأ في المرور من فوقه ، والنساء من حولها يَقُلن : « اسمع كلام أمك اسمع كلام ابوك ما تسمعش كلام أمك « هذا غير الأدعية التي يدعى بها للمولود ؛ لحمايته من شرّ عين الحسود ، فنادت جيهان على أسماء التي كانت بدأت في الإتيان بالطعام ، وأمرتها بالتمهل قليلًا ، وبدأت

ناصرة بعمل ما أسرّت به لجيهان ؛ التي اتخذت ركنًا قصيًّا تتفرج على ما يحدث أمامها ، وهي تتمنى من كل قلبها أن يأتي ذلك اليوم الذي يتجمع فيه هؤلاء القوم ليحتفلوا معها بمولودها الذي تحلم به ولا تفقد الأمل في قدومه .

انتهى حفل السبوع بمجرد انتهاء طعام العقيقة ، بعدها انسحب المعازيم بهدوء وراء بعضهم البعض بإشارة من يد عسقلاني منبِّهًا عليهم عدم إحداث أي ضجة أو جلبة أثناء خروجهم ، ومع خروج آخر واحد منهم برفقته زوجته وأولاده هلّ منصور بسيارته وهو بداخلها يعلن عن مجيئه من خلال سرينتها ، فتح له عسقلاني الباب على مصراعيه وهو يحييه ويقول له :

- لماذا تأخرت يا سعت البيه منصور كنت أتمنى ألا تفوتك هذه المناسبة الجميلة . تأسف له منصور وأخبره أن ما أخّره ظروف عمله التي اضطرته لذلك .

كانت جيهان واقفة في مواجهته أمام مدخل باب الفيلا الداخلي تقرأ في عيني زوجها نظرات الضيق والحنق التي يبدو عليها ، فنادت على عسقلاني متعللة بأن عليه الدخول لمساعدة زوجته في تنظيف ما خلّفه الزائرون من بقايا ، استجاب عسقلاني لأمرها مخلفًا أولاده وراءه ، ملتفين حول منصور يمدّون أياديهم له ؛ لعله يُخرج لهم بعض الجنيهات الفكة التي يجود بها عليهم كل مساء ، هزت جيهان له رأسها فلم يفهمها وهو يتقدم نحوها تاركًا الأولاد خلفه دون إعطائهم ما يريدون ، سألها :

- في إيه يا جيهان ؟

فقالت له تنبهه :

- الأولاد يا منصور ؛ إنت نسيت تديهم مصروفهم .

- جرى إيه يا جيهان هو أنا خلفتهم ونسيتهم .

- معلش يا منصور أهو كله في ميزان حسناتك .

ظن عسقلاني رحيل كل المعازيم عندما ودع آخر واحد منهم وأن ناصرة بمفردها ، لمح عبده يحمل أطباقًا ، ويدخل بها إلى المطبخ فنادى عليه :

- يا عم عبده يا راجل يا طيب ، إنت مش حمل المرمطة دي .

ودخل وراءه المطبخ ظنًّا منه أنه الوحيد المساعد لناصرة التي ما زالت بالصالة تجمع الأطباق وحدها اصطدم به عبده وهو يقول له :

- جمايلك مغرقاني يا عسقلاني سيبني أردّ بعضًا منها .

وتركه ذاهبًا إلى ناصرة ليأخذ منها ما جمعته من أطباق ، تجولت عيناه داخل المطبخ فوقع بصره على أسماء المتصنعة الدلال عند رؤيته يتطلع ناحيتها والشرر يتطاير من عينيه ، فتجاهلت أسماء شرره هذا ، وصممت على التقرب منه وقالت له :

- طب كلمتين حلوين لي زي عبده ، هو أنا برضه مش حمل المرمطة دي ولا إيه رأيك .

تلفت عسقلاني خلفه ليطمئن إن كان عبده ما زال مشغولًا بلملمة الأطباق مع ناصرة ، والتفت مرة أخرى لأسماء وقال لها :

- وديني لو ما لميتي نفسك عني لأكون قاتلك ومتاويكي والدبان الأزرق ما يعرفلك طريق.

ردت عليه أسماء ببرود ممزوج بالدلال :

- ليه يا آسي هو أنا ما عجبتكش ليلة امبارح .
- انسي كل حاجة حصلت يا بنت الناس وغوري من جدامي .

نادى عليه عبده :

- الهمة يا عسقلاني إيدك معايا لاحسن شكل البيه منصور جاي من برة ومش طايق حدّ .
- حاضر... حاضر يا عم عبده أنا جاي أهو .

***

انقضت ساعات الليل وحل محله الصباح ، وعاد عسقلاني لجلسته السابقة قبل أسبوع مضى من ولادة ناصرة أمام الباب الخارجي للفيلا على كرسي ينتظر بشغف قدوم ناصرة من الداخل بكوب شاي مضبوط يرتشفه بمزاج خالٍ لا يعكر صفوه شيء ، ما يتحتم عليه عمله فقط هو الوقوف احترامًا لصاحبي المكان عند دخولهما وخروجهما ويفتح لهما الباب ، وغير ذلك لا يفعل شيئًا سوى سرقة بعض الوقت وتمضيته برفقة أيّ من أصحابه على القهوة .

وبينما هو جالس رائق البال ينقي فكره من أية شوائب تعكر صفوه إذ سمع صوت أسماء تناديه من خلفه ، فهب واقفًا مذعورًا ، وبدون انتظار ماذا ستقول أمرها بالعودة من حيث أتت ، وهددها إلا لم تنفذ سيخلع نعليه وينزل عليها ضربًا بهما أمام المارّة ، فاستجابت أسماء لأمره بعدما رأت الشرر يتطاير من عينيه ، فتأكدت لحظتها أنه لن يقدم على ما فعله معها منذ ليلتين فائتتين مرة أخرى ولو عملت له لبن العصفور .

(٩)

كان الوقت مساءً عندما اتخذ علاء وجهته إلى القهوة بعد يوم طويل وشاقّ من البحث عن عمل يناسب مؤهله ولم يكن من الصعوبة عليه العثور على مصطفى الحاجز للمكان الجالس عليه لحسابه الخاص ، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه ، وذلك بتنبيه من كنكة صبي القهوة لأي من رواد القهوة : « هذا المكان محجوز للبرنس « ، سحب علاء كرسيًّا وجلس بجوار مصطفى ، وما إن رآه مصطفى حتى بادره قائلًا :

- إنت فين يا ابني ؛ دا انا قلبت عليك الدنيا ، بحثت عنك في كل مكان تتواجد فيه أنا والست المديرة .
- علمت بذلك من والدتي .
- هو انت صحيح سِبت الشغل .
- أيوه صحيح يا مصطفى .
- والعمل يا صاحبي ، هتفضل قاعد كده من غير شغلة ولا مشغلة وتتوكس زيي .
- وبإيدي إيه يا مصطفى .
- تعالى اشتغل معايا في شغلانتي الجديدة .
- شغلانتك الجديدة ، فكرني يا صاحبي أصل أنا بقيت أنسى ، هو انت قفلت الورشة ؟!

يا صاحبي افهمني ؛ شغلانة آخر الليل ، ومال على أذنه وقال له بصوت خفيض

: أقصد أنا حرامي .

- وله ؛ هو أنت نفذت اللي في دماغك وعملتها .

- آه وما لها شغلانة الحرامي .

- روح الله يخرب بيتك .

- قول الله يعمر بيتك ، يا أخي بص لشكلي وبص لشكلك ، كنا متعادلين من كذا يوم عدّوا ، حالنا كان من بعضه ، ذقوننا طويلة وملابسنا وشعر رأسنا ووجهانا اللذان كانا يقطعان الخميرة من البيت ، أما الآن فقارن يا صاحبي شوف النعمة اللي حلت عليّ وبص لنفسك في المراية ، بالذمة هو دا علاء صاحبي زينة الحتة وحيد والديه اللي بيحلموا بأن يكون في أحسن حال .

- والسرقة بقى هي اللي هتخلي حالي ينصلح .

- يا أخي جرب ، الحمد لله الفلوس بقت في إيدي زي الرز ، صحيح إن عبدالرؤوف رفض طلبي بالزواج من شربات ، لكن أهوه شوف حالي ، ولّا أقولك سيبك من الموضوع دا خالص ، لو أنا منك أتوكل على الله واتجوز من منيرة مديرتي في العمل .

- أهو دا كله كوم وجوازي من منيرة كوم آخر ، دا أنا أُفضل أمد إيدي في جيوب الناس واسرقهم على رؤية وجهها استغفر الله العظيم .

- يبقى خلاص اتفقنا يا صاحبي ، تطلع معايا الليلادي نقلّب عيشنا سوا ، واللي يرزقنا بيه ربنا نقسمه بينا بالنص .

- بقولك إيه اقفل على الموضوع دا ، وبطّل كلام خالص ، برنامج الست جيهان هيبتدي.

حول الاثنان وجهيهما إلى شاشة التلفاز ينصتان باهتمام لما تقوله جيهان التي استهلت حديثها قائلة :

سيداتي سادتي مساء الخير، موضوعنا الليلة سنتحدث فيه عن موضوع لا يقل أهمية بل هو من أخطر ما تمثله تلك الدائرة التي أطلقنا عليها منذ أول حلقة طلّيت عليكم فيها بأنها دائرة الاغتصاب ، واسمحولي أفكركم إحنا سميناها بهذا الاسم ليه ؟ ودا فقط عشان ممكن حد يكون أول مرة يسمعنا ، دا لسبب إنو كان واخد موقف مننا عشان هاجمناه مثلًا في يوم من الأيام ، لكن هو دلوقتي قاعد وبيتفرج علينا لأنه حس فعلًا بالمسئولية وندم على ما كان يفعله من اغتصاب بالوطن ، فكل من يرتكب جرمًا داخل حدود الوطن ، سواء كان هذا الجرم صغيرًا أو كبيرًا ، فهو بفعلته التي ارتكبها هذه يعلم أنه داخل هذه الدائرة البغيضة التي لا محالة تؤثر تأثيرًا سلبيًا على الجميع ، فالحسنة تخص والسيئة تعمّ ، وبالنسبة لمن ينتمي للوطن ويرتكب جرمًا في حقه وهو بالخارج ؛ فهو خارج هذه الدائرة ، ولن نتطرق في الوقت الحالي لمن هم خارج الدائرة إلا عندما ننتهي من إثارة كل ما يدور بداخلها ، من فساد وخراب وانحدار وانحراف وكذب وسرقات وقتل وإلخ من مشاكل جمة تلحق الضرر بنا جميعًا .

ومن غير ما طوّل عليكم نخش في موضوع الحلقة الذي هو من أخطر مواضيع ما يُكون دائرة الاغتصاب ، إنها السرقة يا سادة ، والنوع اللي هناقشه من أنواع السرقة من أهم أنواع الاغتصاب ، بل ويقع في قلب الدائرة ، وأخطر أنواع السرقة التي سنناقشها الليلة هي السرقة عيني عينك ، السارق يمد يده داخل جيبك ليسرقك ويأخذ منك قوتك وقوت أولادك ، وإن رفضت أيها المواطن المغلوب على أمرك ومنعت يده من دخولها إلى جيبك فسيكون مصيرك حتمًا اتهامك بأبشع الجرائم المشارك فيها بسكوتك وصمتك ، ومنها أنك أنت اللص والراشي والعمل بدون رخصة وعدم دفعك للضرائب وإشغالك للطريق وإلخ من الاتهامات التي ستتهم بها ، وللأسف يوجد شهود كثيرون ودلائل وقرائن تثبت أنك حرامي ، وليس هو هذا الشخص الذي يتجرأ ويتبجح بمد يده إليك

ليسرقك ، ما هو نعمل إيه في ناس كتير مننا عشان تمشية مصالحها وتجنب الروتين نضطر للدفع من تحت الترابيزة لمعدومي الضمير الذين يستغلون بعد ذلك البسطاء تحت بند « هتدفع ولا « .

سيكون ضيفنا وضيفكم الليلة عمي درواني صاحب محل فاكهة ، جاء ليحكي لنا حكايته الليلة مع موظفي البلدية الذين لم يتركوه في حاله ، مع العلم أن سيادة محافظ العاصمة لديه علم بما يفعلونه معه يوميًّا من تجاوزات جاوزت الحد ، دا غير حالات كتير معانا هنكشف عنها بعد استضافتنا لعم درواني الذي سيحكي لنا بعضًا مما يعانيه من موظفي الحي والبلدية وغيرهم من الجشعين الذين لا يجدون من يردعهم ويقول لهم كفوا أيديكم عن هؤلاء البسطاء من نوعية عم درواني الذي يدعوا يوميًّا ويقول يا رب ارزقني بالحلال .

ودا غير مفاجأة لأول مرة بنعملها في البرنامج هي أنها سنستقبل تليفوناتكم على الهواء مباشرةً لتلقي شكاويكم ليرد عليها المسؤلون اللي هنتصل بيهم على الفور لإيجاد حلول عاجلة لها ، أرجو من كل مسئول عدم إغلاق هاتفه خلال مدة البرنامج للأهمية وشكرًا ، اتفضل احكي يا عم درواني .

نظر مصطفى لعلاء وقال له :

- إيه رأيك يا عم ، آهو الست جيهان تؤيدني فيما أفعل ، فإن لم أبادر بما أقدمت عليه فسيضطرني المسؤلون لفعل ذلك ، وأهو إنت شايف بنفسك مش سايبين حد في حاله .

وأثناء حوارهما معًا انحنى كنكة على أذن مصطفى وقال له :

- الست شربات بتقولك إنها منتظراك على ناصية الشارع .

لم يكذب مصطفى خبرًا ، وقام دون استئذان علاء أو إعلامه إلى أين هو ذاهب .

جلس علاء وحيدًا ، لم يكن أمامه سوى متابعة برنامج جيهان الأسبوعي منصتًا باهتمام لمداخلة المحافظ الذي أعلن بكل جرأة لم تعهدها جيهان من أي مسئول باتهامها صراحةً بالكاذبة ، وبأن الرجل الجالس أمامها المسمى بالدرواني إنما هو مجرد كومبارس أتت به ولقنته هذه الادعاءات الكاذبة ؛ لكي يرمي الناس الشرفاء بالباطل ، وأنه تحقق بنفسه من مصدر تلك الشكوى التي لم تكن إلا حيلة منها لتضفي على برنامجها نوعًا من المصداقية ، التي يتأكد الآن أنها نوع من أنواع تأليب الرأي العام على الحكومة ، التي لا تتدخر جهدًا في مساعدة المواطنين على قضاء حوائجهم ، والضرب من ناحية أخرى على يد الظالم الذي يحاول جاهدًا أن يقول إننا كاذبون وسارقون ومرتشون وأفّاقون .

قاطعته جيهان تذكّره بالمكالمة التي درات بينهما منذ أسبوع ، وأعلمته من خلالها بكل ما قاله درواني على الهواء وأنها لم تقدم على طرح تلك المشكلة على الهواء إلا بسبب عدم ردّه عليها وتعمده تجاهلها بإغلاق تليفونه في وجهها كلما حاولت الاتصال به ، ولم يكن من جيهان سوى التصميم من جانبها ، بأن يكذب المحافظ كلامها هذا ، فلم يكن من المحافظ الذي بدا واضحًا من خلال صوته النرفزة والعصبية اختتام مداخلته بأنه يتقدم ضد جيهان على الهواء مباشرةً ببلاغ للنائب العام لمحاسبتها ، وأنه سيعمل من اللحظة التي ينهي فيها مكالمته لإصدار قرار بإيقاف برنامجها المثير ضجة ولغطًا بين المواطنين بمجرد إذاعة حلقات برنامجها الأسبوعي.

وجد علاء نفسه ينجذب كباقي المشاهدين الجالسين حوله داخل القهوة ، ويصبّ كامل تركيزه نحو الحوار والنقاش الناري الدائر بين المحافظ وجيهان، التي حافظت على هدوء أعصابها ببرود تحسد عليه ، لدرجة أنها لم تنسق

لانفعالات المحافظ ، المحاول جرّها للرد عليه بنفس طريقته ، التي بدت واضحة أنها لا تصدر إلا من إنسان همجي لا يقدّر قيمة ما تقدمه من صافرات إنذار لكل عابث أو لاهٍ بمصالح المواطنين البسطاء .

ما فعلته فقط بعد انتهاء حوار المحافظ الناري معها بتقدمها هي الأخرى على الهواء مباشرةً ببلاغ للنائب العام ضد المحافظ ، واضطرت آسفة لإنهاء الحلقة ، وزادت أن حلقات البرنامج ستتوقف منذ هذه اللحظة حتى انتهاء التحقيق ، وتظهر الحقائق كاملة للرأي العام ؛ ليتبين للجميع هل هي صادقة فيما تقدمه أم على العكس كما يدعي المحافظ .

هرج ومرج حدث في القهوة بين مؤيد ومعارض لما أقدمت عليه جيهان ، وما اتفق عليه جميع من في القهوة أنهم صبوا جام غضبهم على المحافظ ، بل والمسؤلين جميعًا ، وذلك بحماسة من علاء الذي أفهمهم أن المحافظ وأمثاله من مسئولي الدولة إنما يجلسون في برج عالٍ بعيدًا عن مشاكل الناس ، وأنهم لا يكلفون أنفسهم مشقة عناء النزول إلى الشارع ومعالجة هذه المشاكل التي تجعل أغلبية المواطنين يعيشون في ظلمات الفقر ، وتحول بعضًا منهم لطريق الجريمة التي يزداد مرتكبوها يومًا عن الآخر .

أيده الجالسون حوله وراحوا يتبادلون معه الاتهامات الموجهة إلى المحافظ ، وبدأ كل واحد منهم يخرج ما في جعبته مما يعانونه ويقاسونه يوميًّا ، ناهيك عما يسمعون به ويقرءونه في الصحف الصفراء الوحيدة المتجرأة والكاشفة عن فساد بعض هؤلاء المسؤلين الكبار ، ولذلك أسموها صفراء ، أما الصحف القومية فحدث ولا حرج ، لا تقوى على التجرؤ والتحدث بأي سوء في شأن أي مسؤل كبير ؛ لأنها بالطبع تنتمي لأي نظام حاكم نوليه شئوننا ، هذا غير الفساد الذي يرونه يرتكب أمامهم جهارًا نهارًا بيانًا عيانًا في المصالح الحكومية التي يعمل

أغلبيتهم بها .

انطلق مصطفى خلف شربات يسرع في خطواته حتى لحق بها ، لم يأبه لمن حوله ، تجرأ ومد يده وأمسك بيدها مصممًا على تشابك أصابع اليدين ، فاستسلمت شربات دون تبرم أو اعتراض بل إن سعيها للخروج من المنزل إنما لتمني حدوث ما يتجرأ مصطفى على فعله.

أمسكت بطرف الحديث وقالت لمصطفى :

- وبعدين يا مصطفى ؛ بابا رأسه وألف سيف ليجوزني من أي شخص مهما كان وضعه الاجتماعي إلا أنت .
- يا حبيبتي على إيدك عملت ما في استطاعتي لإقناعه ، لدرجة إني أقسمت له أن الخط المستقيم سيكون طريقي ، ولو أرادني أن أطلق لحيتي وأنضم للجماعات الإسلامية وأصعد منابر المساجد لأخطب في الناس وأوعظهم فلا مانع عندي ما دام ذلك سيجعله يوافق على زواجنا .
- طب عندي حل يا مصطفى سيجعل والدي أمام الأمر الواقع .
- هو إيه إلحقيني بيه أبوس إيدك .
- هو إننا نتجوز والآن عند أقرب مأذون ، وكده يبقى قطعنا عليه كل طرق الرفض والتعنت التي يخترعها لعرقلة حلم حياتنا .

هوت صفعة قوية على قفا شربات تبينت عند استدارتها أنها من والدها عبدالرؤوف الذي ما إن علم بأمر خروجها دون إذنه حتى خرج يبحث عنها وهو متأكد بأنها ستعمل على مقابلة مصطفى حبيب القلب ، بعد تحديها له وإعلانها بكل صراحة أنها لا تمانع في الارتباط بمصطفى ما دام يريدها في الحلال ، رغم علمها بأمر سرقاته التي لا تصدق حتى لحظتها التي تقف فيها معه أنه

يسرق زبائنه ، وأن والدها هو من شهَّر به وألصق به تلك الصفة حتى تكرهه ولا تفكر بالارتباط منه ، وهو لا يعلم أن بفعلته هذه قد نما حبها داخل قلبها بمصطفى وأن كل هذا الحب وذلك التعلق إنما بسببه أيضًا عندما كان يحل عليهم في المساء يجمعها هي وإخوتها كلاا اتنزدالرؤوف حوله يسرد لهم ما دار في يومه من أحداث أتقن سردها لهم بطريقة فكاهية حتى يخرجهم من حالة الملل التي فرضها عليهم من إصداره فرمانًا مكرهًا لهم بألا يخرجوا من باب الشقة أثناء غيابه في أي حال من الأحوال ، كان يتعمد في ذلك السرد التركيز على نباهة وشطارة وذكاء مصطفى ، والذي بسببه أصبح للورشة زبائن كثيرون .

وعندما شك في بادئ الأمر أن شيئًا ما يحدث من وراء ظهره بين مصطفى وشربات التي راحت تتصنع في تقديم التبريرات كي تأتي كل يوم إليه في الورشة ، ومع مرور الوقت واكتشافه حقيقة تردداتها عليه يوميًّا ازدادت كراهيته لمصطفى ، لدرجة أنه تعمد طرده وهو متلبس بعملية سرقة أجزاء من سيارة أحد زبائن ورشته دبرها له ، ولم يكن مصطفى فاعلًا حقيقيًّا لتلك السرقة التي ألصقها به عبدالرؤوف عمدًا ، فك بعضًا من أجزاء موتور سيارة زبون وأعطاها لمصطفى وأمره بانتظاره بها أمام الورشة مبررًا ذهابهما بها لورشة الخراطة الموجودة في الجوار، وما إن خرج مصطفى حتى لحق به عبدالرؤوف ممسكًا بتلابيبه ينعته بالحرامي ، وهو بتلك الفعلة يظن أن كراهيته لمصطفى ستنتقل لشربات التي سمعته بأذنها منتصف ليلة ذلك اليوم وهي ذاهبة لقضاء حاجتها يخبر والدتها أنه هو من ادعى على مصطفى كي تكرهه شربات التي يخطط لتزويجها بأي من زبائن ورشته الأثرياء ، وبذلك عمل عبدالرؤوف بدون قصد على تقريب المسافة بين شربات ومصطفى بدلًا من العمل على توسيعها ليصبح بسببه القلبان مهيئين للالتقاء في أقرب فرصة تلوح في الأفق كلما سنحت الظروف بذلك .

غلى الدم في عروق مصطفى بعدما فاض الكيل به من تصرفات عبدالرؤوف تجاهه ، وانقض عليه وأبعده عنوة عن شربات ، ولم يفعل ذلك فقط بل أمسكه من رقبته ولكمه في وجهه أمام من تجمعوا حولهم بعدما وجد صفع عبدالرؤوف يطال وجهه ، وقال له بصوت مسموع للجميع :

- اسمع يا عبدالرؤوف أنا صبرت عليك كتيروبلعت إهاناتك لي ، وكانت على قلبي زي العسل ، عشان خاطربنتك شربات ، لكن من دلوقتي لا ، إوعى تفتكرتبصلي مجرد بصة وحشة بعد كده ، بنتك ليس لها أي لازمة عندي ، واللي خلقها خلق غيرها كتير، وعلى قفا مين يشيل .

تركه على إثر دفعة قوية من يده جعلت عبدالرؤوف يهوي أرضًا ، وأخرج مطواة من جيب بنطاله الخلفي وأخذ يردد على مسمعه :

- أنا باحذرك يا عبدالرؤوف ، قوم خد بنتك وامشي من قدامي لاحسن وديني لارتكب في حقك جريمة أخلي الخلق كلها تتحاكى بيها ليل ونهار.

لم تستطع شربات التعليق على كل ما حدث أمامها ، كل ما فعلته أنها مالت على والدها وربتت على كتفه ، تعينه على الوقوف وهي تبكي بحرقة ، غيرمصدقة ما سمعته من مصطفى، أوما فعله بوالدها ورحلت بمرافقة والدها ، وهي ترميه بنظرات الوداع الأخيرة ، تلف وجهها للخلف بين اللحظة والأخرى متمنية مجيء مصطفى خلفهما يبدي الندم والأسف على ما بدرمنه ، لعل والدها هو الآخر- بعد كل هذا التعنت والكره الواضح تجاهه - يُمحيه ويسامحه .

***

- بالغت منيرة في تهديدها للحسيني وخيرته بين تركه للعمل كما فعل علاء وإما أن يعمل على إقناع علاء بما تبتغيه ، فتركها الحسيني وهو يقول :

- رزقي ورزق ابني على الله ، ثم ليس من حقك إجباري على الاستقالة ولو صممتي على ذلك فأمامك الشئون القانونية اعملي على تقديمي للتحقيق أولًا ، وأنا منذ هذه اللحظة مستعد لذلك التحقيق ، لكن تذكري ماذا سأقول لهم وهم يحققون معي ، من أن سيادة المديرة تريد رفدي من عملي لأن ابني الوحيد رفض طلبها بالزواج منها .

وبعد انتهاء العمل وعودته للبيت حاول مداراة حزنه الذي تسببت في ظهوره منيرة ، وهو المعروف عنه بأنه صاحب الابتسامة البريئة مثل الأطفال ، ابتسامة لا تفارق وجهه وهو آتٍ من الخارج يقابل بها زوجته عزيزة .

بادره علاء الجالس في انتظاره ليتناولا سويًّا طعام الغداء :

- ما لك يا بابا .

- مفيش يا ابني

- شايف في عينك الحزن .

- قرف المواصلات يا ابني .

- قصدك قرف منيرة .

- يا ابني أحسن الظن بالله .

- ونعم بالله يا والدي ، على العموم أنا قررت العودة للعمل مرة أخرى واللي يريده ربنا هو المقسوم .

(١٠)

لأول مرة تستشعر جيهان الخطر المتمادي في اللحاق بها وبزوجها إثر حملة عنيفة شنتها عليها أغلب إن لم تكن كل الصحف القومية ، هذا غير التهديد الواضح والصريح بتلقيها تهديدات بالقتل إن لم تتراجع عما تشنه من حرب وصفت بأنها تمول من جهات تحاول إحراج الحكومة وتأليب الرأي العام عليها .

ووصل التهديد مداه لمنصور بإقالته من منصبه صراحةً إن لم يتراجع عن قرار رفضه بمشاركة هذه الصحف شن الهجوم على جيهان ، هو الوحيد فقط من أعلن تأييده لها ودافع عنها بضراوة ضد ما وصفه بالفساد الذي أصبح واضحًا في تصريحات المسئولين ليل نهار بالتبرؤ منه ، خاصة المحافظ المتنقل بين الفضائيات ليل نهار، الفضائيات التي وجدتها فرصة لرفع نسبة إعلانات برامجها الحوارية المتعطشة لاستقبال شخص له ثقله ووزنه ، يطلب بنفسه بشكل غير مباشر الجلوس أمام أشهر المحاورين ليتحدث عن إنجازاته وجهده المبذول والمتواصل لاقتلاع الفساد من جذوره ، ويعمل ما في استطاعته لإقناع فئة مشاهدي هذه البرامج أنه بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، من كلام أي أقلام صفراء تقف في صف من ناصبته العداء ، وقدمت ضده بلاغ للنائب العام لأنه رفض ليّ ذراعه بأن يسكت عن شخص تعدى على حرمة الطريق العام ، أنشأ على رصيف المارّة محلًّا لبيع فاكهته ، ولأنه على دراية تامة بالفئة

التي يخاطبها ، وهي فئة متعلمة مثقفة على دراية تامة بما يحدث ، ولا تقتنع بما يقال إلا بالإثباتات من دلائل وبراهين قاطعة على صدق قول من يستاضفوا في مثل هذه البرامج ، ويعلم أنها لن تقتنع بسهولة لكل ما يعرضه عليهم من صفحات ناصعة البياض مكتوب في أغلب سطورها أنه لم يفكر يومًا في التراجع عن الضرب بيد من حديد على كل فاسد أو مخالف أو مرتشٍ أو من يجور على حق من حقوق العامة ينسيه جوره في لحظة تواجده بين المواطنين الضعفاء من حوله والخائفين من بطشه أنه سينجو بفعلته وتجاوزاته ، لكن أنا بالمرصاد لمثل هؤلاء المتصنعين الطيبة لأمثال إعلاميين من أشباه وشاكلة مدام جيهان هانم ، كنت أظنها ستقف مع حكومة بلدها تمد يد العون لها من خلال إقناع جمهورها العريض بالوقوف معًا يدًا في يد لمحاربة كل أعداء الوطن في الداخل والخارج ، أعداء همهم وشغلهم الشاغل بث الفتنة بيننا وتفتيتنا لعدة دويلات كما نرى ونسمع ونشاهد كل يوم .

قال ذلك وهو في أوج حماسته متناسيًا أن مقدم البرنامج الحواري يقدم له مفاجأة من العيار الثقيل قضت على تلك الحماسة الزائفة التي اصطنعها بكلماته الأخيرة والجوفاء والمحفوظة لدى المشاهدين لتكرارها باستمرار ، « سيادة المحافظ أوافقك فيما تقول وأؤيدك ويؤيدك معي كل المواطنين الشرفاء الذين يسمعوننا الآن والمنتمين بحق لهذا الوطن العظيم ، لكن لا بد من قول كلمة حق إنصافًا للشخص الغائب ، والذي أتمنى أن تكون الآن من ضمن مشاهدينا الأعزاء ، واعذرني سيادتك إذا قلت إن الزميلة والإعلامية المحترمة مدام جيهان الخليل التي يعلم كل مواطن يعشق تراب الوطن أن ما تقدمه أو ما تطرحه من قضايا تمس هذا المواطن بالدرجة الأولى ، ليست إلا لأنها موجوعة من قلبها ترى بعينها كل ما هو يدمر الوطن وتحاول معالجته ، وهي بذلك تمد يدها لأعلى رأس في الدولة تكشف له غطاء الفساد الذي ينخر كالسوس في

أساسات هذا الوطن « .

حاول المحافظ التعليق على كلام المحاور ، لكن المحاور بحكم عمله المحتم عليه إنهاء البرنامج نظر في ساعة يده مقاطعًا كلام المحافظ قبل بدايته : سيادة المحافظ اعذرني انتهى وقت البرنامح ، وإذا كان هناك كلام لدى سيادتك لقوله فإني استأذنك في قبول دعوتي غدًا لقول ما في جعبتك من ملفات فساد نودّ بشغف أن نكون سباقين لأن يطلع عليها العامة من خلال شاشتنا ، مشاهديّ الكرام ، سيداتي وسادتي انتظرونا غدًا سنستكمل غدًا باقي حوارنا مع سيادة المحافظ ، دا غير مفاجأة من العيار الثقيل سنخبركم بفحواها أثناء استضافتنا لسيادة المحافظ الذي أقول له - وأنا أرى نرفزة مخرج البرنامج تزيد عن الحد الآن - زملائي في الكنترول بيخبروني إن عم درواني اتصل بينا حالًا يريد استضافته هو الآخر غدًا وجهًا لوجه يريد الجلوس أمام سيادة المحافظ لأنه - على حد زعمه - بيقول إنو معاه كل الإثباتات الدالّة من أوراق وخلافه تؤكد أنه اتخذ كل الاجراءات الصحيحة لإقامة محل فاكهته صاحب الأزمة الشهيرة بين الزميلة جيهان وسيادة المحافظ ، اعذروني للإطالة وتصبحوا على خير.

مدت جيهان يدها بالريموت الخاص بالتليفزيون معلنة إغلاقه ، لتدخل بعدها في نقاش مع منصور حول مسألة التهديدات التي يتلقياها يوميًا والتي زادت عن الحد والوصف ، من تهديد بالقتل والخطف وتلفيق لهما اتهامات باطلة ، ترجته جيهان بألا يعطي لأحد الفرصة للنيل منه ، وأخبرته أنها كفيلة ومستعدة ولديها المستندات والدلائل والبراهين التي تجعلها تقف ضد هجوم المحافظ عليها مهما كانت قوته أو درجة تهديده ، ترجته أيضًا بتنفيذ ما يأتمر به من أوامر يظنان أنها صادرة من أعلى رأس في الدولة بألا يحيد عن السياسة المتبعة للجورنال ، لكن منصور طمأنها بأنهما الاثنين في مركب واحد ، وإن تركها أمام هذا الهجوم

الضاري فلن تستطيع المقاومة وحدها، وأنه ليس بحزين إن أُقيل من منصبه ما دام ذلك في سبيل إظهار الحقيقة كاملة للعامة .

نقلت ناصرة هذا الحوار كاملًا لزوجها عسقلاني الذي لم يكذب خبرًا وذهب للقهوة بعدما أصبح محطّ أنظار ساكني الحي ينقل لهم الأخبار طازة أولًا بأول ، وهو مؤتمن لما يفعله بعد أخذه الإذن من أصحاب الشأن منصور وجيهان العالمين منه أن جيران الحي يزفونه في الرايحة والجاية لمعرفة المزيد عن ردة فعلهما عما يثار في الوسائل الإعلامية سواء أكانت مسموعة أم مقروءة أم مرئية من اتهامات بدت واضحة أنها تشويه لصورتهما أمام الرأي العام ، وبدوره أخذ عسقلاني ينقل حرفيًّا ما يقال له من آيات الإعجاب والتأييد لما يقدم عليه الزوجين في الحرب الشعواء التي دخلاها وحدهما بكامل إرادتهما دون خوف من أي قرار ستصدره جهات بعينها في حقهما من اعتقال أو ما شابه .

وبناءً عليه أصبحت جيهان بين ليلة وضحاها محطّ أنظار الرأي العام الذي استشاط غضبًا وغيظًا وحنقًا من ردة فعل المسئولين العنيف تجاهها ، فكلما حلت وجدت نفسها ضيفة عزيزة مكرمة يود الناس حملها من على الأرض والطوف بها ، يشاورون ناحيتها : يا نصيرة الفقراء والغلابة نحن رهن إشارتك اؤمرينا ونحن الملبون ، حتى عندما قررت زيارة والدتها صمم منصور على مرافقتها هذه المرة خوفًا عليها من حدوث أي مكروه لها فرأى بنفسه مدى الحب والاحترام الذي اكتسبته ، لدرجة أنه رأى بأم عينه بلديات درواني الذين أتوا خصيصًا من بلدتهم للذود والدفاع عنه إن تجرأ أحد وحاول الاقتراب من محله الذي أصبح محط أنظار الجميع ، أكثر من مائة رجل يحيطون بالمحل من كل جانب جالسون في أماكنهم لا يبرحونها منذ إذاعة الحلقة ورؤيتهم لهجوم المحافظ الضاري على جيهان ودرواني .

وبكل هدوء تحسد عليه انفردت جيهان بدرواني جانبًا ، وأفهمته بمعاونة منصور إن كان يريد الحفاظ على حقه فليسمع كلامها بأن يأمر بلدياته بالرحيل وأن يخلوا المكان ؛ لأن ذلك ليس في مصلحته بل في مصلحة المحافظ الذي سيتخذها ذريعة في سبيل تحسين صورته التي بلا شك أصبحت في الحضيض ، فامتثل درواني لمشورتها بأن يسرع بكل ما يدل على صحة موقفه وتقديمه للنيابة التي ستنصفه وتنصره من خلال منصة القضاء ، وطمأنته وهي تودعه إلى داخل دار المسنين بأن ما فعله المحافظ من اعتذاره ليلة الأمس في الحضور للبرنامج لمواجهته وجهًا لوجه جعل الرأي العام يتعاطف معك ومع قضيتك التي ستقصيه عن منصبه قريبًا إن شاء الله ، حتى العاملون والعاملات في دار الرعاية انحنوا لجيهان احترامًا وشدوا من أزرها وشجعوها على المضي قدمًا فيما تفعله ، لكنهم لاموها على قرارها إيقاف برنامجها ، فأفهمتهم أنها إن لم تكن اتخذت هذا القرار بنفسها وفي تلك اللحظة التي اتخذته فيها لكان اتخاذ هذه الخطوة من جانب رئيس القناة من خلال الضغط عليه وتهديده بغلق القناة ، وطمأنتهم أنه في القريب العاجل سيسمعون أخبارًا تسعدهم وتسعد كل المهتمين بأمرها وأمر برنامجها .

وكانت سعادتها ما أجملها سعادة عندما دخلت على والدتها ووجدت معنوياتها عالية فخورة بها وسعيدة بما تسمعه عنها ، بدوره فرح منصور بكل هذه الحفاوة والاستقبال الذي لاقته ، وقال لها صراحة : إني أحسدك يا حبيبتي على هذه المكانة التي حظيت بها في قلوب كل من رأيتهم .

وعند انتهاء زيارتهما ودّعا الأم وهما يتمنيان لها الشفاء في القريب العاجل ، لكن ما أحزنهما وسط كل ما أحاطهما من سعادة أمنية تمنت الأم تحققها بأن يستجيب الله لدعائها ويرزقهما الله بالطفل الذي يتمنيانه .

فعادا وسط الظلام يخبئان حزنهما بداخلهما وهما يحمدان الله على ما ابتلاهما به .

(١١)

صممت أسماء على عدم ذهاب عبده للجلوس على القهوة كالمعتاد كما يفعل كل ليلة ، فرضت رأيها عليه وصممت على عدم تركها بمفردها ، بدوره حاول إفهامها أنه لن يغيب عنها أكثر من ساعة ، وبدورها قالت له :

- إن من تريد الذهاب لأجل الجلوس معهم على القهوة عليهم بالإتيان للجلوس معك هنا لو كانوا يحبونك ويهتمون لأمرك .

وهي قاصدة في كل كلامها شخص عسقلاني دون غيره ، آخر حيلة في جعبتها أرادت تجربتها لعل عسقلاني يأكل الطعم ويقع في شباك مكرهًا مرةً أخرى .

جلست بجوار عبده بعدما امتثل لأوامرها أمام مدخل العمارة تمعن النظر في المارّين من أمامها لعل يكون ممن بينهم عسقلاني يأتي للاطمئنان على عبده الذي لم يره طيلة نهار اليوم كما هو المعتاد .

لم تبرح جلستها حتى انتصاف الليل ، وعبده بجوارها يأكله الضجر من تصرفاتها التي أصبحت لا تعجبه في الآونة الأخيرة ، ولولا غيرته الشديدة عليها وحبه لها لتركها جالسةً وحدها في هذا الوقت المتأخر من الليل ، لكنه لم يشأ تعكير مزاجها بعدما رأى نفسه محط أنظار الحساد ، خاصةً من يعرفونه وهم يلقون

تحية السلام عليه ، يلقون على مسامعه بجملة من نوعية :

ليلتك بيضة يا عبده، ربنا معاك يا عبده ، هنيالك يا عبده ، ربنا يهني سعيد بسعيدة يا عم عبده .

حتى الولد شوقي الجالس في الكشك حتى مطلع الفجر، والذي يتقاسم مع والده ورديات العمل بالكشك لم يخلُ كلامه من بعض التلميحات التي استثارت أسماء وجعلتها تنظر له بطريقة مختلفة عن ذي قبل لدرجة أنها عندما استشعرت النعاس يلقي بظلاله على عيني عبده أمرته بتركها لينام حتى يستطيع النهوض باكرًا : « قوم يا سبعي نام « ، فهز عبده كتفيه بلا وهو غير راضٍ عن هذه الكلمة التي صدرت منه دون إرادته ومع تكرارها من جانب أسماء على مسامعه :

- قوم يا عبده نام متخافش عليّا ، الولة شوقي جالس أمامي في الكشك يحرسني ولن يتجرأ أحد على الاقتراب مني .

بادرها عبده قائلًا :

- وليه يا بنت الناس تستني لما حد يبصلك بطرف عنيه أو يحصل ما لا تحمد عقباه ما تقومي معايا وكملي سهرتك داخل حجرتنا .

أجابته متعللة :

- زهقانة يا عبده ، حرام عليك سيبني أشم شوية هوا نضاف ، أهو الهوا هنا أحسن بكتير من ريحة الهوا المخلوط بالكتمة داخل الحجرة ، وهي تقصد في كلامها شخصه ، وحسبته وهو يرضخ لأمرها أخيرًا أنه أحس بأن ما قالته إنما يمس شخصه .

انتظرت لبضع دقائق ظلت فيها جالسة لا تحرك جسدها قط فقط عيناها منصبة على الكشك ومن بداخله ، قامت على مهل تتصنع الدلال في مشيتها

وهي تري في عيني الصغير شوقي ما لم تره في عين من يماثله سنًّا تجاهها اقتربت منه وهي تتلوى أمامه بجسدها كالأفعى وطلبت منه أن يعطيها لبانة :

- اديني لبانة يا وله ياشوقي .

مد شوقي يده لها باللبانة التي طلبتها والرعشة تسيطر على كيانه ، فما كان من أسماء إلا أن أمسكت يده وقالت له :

- ما تثبت يله ولما أنت مش قد الكلام دا يا روح أمك بتعاكسني ليه .

ظهرت الرعشة في كلام شوقي وهو يقول لها :

- أأأ أنا أنا ...

- إنت إيه ما تتكلم .

وبعد أن وضعت اللبانة في فمها ولاكتها بطريقة حديثة العهد على شوقي قالت له تسأله :

- قولي يا واد يا شوقي إنت عاكست بنات قبل كده ؟

احتارت الكلمات في فم الصبي فلم يستطع الرد على سؤالها ، فأخذت تسأله بعد ما رأت جواب سؤالها في حيرته :

- طب قولي تعرف يعني إيه معاكسة وبتستفيد ايه لما تعاكس واحدة زيي ؟

فلم يجب شوقي على سؤالها هذا أيضًا :

فعاودت تسأله مرة ثالثة :

طب جاوبني بصراحة يا شوقي إنت بتروح المدعوق ده اللي بيسموه سايبريا وله .

هز شوقي رأسه بالإيجاب فابتسمت أسماء بعدما وجدته استجاب لواحد من تساؤلاتها فبدأت تستدرجه في الكلام :

- وبتتفرج على الإنترنت يا وله :
- أفلام و...

قاطعته :

- بمناسبة الأفلام أنا باسمع إن فيه أفلام حلوة بتتشاف في السايبر.
- حلوة قوي يا ست أسماء .
- طب احكيلي يا وله يا شوقي .

سكت شوقي مرة أخرى ولم يستطع مجاراتها في الحديث بعدما وجد يدها تطول بعضًا من أجزاء جسده تتحسسها ولولا الترابيزة الفاصلة بينهما لحدث ما لا تحمد عقباه بالنسبة له ، أما أسماء المكتفية بالقدر المناسب بما فعلته لعدم طيقها رائحة ملابسه المتسخة وودها فعل أكثر مما فعلته به من اقترابها منه ووضع يدها على أماكن حساسة في جسده لولا تصبيرها لنفسها بأن الذي سيآتي في الغد هو أفضل ، وبعد سؤالها لشوقي وهي تضع يدها على أنفها :

- إنت آخر مرة استحميت فيها امتى يا وله يا شوقي ؟

عاود شوقي الصمت ولم يجب على سؤالها هذا الذي أحس من خلاله بالإهانة الموجهة لشخصه.

فقالت له وهي تودعه :

- وإيه رأيك يا وله يا شوقي لو حميتك بإيدي دول ، أنا منتظراك في الغد وأول

ما تصحى من النوم إبقى تعالى أنا منتظراك ، والكلام دا بيني وبينك بس، إياك أن يعرف به أحد ، ولا تجعل عمك عبده يراك وأنت بتخبط على باب الحجرة .

(١٢)

ذهب مصطفى لمبتغاه بعدما ودع كنكة ، وهو في حالة من الضجر واليأس متمنيًا ضبطه من قبل صاحب الشقة الذاهب لسرقتها ، لدرجة أنه دلف إلى داخل الشقة المختارة لعملية السطو متعمدًا حدوث ضجيج وجلبة فيقبض عليه ويلقى في السجن ويستريح من حالة التفكير المستمر في حبيبته شربات ، لكن خاب أمله عندما وجد المنزل خاليًا من أصحابه ، فسرق ما وقعت عليه عيناه من أموال المتخصص في سرقتها دون غيرها ، وخرج من المكان يلعن الحظ الذي لم يقف بجواره ولو لمرة واحدة في حياته .

لم يكن سعيدًا بما غنم في تلك الليلة ، حاول بقدر المستطاع الترويح عن نفسه لكن حالته النفسية حالت دون حدوث هذه السعادة ، فقرر إجبارها على ذلك بدخول أقرب كازينو قابله في طريقه .

وضع أغلب غنيمة السرقة في يد النادل وأمره أن يجعله شغلته هذه الليلة ليس عليه فقط سوى تزويده بزجاجات الخمر المليئة كلما رأى الزجاجات الموضوعة أمامه فارغة ، فلم يكذّب النادل خبرًا وراح يعمل على ما أمره به بكل جد واجتهاد ، لدرجة جعلت مصطفى ينهل من الشرب حتى آخر درجة من الثمالة جعلته يتذكر بصعوبة بالغة الحي الذي يقطنه .

كان آخر زبائن الكازينو الخارجين منه مسنودًا على كتفي نادلين أوصلاه لأول سيارة أجرة توقفت أمام الكازينو بإشارة منهما ، كانت الشمس وقتها أعلنت عن بزوغ ضوئها ، في هذا الوقت حاول سائق السيارة الأجرة معرفة عنوان منزله ، أشار له مصطفى ناحية ورشته وأمره بالتوقف أمامها وأخرج من جيبه ما تبقى من أموال ورماها في حجر السائق الذي لم يقبل بأكثر من أجرة الطريق ، وسأله السائق الأمين وهو يسنده إلى جوار باب الورشة إن كانت تخصه فأخبره مصطفى بصعوبة أنها ورشته فمد السائق يده بباقي المبلغ إلى داخل الورشة من أسفل عقب الباب ، ناداه مصطفى وهو يدير محرك السيارة وقال له :

- يا ريت الناس كلها يا أسطى يبقوا أمناء زيك ، روح ربنا ينوّر لك طريقك.

غفلت عينا مصطفى ونام لبرهة من الوقت لم يفق منها إلا على صوت الضجيج الصادر من أبواب الورش المجاورة لورشته ، اصطكاك يعترف بنزع أجساد الأبواب عن قلوبها المطمئنة طوال الليل بأن لصًّا يشابه سطوه سطو مصطفى الليلي لن يحاول مجرد المحاولة في اقتحامها من الداخل وإلا فضحه ذلك الاصطكاك الذي يتخذه بعض سكان الحي منبهًا يوقظهم من أول دقة من دقاته .

نهض مصطفى يترنح والصنايعية من حوله يضربون كفًّا بكف لما آل إليه حاله ، بحث بينهم عن عبدالرؤوف فلم يجده ، سألهم واحدًا تلو الآخر إن كان أحدهم رآه لكنهم أجمعوا على عدم مجيئه من بيته بعد ، فأخذ وجهته إلى بيت عبدالرؤوف وهو يتوعده بعد إخراجه للمطواة من جيبه ، لم يشأ أحد من المارّة اعتراض طريقه ، كلهم آثروا السلامة ، وقف تحت شباك بلكونته ونادى بعلو صوته عليه :

- انزل يا عبدالرؤوف ، انزل يا أسطى ، انزل يا عديم الإحساس ، ودِيني

لاشقّك نصين واخلّي اللي ما يشتري يتفرج .

أطل عبدالرؤوف برأسه وقال له :

- امشي يا واد يا صايع من هنا لاحسن لو نزلتلك إنت عارف هعمل فيك إيه ، ولو كنت نسيت تربيتي ليك وإنت صبي عندي في الورشة أفكرك .

- نسيت يا عبدالرؤوف ونفسي تنزل تربيني من أول وجديد يا راجل يا عايب ، تعرف ياض يا عبدالرؤوف إنت متلزمنيش لا انت ولا بنتك شربات ، ومتخشوش في ذمتي بمليم احمر ، أنا بكرهك وبكرهها ، وأحسن لك تبعد عن طريقي ، ويا ريت تبعد ورشتك بعيد عن ورشتي عشان هاجيبلك عليها واطيها .

تطوع أحد الصنايعية وذهب ليخبر كريمة والدة مصطفى لعلها تعمل على منعه من الإقدام على ما سيفعله بعبدالرؤوف ، فلم تكذب كريمة خبرًا ومرت على ابنتها سامية وزوجها إبراهيم وأخذتهما معها ، وتمنت وجود بناتها الثلاث الآخرين بجوارها في هذه اللحظات التي تأكد من كلام الصنايعي أن مصطفى لن يترك اليوم يمر بسلام إلا وهو مرتكب جناية في حق معلمه السابق ، من خلال مشاجرة سيضطر دخولها أهل عبدالرؤوف للدفاع عنه من جبروت ابنها الموجوع ، لكنها تذكرت أنها اضطرت لتزويجهم لأولاد إخوتها والمفضلين اصطحابهم معهم ، رافقوهم حيث عملهم في إحدى الدول الخليجية .

لم تكن كريمة تتوقع وجود مصطفى في حالة سُكْرٍ بَيّن ،فترجته سماع كلامها والمشي معها بعد تأسفها لعبدالرؤوف الذي لم يقبل أسفها ، بل إنه هددها وبالغ في تهديده بأنه لن يدخر جهدًا في إيصال مصطفى للسجن على يديه ، فلم تتحمّل سامية كل هذه الإهانات الموجهة إلى والدتها وأخيها ، وإذ بها تدخل في نوبة من الردح أمام سيل الشتائم القاذف بها عبدالرؤوف تجاههم ، وبالطبع

لم يتمالك المارّة أنفسهم وتوقفوا يشاهدون ما يحدث وما ستؤول إليه الأحداث
.

كانت شربات من وراء شباك حجرتها المغلق تتلصص بعينها وتسمع ما يدور من وعيد وتهديد وسباب وشتائم ، فلم تتمالك نفسها بعد تخييرها بين اختيارين أحدهما أصعب من الآخر ، إما الوقوف بجوار والدها ونصره على حبيبها وبذلك ترفع رأسه بين الجيران وأهل المنطقة ، وإما تنزل مسرعة والوقوف بجوار حبيبها وتخرج لسانها لوالدها تعلن له اختيارما أراده قلبها ، وذلك هو الاختيار الذي كان مفضلًا لقلبها لولا ما حدث وما صدر من مصطفى في

تلك الليلة التي أهانها فيها وإعلانه أمام من شاهدوهم من أهل الحارة أنه نزعها من قلبه للأبد ، فقد كانت تتمنى دفاع مصطفى عنها ضد رغبة والدها ويتزوج منها كما أرادت وخططت ، لكن مصطفى خذلها وأهانها أمام والدها الأمر الذي أوصلها لكرهه أشد الكره .

فضلت الاختيار الأول وقررت الوقوف بجانب والدها ونصرته على ما يريده قلبها ، لم يكن باستطاعتها فعل شيء سوى توجهها للمطبخ وملء دلو من الماء وكبته فوق رأس مصطفى ووالدته وسامية وزوجها إبراهيم ، وبمجرد انهمار الماء على كيان مصطفى حتى راح في نوبة من التقيؤ ، كل ما تناوله من خمور خرج كما تناوله من فمه ، أفاق بعدها وعاد لصوابه متمنيًا التأسف لمعلمه وحبيبته على ما بدر منه ، لكن والدته كانت أسرع منه في جذبه من يده للعودة إلى المنزل لتبديل ملابسهم المبلولة بالمياه .

صمم علاء على مرافقة الحسيني وهو ذاهب إلى العمل المستقيل منه لعدم تحمله ضغوطات وإلحاحات منيرة للزواج منه ، من جهته كان الحسيني رافضًا لفكرة ذهاب علاء برفقته بعدما علم منه أنه سيفضح منيرة أمام كل الزملاء إن لم تتراجع عن تهديدها لوالده بإرغامه على تقديم استقالته هو الآخر ما دام علاء رفض الزواج منها .

ظل الحسيني يدعو ربه طيلة الطريق بأن يجيب العواقب سليمة وأن تمر زيارة علاء على خير وليس كما يتمنى وأن يهدي منيرة لهم .

وصل الاثنان والتف الزملاء حول علاء محاولين معرفة السبب الذي جعله يقدم على استقالته ، لكن علاء لم يعطهم حقًّا ولا باطلًا ، لمّح لهم فقط بالتمهل ، وعند وصول مديرتهم فمن الممكن إخبارهم بعد خروجه من مكتبها .

دقائق مرت علم خلالها علاء أن منيرة اتصلت لتوّها ، وقالت إنها ستضطر تحت ظروف طارئة للتغيب عن العمل فاضطر علاء للاستئذان وهو يقول لوالده :

- لقد تقبل الله دعاءك يا والدي وجاب العواقب سليمة .

خرج من المجمع ولم يشأ استقلال سيارة أجرة فقد فضل السير لعله يزيح عن كاهله الهموم الجاثمة عليه حتى استقراره فوق كوبري قصر النيل ، تخطى حارسي الكوبري ؛ الأسدين الشامخين ، وفي نفس مكان المنتحر الذي أنقذه وقف يستعيد الأحداث لدرجة فكرة الانتحار نفسها سيطرت على باله ، فبدأ ينظر لمن يسيرون حوله يدقق فيهم أيهم سيتجرأ ويقدم على إنقاذه من الغرق بإلقاء نفسه خلفه إلى داخل المياه كما فعل من قبل وأنقذ الرجل الذي أوقعه حظه العثر في طريقه وهو المُجيد إجادة تامة للسباحة، ود إيقاف كل المارّين من جواره والتنبيه عليهم بعدم تفكير أحدهم في إنقاذه .

نظر لصفحة المياه النيلية متخيلًا نفسه يغرق ويقبع في القاع وحيدًا بعد انقطاع أنفاسه لا يتحرك يشعر فقط بما يدور حوله لكنه لا يستطيع فعل شيء حيال ما يحدث من جهود تبذل لانتشال جثته من قبل فرق الضفادع البشرية المصممة على ذلك رحمةً بوالديه الجالسين أعلى الكوبري يهنان من البكاء ويكادان يغشى عليهما من هول الصدمة التي أفجعتهما .

- انتبه لنفسك يا ابني ولا تحاول تنفيذ ما يدور في مخيلتك ، أحسن الظن بالله ولا تيأس من رحمته .

نظر علاء بجواره ليرى من يحادثه فوجده رجلًا طاعنًا في السن يكاد يشبه والده في هيئته لكن الحزن المرتسم على وجه ذلك الكهل يجعله أكبر بكثير من والده .

- ماذا تقصد بكلامك يا والدي ؟

- أرجوك يا ابني لا تحاول تصنّع عدم الفهم ، انتبهتُ لحزنك وأنت تنظر لصفحة المياه فتذكرت تلك النظرة التي كانت في وجه الرجل الذي أنقذته من أيام بنفسك .

- إنت شوفتني وأنا ....

- أيوه يا ابني ، وكنت في طريقي لإقناعي له بالعدول عن فكرة الانتحار لكن زي ما انت شايف سنّي ما يسمحش إني أجري ، مكنتش هسامح نفسي لو الراجل دا مات ، لكن الحمد لله شفتك وأنت بترمي نفسك وراه وبتنقذه .

- وإنت عرفت إزاي إن أنا ممكن أعمل دلوقتي زي الراجل اللي أنقذته .

- قلب المؤمن دليله يا ابني ، ودي نعمة من ربنا منَّ عليّ بفضله بيها ، أو ممكن لو متصدقنيش وتضحك عليّ زي اللي ضحكوا من كلامي ، إحسبها خبرة ، خبرة عشرين سنة .

- ياه عشرين سنة وإنت ...

- أيوه عشرين وأنا هنا تلاقيني يوميًّا ، لا يمنعني عن المجيئ غير الشديد القوي ، أتنقل من الكوبري دا للكوبري دا وحتى آخر كوبري مقام على نيلك يا قاهرة ، وساعات لما بتعب ومقدرش أروح للكوبري اللي بعده والذي يليه بارفع إيدي لربنا أدعوه يوصل صوتي لكل يائس إنو يهديه ويخليه يبعد فكرة الانتحار دي عن نفسه الأمارة بالسوء .

- والمقابل من تعبك دا إيه يا والدي ، ما أظنش إنك لما تمنع نفس بشرية من إزهاق روحها عن طريق الانتحار كده يبقى رضيت ضميرك ، مش ممكن الإنسان دا عايز يستريح ويريح اللي حواليه بموته ، وممكن كمان إنت لما تمنعه ساعتها بمنعك بتسيبه يرتكب جريمة في حق اللي حواليه اللي هما برضوا السبب القوي في إقدامه على الانتحار، وكده يوصلهم رسالة قوية وهي أن انتحاره ذنب في رقابهم لحد يوم الدين .

- كلامك ممكن يكون فيه شيء صح يا ابني لكن ...

- من غير لكن يا والدي ، يا ريت ، أقصد إن أنا لو اتكرر معايا مشهد انتحار من أنقذته دلوقتي كنت سيبته يواجه مصيره اللي اختاره بنفسه .

- متناقضش نفسك يا ابني ، ليه بس بتضيع كل اللي عملته في لحظة يأس.

- يأس يأس يأس ، تعرف إن الكلمة دي هي السبب في اللي كنت هعمل على تنفيذه لولا مجيئك .

- ياه فكّرتني ... « ودمعت عينا العجوز « .

ربت علاء على كتفه ..

- أنا آسف يا والدي إن كنت ...

- لا يا ابني متتأسفش إنت دلوقتي بس صحّيت جوايا سرّ كنت مفكر إن هاحتفظ بيه لنفسي حتى مماتي ، سرّ محدش اطّلع عليه إلا زوجتي ؛ الله يرحمها ، اسمع يا ابني .. من عشرين سنة كان لي ولد يماثلك في السن ،

وسبحان الله يشبهك في الشكل ألقى بنفسه من هذا المكان الواقف فيه أنت الآن ، وتركني ووالدته نُعاني الوحدة والبكاء ليل نهار على فراقه لنا دون أن يودعنا ، عارف يا ابني انتحر ليه ؟

جمع علاء كل تركيزه في كلمتي « ليه يا عمي « وانتظر باهتمام ما سينطق به لسان العجوز .

- لأنه ببساطة لم يصبر على ما ابتلاه الله به .

- وضّح يا والدي أرجوك .

- أنهى دراسته الجامعية وظن أن الدنيا ستفتح له أبوابها وتحقق له كل أمانيه ، اصطدم بالواقع المرير ، كان قدّامه خيارين ثالثهما مُرّ الأمرّين ، الأول إنو يشتغل مندوب بيع زي أغلب شباب اليومين دول ، وثانيهما إنو يشتغل سواق ، ونظرًا لمؤهله العلمي رفض ، أصله كان خريج علوم قسم علوم الفضاء .

- والخيار الثالث كان إيه يا والدي ؟

- إنو يبقى تاجر مخدرات زي أغلب زمايله في قسم الكيميا ، أصلهم تقبلوا الواقع وسايروه عشان يعيشوا ويحققوا أحلامهم اللي لقوا تحقيقها سهل من خلال دخول هذا العالم المليء بالمخاطر.

- وأخبار زمايله اللي سلكوا الطريق ده حالهم إيه دلوقتي يا عمي ؟

- هو يا ابني اللي بيختار طريق الضياع بتكون نهايته إيه غير الضياع .

- شوقتني يا والدي أسمع حكاية ابنك الله يرحمه لنهايتها .

- ظل حبيس الجدران الأربعة عاطل عن العمل ، عملت وقتها على تذكيره بالصبر لكن اليأس تمكن منه وذهب بلا عودة ، رمى نفسه في المية ومات كافر يا ابني ، لحد دلوقتي قرايبي ومعارفي مفكرين إنو مسافر لأمريكا

بيشتغل مع الدكتور فاروق البازفي ناسا ، غلبانين لحد دلوقتي مصدقين كلامي ومتعشمين رجوعه عشان يتباهوا بيه زيي قدام الناس كلها ، القصد يا ابني ؛ ومن يوم موته أقصد انتحاره وأنا باحاول منع الكثيرين من أمثاله على مجرد التفكيرفيما فعله لعل الله يستجيب لدعائي ولصنيعي ويغفر له .

- بس إنت مجاوبتنيش لما قولتلك ممكن الإنسان اللي بينتحر ، بانتحاره أرواح ناس كتير حواليه تكون بتموت بسببه كل يوم ميت مرة وممكن يحصل العكس وتتنقذ الأرواح دي وتعيش في أمان وسلام .

- يا ابني أنا ميخصنيش إن الإنسان اللي أقنعته عن فكرة الانتحارإنو يصرّ على عمل حاجة وحشة في نفسه أوفي اللي حواليه بعد كده ، أنا دوري في حدود ذلك المكان الذي تراه من حولنا ، لكن إذا حبيت تعرف المسئولية تقع على عاتق مين بعد كده يبقى ترجع وتسأل الحيتان الكبيرة اللي من واجبها توفيرحياة كريمة لكل شاب حصل لتوه على شهادته الجامعية من وظيفة مناسبة وسكن ملائم وأكل وشرب وخلافه .

- كفاية يا والدي ، كفاية يا راجل يا طيب ؛ أتاريك بتدوس ع الجرح وأنا مش داري ، عندك حق ، ياريت الحيتان تصحى من نومها ، وتبص للسمك الصغيراللي حواليها بيحلم إنو يعيش مش شرط إنو يكون حوت زيهم ، بس يسيبوه يعيش حياة بني آدمين صح .

- هيييييه يا ابني هتقول لمين وهما ولا هنا .

احتضنه علاء وهو يودعه بعدما ذكّره العجوز بقول الله تعالى عن اليائسين من رحمته : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون» .

***

أحس علاء بوِلادته من جديد ، فدخل منطقة سكنه مشرق الوجه ، مقبل على

الحياة بنفس راضية لما قسمه الله له ، أراد أن يكون مصطفى أول من يعلم بما اتخذه من قرار الزواج بمنيرة ؛ لأنه الوحيد الذي حاول إقناعه بعدم التردد في الزواج منها ، كان على مقربة من سكن مصطفى عندما رأى سيارة منيرة متوقفة جانبًا ومنيرة خارجة لتوّها ومن خلفها مصطفى يمدّ يده ويتناول منها مفاتيح سيارتها ليقودها كما أمرته ، لم يشأ علاء الظهور في الصورة في هذه اللحظة ، اختبأ وراء جدار حتى مرقت السيارة من جواره وهو يرى الفرحة على وجه مصطفى لا تكاد تفارقه ، تملكه شعور الغيرة عليها للحظات ، لكنه سارع بهزّ كتفيه لطرحها أرضًا وقال لنفسه :

- لعل منيرة برفقة مصطفى ليصلح لها عطلًا ألم بسيارتها .

وأكمل يقول :

- تتحمل بقى عند وجودها لأغلب كماليات سيارتها طمع فيها مصطفى وسرقها .

عاد للبيت ، قبّل يد والدته ، وأخبرها بما كان يريد إخباره لمصطفى أولًا ، فأبدت الأم اعتراضها فيما كانت تؤيده فيه على طول الخط لكنها تراجعت عن تأييدها زوجها في موافقته على زواج علاء من منيرة ، صُدمت عند رؤيتها لمنيرة وهي ترحب بها أثناء مجيئها للاطمئنان على علاء ، فأحست أن حلم حياتها برؤية أحفادها من ابنها الوحيد لن تتحقق إذا ارتبط بها وهي من كانت تظنها شابة على وشك تخطيها السن الأربعيني وليست عجوزًا في الثامنة والخمسين من العمر ، وتقاسيم وجهها وهيئتها تدلان على اقترابها من سن التسعين ، حتى الحسيني عندما علم بأمر موافقته أبدى دهشته من تغير علاء المفاجئ ولم يجد غير أنه قال له :

- فليوفقك الله ، إنها حياتك وأنت حرٌّ ما لم تضرّ.

انحني علاء على يدي والديه وقبلهما وهو يودعهما مساءً للجلوس لبعض من الوقت على القهوة التي أصبح من المعتاد جلوسه عليها كل ليلة ، اندهش عندما وجد المكان المخصص لمصطفى خاليًا ، نادى على كنكة وسأله عن مصطفى فأجابه كنكة

- لم يحضر الليلة .

انزعج علاء وقال لكنكة :

- أكيد مصطفى حصلت له حاجة .

ظانًّا منه أن مصطفى وقع تحت أنياب من لا ترحم ، وقال في نفسه :

- أكيد منيرة اكتشفت ما فعله بسيارتها ، وهو الآن في قسم الشرطة حبيس زنزانته حتى يعرض على النيابة صباحًا .

لكن كنكة طرد ظنونه عندما مال على أُذنه وأجابه بما لم يعلمه صباحًا من أمر دخول مصطفى الحيّ سكرانًا وخناقته مع معلمه عبدالرؤوف التي يعلم بها كل الحي ، فطرد علاء على الفور ظنه وقال لكنكة :

- لعله إذن لم يأت لهذا السبب !!

أجابه كنكة :

- كل شيء ممكن .

تركه كنكة وهو يجيب أحد الزبائن :

- أيوه جاي .

شرب علاء شايه وقام آخذًا طريقه إلى شقة مصطفى كي يطمئن عليه ، دق الباب بيده من خلال عدة خبطات متتالية ، ففتحت له كريمة والدة مصطفى،

وأخبرته عندما سألها على مصطفى أنه لم يعد منذ خروجه عصرًا مع امرأة طاعنة في السن زارته عند الظهيرة ، هز علاء رأسه وقال لها :

- خلاص عرفت هو فين دلوقتي يا ست أم مصطفى .

تركها وعاد أدراجه إلى القهوة ينتظر بفارغ الصبر قدومه ، جلس مكانه وأمر كنكة برصّ كرسي معسل ، وكرسي وراء كرسي لم يدر بنفسه إلا وهو يسمع كنكة يقول له :

- عن إذنك يا أستاذ علاء ؛ الفجر شقشق ونويت أقفل فهل عندك مانع ؟

(١٣)

لم ينم الصبي شوقي ليلته ، جلس القرفصاء في ركن قصيّ بالحجرة التي تؤويه هو وإخوته الأربعة الصغار ووالده ووالدته ، ظل يفكر فيما قالته له أسماء وأخذ يستعيد شريط ما داربينه وبينها مرات ومرات ، وكل مرة يستعيد فيها الأحداث يدبّ في جسده النشاط والحيوية ، فيفر النوم هاربًا بلا رجعة ، لدرجة أن والده أقلقته قرفصته عندما نهض باكرًا كالمعتاد ليفتح كشك أكل عيشه هو وأولاده ، سأله :

- ما لك يا واد يا شوقي ؟ ما الذي جعلك تجلس هكذا ؟ أهو مرض ألمّ بك ؟ تكلم يا ولدي .

رد عليه شوقي :

- مفيش يا بوي .

وطرح جسده أرضًا وأغمض كلتا عينيه يتصنع النوم وما هو بنائم بل إنه لأول مرة يشعر بانتصاب علامات الرجولة تدبّ في أوصاله ، يسأل نفسه هل أصبحتُ رجلاً يجب الاعتماد على نفسي منذ هذه اللحظة ؟ وأكمل يقول : ليس من المفترض عليّ مخالطة الأولاد الصغار مرةً أخرى ، لقد أعجبت أسماء زوجة عمي عبده ، وارادتني كما يفعل الرجال بالنساء على اليوتيوب ، ولولا ملابسي

المتسخة لكنت نائمًا في أحضانها الآن .

انتظر بفارغ الصبر حتى خلت الحجرة من إخوته الصغار المتخذين من الشارع مأوى لهم طيلة نهار اليوم ، وأمه التي تخرج هي الأخرى لمساعدة والده عن طريق بيعها بعضًا من أنواع الخضرة ، تجلس بجوار كشك مصدر رزق الأسرة حتى تنتهي من بيع خضرواتها ، وبعدها تذهب للتسوق وتعود مثل إخوته آخر النهار ، وبهذا لا يجتمع لمّ شمل العائلة المكونة من سبعة أفراد إلا ليلًا داخل الحجرة الوحيدة التي لا يتواجد فيها غيره الآن ، وداخل الحمام أخذ يتحسس عضوه الذكري وهو مزهوّ بما اكتشفه من مستجدات طرأت على تكوينه الجسماني .

خرج يستحث خطواته على الإسراع للحاق بأسماء التي نبهت عليه أن يكون حذرًا وهو يدق باب الحجرة عليها لئلا يراه عبده زوجها .

فتحت أسماء باب الحجرة لترى من يقف بالخارج ، نظرت لشوقي وتفحصته من رأسه لأخمص قدمه : « ماذا تريد يا شوقي ؟ « سألته وهي تود إعلامه بأنه ليس بالشخص الذي تشتهيه لصغر سنه ، وبينما هي كذلك ودت لو كان أكبر من عمره هذا بخمس أو ست أو عشر سنوات ، كررت عليه سؤالها مرة أخرى ماذا تريد يا شوقي ؟ والصبي الصغير لا يدري أي الكلام يردّ عليها بعدما وجد في عينيها انطفاء تلك الرغبة التي كانت متقدة بليلة الأمس ، رمى ببصره أرضًا ، وأدار ظهره لها والتقهقر جليٌّ في الخطوتين اللتين بعد بهما عنها ، سمع صوتها يأمره بالدخول بعدما قالت لنفسها : «وما له يا بت ؛ عيل عيل جربي ، هو انت خسرانة حاجة ، لو جه منه يبقى خير وبركة ، ولو فشل يبقى خلاص ولا كأن حاجة حصلت «.

- تعالى يا شوقي ادخل ، تعالى يا وله متخفش ، أنا كنت بهزر معاك .

وأغلقت باب الحجرة وراءه تطمئنه بأنها كانت تختبره فقط ، أشارت له بيدها

إلى الحمام وهي تقول له اسبقني إليه وطمأنته أكثربقولها :

- من حسن حظك أني سأحميك حمومة لم تكن تحلم بها يا وله وعلى راحتي، بعد ذهاب عمك عبده لمشوار بعيد لن يعود منه إلا آخر النهار.

***

أصرت جيهان على حضور أولى جلسات الدعوى التي أقامتها ضد المحافظ تحت دعوى السبّ والقذف ، وتقديم المستندات الدالة على ذلك بيدها للقاضي ، وضربت بأمر منصور عرض الحائط وهو يثنيها عن الذهاب بألا تذهب ، لسببين : أولهما أن الجلسة لن تستغرق أكثر من دقائق لتأجيل نظر الدعوى للاطلاع على المستندات ، وثانيها زبانية المحافظ الذي أصبحوا يتربصون بها وبه في كل مكان يذهبان فيه إليه ، هذا غير التهديدات التي يتلقونها عبر الهاتف إن لم يتراجعان عما يقدمان عليه فستكون نهايتهما وشيكة ، فكان أول ما فعله منصور التخفيف من حدة الهجوم على المحافظ وعلى الحكومة نفسها ، من خلال سلاح المقالات التي لا يكلف نفسه جهدًا بكتابتها بل هي من كبار محرري الجريدة الذين لم يكن يعجبهم بأي حال من الأحوال الانحدار الذي وصل إليه المحافظ وتخلّيه عن الردّ الدبلوماسي الذي كان حتمًا سيجنبه شرّ ذلك الهجوم الشرس الذي يطاله يوميًّا من سَنّ أقلامهم التي أبدًا لن تهدأ إلا بإقالته من منصبه .

كان منصور يعلم أن زوجته في أشد الحاجة إلى من يقف بجوارها في هذه اللحظات الحرجة التي تمر بها في حياتها من جانب ومن جانب آخر حوار جانبي من أحد المقربين من المطبخ السياسي يرجوه تقديم استقالته ويرحل في هدوء وسلام ؛ لأن السكاكين تسن بالفعل لذبحه وسلخه مثل الشاه في أقرب سلخانة

تقابله في طريقه، وهو يعلم جيدًا ماذا تعني تلك الكلمات جيدًا .

صمم عسقلاني على الذهاب برفقتها إلى المحكمة وهو يقول لها :

- معادن الرجال لا تظهر إلا في الشدائد وأنت لم تتخلِّ عني وعن زوجتي وقت وضعها لمولودنا ؛ لذلك فقد عاهدت نفسي على دفع أي ضرر يحيق بكِ أو بالبيه منصور ، شكرته جيهان وقالت له :

- هكذا أعهدك دائمًا يا عسقلاني أخ وقت الشدة وابن بلد بصحيح راجل وشهم .

ذهبت وكاميرات التلفاز المختلفة بقنواتها تحيط بها، زملاؤها من كبار المذيعين والمذيعات من مقدمي البرامج المختلفة حاولوا إجراء لقاء معها على الهواء فامتنعت تحت تبرير أنها لن تظهر إعلاميًّا وبالتحديد على شاشات التلفاز إلا بعد الحكم في القضية ، وأكدت لكل من أتى من مراسلي الصحف أنها ليست خائفة من التهديدات المرسلة إليها بشكل منظم طيلة اليوم .

لم يكن الوقت الذي قضته بالخارج بالطويل ، نظرت في ساعة يدها وهي تتأمله ، وشكرت عسقلاني وقالت له : لولاك لما أتيت بهذه السرعة ؛ لجرأته الشديدة في النزول من السيارة كلما توقف الطريق وتطفله على عسكري المرور يرجوه فتح الإشارة ؛إشارة عسكري المرور اليدوية التي من الممكن أن يغلق بها طريقًا دون الآخر لمدة لا يقرر زمنها إلا حسب هواه ومزاجه الشخصي ، لأن برفقته حالة مستعصية لا بد لها من الذهاب للمستشفى في التوّ واللحظة .

أقنعه عسقلاني بكلماته تلك ، فما كان من عسكري المرور إلا الوقوف في نهر الطريق يمنع بجسده السيارات المارّة من الاتجاه المعاكس غير خائف من دهسٍ سيتعرض له إن عاجلًا أم آجلًا ، بسبب تلك الطريقة الغبية التي يكون مجبرًا

من خلالها حل مشكلة الزحام والتكدس وحده ، يبحث عن رؤسائه ، يطمئن إن كانوا راضين عنه أم أن وقت تكريمه تحت شعار شهيد الوطن أعظم من يحل مشكلة المرور في العالم أجمع الذي فرمته سيارة لم يتحكم سائقها في الفرامل وهو يحاول الإذعان لإشارات يده بالتوقف ، يحاول ذاك العسكري استرضاء رؤسائه الجالسين على مسافة تقارب الخمسين مترًا منه ؛ كي تمر مدة خدمته بسلام ، وينال شهادة انتهاء خدمته العسكرية بقدوة حسنة حتى يستطيع العثور على عمل يشترط ألا تكون تلك الشهادة في أي حالٍ من الأحوال رديئة ، يراهم في مأمن من أي غدرٍ يتعرضون له كما يظنون ، يضعون ساقًا فوق الأخرى في عالم آخر يفصلهم عن ذلك العالم الذي يعج بالضجيج حولهم من خلال اللاسلكي يثرثرون بحاضر يا فندم ، عُلم يا فندم ، كله تمام يا فندم ، هناك سيولة غير عادية في المرور يا فندم ، وهم بكلامهم هذا يعلمون أنهم كاذبون يضحكون على الوطن الذي يطالبهم ببذل أقصى ما في طاقاتهم لحل مشكلة استفحلت ولم نعد مع مرور الوقت الاستطاعة في إيجاد حلول بديلة لها إلا بنقل العاصمة بأكملها إلى الصحراء الرحبة الواسعة الفسيحة حتى نستطيع بين يوم وليلة حل جميع المشاكل التي تواجهنا .

- شكرًا يا عسقلاني ، مش عارفة من غيرك كنت هاعمل إيه في الزحمة دي النهاردة .

- على إيه يا ست هانم الفضل كله يرجع لله أولًا وأخيرًا وهو وحده أيضًا من سينصرك على من يعاديك .

تذكرت تليفونها المغلق ففتحته واتصلت بمنصور لتطمأنه على سلامة عودتها ، ولم تنسَ وهي تُنهي معه المكالمة التأكيد عليه بالانتباه لنفسه جيدًا وهو عائد من عمله ، فطمأنها منصور بألا تخاف لأن الأمر لم يصل بعد لمرحلة الخطورة التي تتصورها وإنما هي مجرد مرحلة جسّ نبض .

(١٤)

جلست العائلة الصغيرة المكونة من ثلاثة أفراد الأب والأم وابنهما علاء حول مائدة الطعام يأكلون والصمت المطبق يرافقهم ، أصوات تسمع فقط صادرة من اصطكاك الملاعق بحواف وباطن الأطباق ، فلم يكن هناك من جديد في القول ليتكلم به أحدهم ، أصبحت حياتهم شبه سائرة على وتيرة واحدة ، أَلِفَها ثلاثتهم ، يصاحبها الملل من كثرة التكرار ، فالوالد الحسيني أصبح يذهب بمفرده إلى عمله دون رفقة ولا صاحب بعد استقالة علاء ؛ الذي اعتاد على السهر حتى الصباح والنوم معظم النهار لا يستيقظ إلا عند سماعه صوت والده وهو يلقي التحية على والدته عند عودته من عمله ، فيجلس معهما لتناول مثل هذه الوجبة ويستأذنهما بعد ذلك في الخروج ، إنه أسبوع مضى على هذا الحال ، بضع كلمات تخرج من فمه موجهة إلى والده مكونة مجموعة أسئلة يتعرف من خلالها على عالم منيرة الذي رفسه كالحمار ، ها هو الآن ينتظر بشغف عودتها ليقدم لها ولاء الطاعة بالزواج منها :

- ألم تأت منيرة إلى المؤسسة بعد يا والدي ؟

فيجيبه الحسيني :

- الظاهر أنها مصممة على عدم المجيء إلا بعد مضي آخر يوم في الشهر الذي علمت أنها أخذته أجازة كاملًا ، دا غير إني سمعت من أكثر من زميل أنها

تزوجت وتقضي الآن شهر العسل مع زوجها الشاب ، يا إما في الغردقة أو شرم .

تجرع علاء مرارة العلقم الذي زار حلقه عند سماعه ذلك الخبر من والده، فرّ إلى الحمام وأفرغ ما التقمته معدته من طعام ، وبدت حالته النفسية أشد سوءًا من ذي قبل ، لم يكن ليهدأ له بال إلا بعد التأكد من خبر والده الذي رمى به في حِجره ، فأصبح هو من يتحين الفرصة لمعرفة أخبارها منه متعللًا بأنه لا يريد منها شيء إلا سماحها له بالعودة مرة أخرى ، وأن استقالته التي قدمها إليها كانت في لحظة غضب ، ولم يكن لوالده أن يعلم أن في قرارة نفسه ينتظر مجيئها ليقول لها لقد قررت الموافقة على الزواج منك ، متحسرًا على مطارداتها له ، لدرجة أنها كانت تتمنى تقبيل التراب الذي تمشي عليه قدماه .

استوقفه الحسيني وهو يهم بالانصراف ، قال له :

- تعالى يا علاء يا ابني ، أريد أن أعرض عليك أمرًا تناقشنا فيه سويًا أنا ووالدتك بالأمس .

جلس علاء وقال له :

- خير يا بابا !!
- خير يا ابني إن شاء الله .
- لقد توصلت أنا ووالدتك إلى قرار فيه الخير كل الخير لك .
- وما هو يا والدي ؟
- الزواج ، نتمنى رؤية أولادك قبل رحيلنا عن هذه الدنيا ، فأنت تعلم أن العمر لم يعد فيه إلا القليل ، فما رأيك ؟

- طولة العمر ليك يا والدي إنت وماما ، إنت عارف إن زواجي موضوع مفروغ منه ، فحالي لا يخفى عليك ، من أين آتي بالأموال ثم هتروح تقول للناس إيه اللي هتقدّم لبنتهم ، ابني لا معاه تمن شبكة ولا عفش ولا جهاز وكمان مفيش شقة ، والمصيبة السودة إنو عاطل عن العمل !!

- لا تلقي بالًا بشأن كل هذا ستتدبر إن شاء الله .

- كيف ؟

- كيف دي سيبها على ، لقد مررت اليوم على البنك وسحبت كل تحويشة العمر لأضعها بين يديك ، أما بالنسبة للشقة ، فالشقة واسعة والحمد لله ، ويكفيني أنا ووالدتك حجرتنا فقط إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا .

- لن أعارضك يا والدي فيما قلت ، لكن أنسيت أمر العمل ، لقد أصبح ابنك الوحيد عاطل بدون عمل ، أترتضيها يا والدي ؟! ثم أين العروس التي سترضى بي زوجًا .

- كتييير يا ابني ؛ شاور إنت بس ومالكش دعوة .

- لا يا والدي إظاهر والله أعلم إنه انكتب عليّا أتزوج منيرة ، هي القسمة والنصيب ، وزي ما بيقولوا المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين ، وسأصبر نفسي حتى نهاية هذا الشهر لمقابلتها ، وأعرض عليها ما كانت تسعى ليل نهار لجعلى أوافق عليه ، عن إذنك يا والدي .

خرجت عزيزة عليهم بكوبين من الشاي تنادي على علاء وهو يفتح الباب :

- الشاي يا ابني .

- سأشربه على القهوة ياماما مع مصطفى صاحبي .

نزل علاء درجات السلم وهو يضحك من كثرة الحظ السيئ الذي أصبح يلازمه في كل تحركاته ، يعلق على ما صدر منه وهو يودع والديه من أنه سيشرب الشاي مع صاحبه مصطفى بقوله : وأين مصطفى ؟ لقد تركني هو الآخر ولا يعلم أحد بمكانه ، لازمًا أمُرّ كل يوم على والدته لأسألها عنه ، أو لعلني أجده قد أتى من عمله الذي أخذه فجأة من الحي ولم يعد بعد ، سار في الحي يضرب بقدميه الأرض غير آبهٍ لمن حوله ، تائه في عالم آخر ملؤه الضجر واليأس .

سمع صوت زغاريد صادرة من إحدى شقق البيت الذي يسير بجواره ، فشد انتباهه أن يعرف من أين تأتي هذه الزغاريد ، ولمَ لا ؛ فالأمر أصبح يخصه ما دام صاحبه غائبًا ، فسأل إحدى المارّات بجواره من نساء الحي :

- متعرفيش مصدر الزغاريد دي في آني شقة ؟
- عقبالك دي شربات بنت المعلم عبدالرؤوف بتقرا فتحتها على راجل عترة بيقولوا إنو من الخليج وثري ثراء فاحش ، ربنا يتمم لها على خير، أهو أحسن لها من مصطفى صاحبك الصايع الحرامي .
- خلاص بس يا ولية ، إتسدّي بقى .

تركها علاء وأكمل طريقه قاصدًا شقة مصطفى يتمنى ألا يجده هذه المرة ، اطمأن عندما أخبرته والدته بأنه لن يحضر إلا أول الشهر المقبل ، أعلمها مصطفى بذلك عندما هاتفها وطمأنها بأنه تأقلم مع عمله الجديد رغم الصعوبات التي واجهته في البداية ، وهو لا يعرف كيف يتعامل مع ذلك النوع الذي يحاول إصلاح أعطابه الكثيرة وهو مغمض العينين ، وأخبرها أيضًا أنه كاره له لكنه أفضل بكثير من ورشته التي تهاوت بعد هروب زبائنه بلا عودة ، وأن الفرحة مش سيعاه لأنه يكسب أموالًا أضعاف ما كان يجنيها في الماضي ، فاستأذنها علاء بعدما وجد صعوبة في فهم تلك الألغاز التي تتحدث بها ، هم

بالاتصال به لكن شريحة هاتفه يبدو أنه استبدلها بشريحة أخرى ورقم جديد : « هذا الرقم الذي تحاول الاتصال به غير موجود بالخدمة « ، تذكر مهاتفته لوالدته فعاد إليها يستأذنها في تليفونها متعللًا بأن رصيده نفد ، أوصته كريمة وهي تعطيه تليفونها ألا يخبره بأمر خطبة شربات ، فقال لها علاء :

- هو انتي عرفتي !!

فردت عليه والحزن يكسو وجهها :

- الراجل المفتري أبوها بعث لي بالأمس أحد صبيانه ، وأوصاه بإخراج لسانه لي وأنا أفتح له الباب وهو يقول لي إن المعلم عبدالرؤوف يعزمك على قراية فتحة بنته شربات .

انتهت المكالمة بين الصاحبين والتي لم تدم أكثر من دقيقتين لتعلل مصطفى أن بيده عطلًا لا بد له من إصلاحه ، وودّعه على وعد منه بالاتصال به فور انتهائه من إصلاح هذا العطل.

ودع علاء والدة صاحبه آخذًا طريقه إلى القهوة بعد وصايته لها بألا تتردد في الاتصال به إن كانت تريد أي شيء فهو مثل مصطفى .

شكرته كريمة وقالت له : ربنا يديم المعروف يا ابني ويخليكم لبعض لا يفرقكم عدو ولا حبيب أبدًا .

(١٥)

تطورت العلاقة بين أسماء والصبي شوقي بعدما وجدت أسماء فيه ملاذها ، حيث وجدته الشخص الوحيد الذي لم يتردد في إشباع رغباتها، رغم أن ذلك الإشباع لم يكن بالقدر الكافي الذي يصل بها إلى أعلى درجات الارتواء ، وجدته بئرًا لا يحتاج مجهود لفحته ، لكنها لما ألقت بكوزها فرحة مسرورة وهي تسحبه إلى فمها ظانة أنها ستنهل منه لحد الارتواء فوجدت قطرات قليلة في قعر الكوز لم تشبع ظمأها المنتظر بفارغ الصبر الارتواء منذ أحد عشر عامًا ، انفعلت وركلت البئر بقدميها لكنها تذكرت أنها بانفعالها هذا تردم البئر الوحيد الذي وجدت فيه تلك القطرات القليلة بدون مجهود يذكر، فاقتربت تنفض التراب الذي هالته عليه متأسفة وضحكة صفراء تملأ فمها تجز بأسنانها تداري ذلك الحزن الواضح في دمعات عينيها الخانقة لها .

لم يكن أمامها سوى الانتظار كل مساء بفارغ الصبر حتى ينتهي شوقي من إغلاق الكشك وهي جالسة على مقربة منه يتبادلان بعضًا من الإشارات التي لا يفهمها غيرهما ، بعدما تفتق ذهنها إلى استخدام ما تبقى من حبات المنوم ورمت بحبتين منه في شاي عبده عندما أوقعت بعسقلاني في تلك الليلة التي نهلت منه حتى الثمالة تحت تهديدها له إن رحل دون تجاوبه معها سترقع بالصوت الحياني

وتهمه بمحاولته الاعتداء عليها بعد ضربه لزوجها بآلة حادة على رأسه أفقدته الوعي .

تذكرت نفسها وهي تشتكي للصيدلي أرقها الدائم كل ليلة وخصام النوم لجفونها ، فما كان من الصيدلي إلا أن مدّ يده لها بأقراص المنوم وأوصاها بابتلاع قرص واحد كل ليلة مع ارتشاف بعض من الماء أو أي مشروب سواء كان باردًا أو ساخنًا فستنام على الفور لشدة مفعوله ، بل وسيجعلها تنام نومًا عميقًا لا تفيق منه إلا في صباح اليوم التالي ، وبذلك كانت حريصة كل الحرص على وضع القرص المخدر في كوب الشاي الحريصة على مناولته لعبده كل ليلة فور تناوله عشاءه .

ولم يكن بالأمر الهين عليها وهي ترى الصبي أمام عينيها يذبل كالورقة المتساقطة من ذلك الفرع الذي يودّ يومًا الاستقلال بذاته يثبت نفسه في الأرض جِذعًا ليكون أسرة من مثيل تلك الأوراق الخضراء اليانعة التي تقطف منه يوميًّا ، فيغدو يومًا له غصون فأفرع يتباهى بها أنها سنده في تلك الحياة التي تتنبأ بذبول أوراقه جميعها وتساقطها ؛ إن لم يحافظ على عوده الغضّ الطري الذي يدخل كل ليلة أم المعارك دون معرفته بكيفية ضرب السهم في القلب وغمد السيف في الجسد القوي المترنح أمامه مستسلمًا لكل ضربة قوية سيهوي بها من يده المنتصبة على ذلك المكان الذي لا يستريح أبدًا من تلك الضربات المؤلمة والموجعة لحدّ الموت ، ولكنها ليست بالمميتة بل هي في حد ذاتها الانجذاب لتلك الحياة التي تعيد الأمل إلى من يلتحم معها في كل مرة يظن أنه قضى عليها .

ترى أسماء جسد الصبي أمام عينيها يهزل وقد برزت عظام وجهه وخارت قواه نتيجة للمجهود الشاقّ المبذول منه لأجل إرضائها كل ليلة إرضاء وإشباعًا لرغباتها وشهواتها.

كانت بالنهار تعاتب نفسها لدرجة البكاء ندمًا على ذلك الجرم التي تعرف أن نهايته هلاك الصبي وهلاكها ، هذا إن لم يصاحب ذلك الهلاك فضيحة ليس لها فقط بل لزوجها الذي ضحّى بكل شيء من أجلها تاركًا هناك في بلدته قعدة شيخ العرب على المصطبة المشيدة له أمام داره واضعًا ساقًا فوق ساقٍ بأمر من أولاده الأربعة القائلين له يومًا : أنت بعد الخالق صاحب الفضل فيما نحن فيه من نعمة يحسدنا عليها كل من في البلدة ، فعيب علينا تركك تتبهدل في أعمال الحقل التي تجهدنا نحن الشباب ، فما بالك وأنت شيخ هرم ، لذا وجب علينا شيلك على كفوف الراحة ، لكنهم عندما وجدوه مرتكبًا حماقته بزواجه من أسماء ، أظهروا له وجوههم القبيحة ، فقالوا له : لقد اقتربت من الشجرة المحرمة التي طردت أبونا آدم من جنة الخلد ، ففهم مغزى كلامهم مفضلًا الرحيل قبل أخذ الأمور منعطفًا هو في غنى عن رؤية عواقبها الوخيمة .

وعندما يخيم الليل بظلامه ينقلب حال أسماء المضطرة أمام أنوثتها الطاغية لأن تكون فرسةً هائجة تبحث عن خيالٍ يمتطي ظهرها ويلجمها بلجام لا يستطيع وضعه في فتحة فمها إلا من خلال سوطٍ ناري يلهب به جسدها ، وحتمًا ستتوسل إليه راجيةً لأن يرحمها من ذلك العذاب الذي ليس ذنبها تذوقه بل شيء ما بداخلها هو الذي يرغمها على ذلك ، ووسط المعاناة التي أصبحت فيها خائفة من فقدان ذلك الشريان الوحيد الذي أصبح وحده موكلًا بضخ الدم إلى قلبها لتدب فيه الحياة من جديد ، فتفتق ذهنها لإعادة الحياة لوجه وجسد ذلك الفرع المتساقطة أوراقه أمامها بتغذيته بالأسمدة المركزة المليئة بالفيتامينات من عمل أشهى وألذّ أطباق الطعام التي ستعين الفرع حتمًا على انتصاب أوراقه مرة أخرى وجريان الدماء في خلاياها ، ترسل له بأطباقها الشهية وهو جالس بين علب الحلوى داخل الكشك تائه في بحور عالمها ، كلما طفا على السطح ليخرج لحقت به أمواجها العاتية لتعيده إلى دوائر من الدوامات البعيدة السحيقة التي

لا هروب ولا مفر من الاستسلام لها في نهاية المطاف .

***

ومن جانب والد شوقي فإنه لم يكلف نفسه جهد عناء التقصي عن حقيقة ذبول وشحوب جسد ابنه أمامه فجأة ، كذلك والدته المشغولة هي الأخرى بسد جوع أفواه إخوته الصغار، ومن جانب عبده استشعر الهدوء النفسي بعد عناء من الشقاء وحالة من الشد والجذب التي كانت تحدث كل ليلة بينه وبين أسماء معركة حامية الوطيس الخاسر الأكبر فيها هي كرامته التي حاول أولاده من قبل الحفاظ عليها .

***

وجد عبده نفسه يبدأ يومه بنشاط وحيوية يحسد عليها لدرجة دخوله في منافسات مع من يجلسون معه على القهوة لمن صاحب النفس الطويل في استنشاق أكبر كمية من الدخان الصادر من الشيشة المتغيرة حجارتها عشرات المرات أمامه .

***

ومن جهة عسقلاني تناسى أمر الاغتصاب الذي تعرض له من قبل أسماء تحت وطأة تهديدها ووعيدها وقت حدوثه ، حتى الحرج الذي كان يلم به عندما يتقابل بعبده تلاشى مع مرور الوقت ، وهو الظان أن حياته عادت لوتيرتها بعد تلك الموقعة الذي دخل معمعتها مكرهًا ، لم يكن يتصور في يومٍ من الأيام أن يرى تلك النظرة الموجهة بسهام نارية إلى شخصه من قبل منصور ولا يعرف ما سببها

، فأصبح لا ينام الليل خائف مما يخبئه له القدر، أحس أن ما ارتكبه من ذنبٍ في حق عبده سيخرجه منصور على جسده بسبب شكوكه التي بدأت تطفو على السطح بسبب مجيئه أكثر من مرة فيجده واقفًا مع زوجته جيهان وهي تصدر له بعض الأوامر - وما أكثرها - من توجيهه لري أشجار الحديقة أو تقليمها أو الذهاب إلى السوق لإحضار بعض الخضار والفاكهة مساعدةً لزوجته الخارجة لتوّها من فترة نقاهة ، تعليمات لا تتعدى حدود العمل لا أكثر ولا أقل ، لكن طبيعة الرجل الشرقي دبت في كيان منصور وبدأت غيرته الدفينة تتّقد اشتعالًا من خلال نظراته التي أصبحت كلامًا يحمل معاني كثيرة لا يفك طلاسمها إلا من يحس بذنب ارتكبه ، ويسأل المولى ليل نهار لغفرانه له ، سألته ناصرة الموجهة لها هي الأخرى تلك السهام النارية رأتها بعينها طالّة من بين عيني منصور ملؤها الشرر :

- مالك يا عسقلاني إنت زعلت البيه منصور في حاجة ؟!!
- وإنتِ إيه اللي خلاكِ تقولي كده يا ناصرة ؟!!
- شايفة عينه بتطق شرار ليّا ف الرايحة والجاية
- طالك إنتِ كمان يا بنت الخال .
- صارحني يا عسقلاني أنا مرتك أم عيالك ستروغطا عليك .

تعمد عسقلاني الهروب بعينيه أرضًا وهو يقول لها :

- يمكن عشان موضوع المحافظ .
- يمكن.
- ويمكن عشان موضوع الخلفة .
- يمكن ؛ لكن احنا مالنا هو احنا قلنا للست جيهان اتخانقي مع المحافظ ،

ولا احنا اللي قلنا لربنا يمنع عنه الخلفة .

انتظرت مجاراة عسقلاني لها في الكلام ، وطال انتظارها ، وجدته مهمومًا ورأسه لم يقو بعد على رفعها عاليًا ، مالت برأسها هي الأخرى حتى الانحناء فأصبح رأسها أسفل رأسه المنكس لترى تلك الدمعات المتحجرة والوجه المكسو بالحزن وخلال لحظات ضربت صدرها ببطن يدها والخوف يتملك منها :

- مالك يا عسقلاني ، الموضوع مش موضوع الست جيهان والمحافظ ولا موضوع الأستاذ منصور والخلفة ، في حاجة إنت مخبيها عليّا .
- مفيش حاجة يا ناصرة سيبيني في حالي .
- نبرة صوتك بتقول إنك مخبي عني جبل هموم وأنا زوجتك ولازم أشاركك فيه .

أقسمت له إن لم يكشف لها عن السبب الحقيقي فسيجدها راحلة هي والأولاد إلى بلدتهم ولن يراها مرة أخرى ، فلم يجد عسقلاني سبيلًا سوى إخبارها بما يراه يوميًا في عيني منصور من شكه في أن علاقة آثمة نشأت بينه وبين زوجته جيهان ، كانت الحيرة تقتله يوميًا وهو يرى تلك النظرات مصوبة إليه ، لكنه عندما سمعهما يتشاجران ، صوتهما العالي الصادر من حجرتهما المغلقة عليهما يكيلان لبعض الاتهامات التي لم يكن يتخيل يومًا أن يقذفا بها بعضهما البعض .

- سمعتهما وأنا بالفناء أروي الأشجار، كما سمعت الشكوك التي تحولت اتهامات لشخصي من أني والست جيهان .....

انتفضت ناصرة وهبت واقفة مصممةً على قضاء باقي ليلتهم في الحجرة التي تناديهم منذ خروجهم منها بأن يعودوا إليها ، ولم تنتظر حتى الصباح كما أخبرها عسقلاني كي يعملا على تنظيفها وتهيئتها لاستقبال عددهم الذي ازداد فردًا آخر

، بادرته ناصرة قائلةً :

- نقضي ليلتنا فيها وفي الصباح ننظفها ونهيئها أيضًا .

ونبهت عليه قائلة له :

- إياك يا عسقلاني منذ هذه اللحظة الدخول إلى داخل الفيلا ، اتركني أقوم أنا بهذه المهمة وانتبه أنت لوظيفتك الأساسية التي أتينا من أجلها إلى هنا وهي الجلوس على البوابة الخارجية لفتح وغلق الباب كما يطلب منك ذلك.

هزّعسقلاني رأسه يعلمها بأنه موافق على كل ما قالته وزادها بأنه سيبدأ من الغد البحث عن مصدررزق آخريرحلان إليه ويجنبهم شرّالوساوس والظنون .

قاما سويًا وحملا أطفالهما إلى الحجرة وقضيا فيها ليلتهم ، وعندما حل الصباح سمعت ناصرة صوت منصور ينادي باسم زوجها ، فأمرت ناصرة عسقلاني ألّا يرد عليه وزادت :

- دعه يزعق كمان وكمان حتى يعلم بنفسه قرارنا الذي اتخذناه ليلًا .

ولما وصل منصور إلى باب الحجرة خرجت له ناصرة وأخبرته أن زوجها لم يرتح في نومته داخل الفيلا ، فطلب منها الانتقال للحجرة فلبت نداءه على الفور ، ولمَ لا تسمع كلامه وهو يكنّ لها كل الاحترام يصونها في غيابها ويغض بصره عن كل شائبة تؤرق عليهما حياتهما .

وهكذا أوصلت بذكائها ما يريد عسقلاني إيصاله لمنصور ، سواء فهم أم لم يفهم .

انزعجت جيهان بشدة لقرار الزوجين المتأهبين للرحيل في أية لحظة ، وحاولت

معهما بشتى الطرق العودة إلى داخل الفيلا لكن ناصرة اعتذرت لها بلطف وشكرتها على كل ما فعلته لأجلها ولأولادها وذكرتها أنها لن تنسى وقوفها بجانبها وقت ولادتها المتعثرة لمولودها الأخير.

وفي المساء عندما اجتمع الزوجان جيهان ومنصور كان قرار عسقلاني وزوجته بالرحيل دائرة الحوار بينهما ، كانت الحرب التي بدأت بينهما ولا يعلم برحاها سوى عسقلاني كما هي لم يعلن أي طرف للآخر بأنه يود رفع راية الاستسلام أو تقديم الاعتذار للآخر ، جيهان من ناحيتها بدت متحفزة تود سماع رد منصور بعدما أخبرته عن نية عسقلاني في الرحيل ، وبدوره منصور ارتسمت الابتسامة على وجهه عند سماعه ذلك الخبر الذي جنبه حتمًا معركة أخرى كان يود بدأها فور تناوله عشاءه ، فقط أسمعها وهو يهرب من دفاعها عن نفسها الذي اقتنع به بالأمس من أنها جيهان الحبيبة الراشدة العاقلة التي لم تكن لتخونه مهما كانت الأسباب :

- في ستين زيحة ، بكرة أجيبلك أحسن بواب وأحسن خدامة في البلد دي كلها .

(١٦)

عاد الحسيني من عمله والفرحة لا تكد تساعه سأل زوجته عن ابنهما علاء ، فأخبرته أنه داخل حجرته فلم يكذب الحسيني خبرًا ودلف إلى داخل الحجرة ملقيًا على مسامعه :

- أبشريا عم ، ابشريا سيدي ..
- خيريا بابا.
- منيرة !!
- مالها !!
- إنت ناسي إنها كانت في أجازة وعادت منها اليوم .
- وما الجديد في ذلك ؟!!
- الجديد أن الخبر الذي كنا نسمعه بأنها تزوجت طلع صحيح يا ابني ، إحمد بقى ربنا أنه نَجدك منها .

بلع علاء ريقه وقال لوالده :

- اللي يهمني دلوقتي يا بابا أن أعود للعمل ، سأحمد الله كثيرًا عندما تسمح لي منيرة بالعودة إليه .

- إن شاء الله يا ابني هترجع تشتغل وسترافقني كما كنت في السابعة صباحًا تؤنس وحدتي في الذهاب والعودة .
- إن شاء الله يا بابا .

***

رن تليفون علاء فأمسكه يتفحص رقم المتصل وتعجب لأن المتصل مصطفى الذي لم تفلح معه محاولاته المتكررة للاتصال به بعد كنسلته عليه عند كل محاولة يحاول من خلالها الاتصال به ، علم علاء من خلال هذه المكالمة القصيرة التي دارت بينهما أنه ينتظره بشقته ليسلم عليه قبل عودته مرة أخرى لعمله الجديد والذي سمح له أرباب العمل بأخذ أجازة قصيرة ليسلم فيها على الأهل والأحباب والاطمئنان عليهم .

وعند الالتقاء تعانق الصاحبان وكل منهما يود معرفة أخبار صاحبه في الشهر الذي مضى ، تدخلت بينهما كريمة واختلت بعلاء جانبًا تريد ألا يزلف بلسانه ويعرف مصطفى بأمر خطبة شربات ، لكن مصطفى سبقها وقال لها : أعرف ما ستقولينه لعلاء يا أمي لا تخافي على فأمر شربات لم يعد يهمني .

- إنت عرفت يا ابني ؟!!
- عرفت يا أمي ، ممكن بقى لو سمحتِ كوبايتين شاي من اللي يعدلوا المزاج .
- حاضر يا ابني .

جلسا الصاحبان وبدأ مصطفى بالكلام :

الواد كنكة سلّم عليّ وأنا جاي على هنا وعرفت منه كل حاجة ، معلش يا صاحبي

تكون في إيدك وتقسم لغيرك ، هي الدنيا كده معاك معاك عليك عليك، ومن غير لفّ ودوران يا صاحبي أنا لازم أقولك على سرّ خطير ويا ريت لما تعرف ما تزعلش مني .

- خيريا مصطفى إنت قلقتني ؟!!
- توعدني يا صاحبي إنك متزعلش .
- أوعدك قول بقى .
- الكلام في سرك أنا اتجوزت .
- ألفين مبروك وألفين بركة .
- وطي صوتك لأحسن لو والدتي عرفت هتطب ساكتة .
- يا ابني هو الجواز عيب ولا حرام .
- أصل العروسة .
- مالها العروسة !!
- إنت تعرفها كويس .
- أنا !!
- ما هو دا اللي محيرني في الموضوع كله وخايف لو قلتلك عليها تزعل مني .
- وضح أكثر الله يخرب بيتك أوعى تكون .
- أيوة هي منيرة ، جات زارتني من شهر وركبتني معاها عربيتها بحجة إن فيها عطل ولن أعرفه إلا بأخذ لفتين ثلاثة ، واحنا في الطريق عرضت على الزواج ، في اليوم دا كانت مشاكل الدنيا كلها محاصراني من كل ناحية دا غير حالة السُّكر البيّن اللي كنت فيها بسبب عبدالرؤوف، مدريتش

بنفسي إلا في صباح اليوم التالي لما لاقيتها نايمة جاري ، أقولك الحق في الأول اتفزعت ، ولما عرفت إن أنا هطلقها طلعت لي صورة شيك على بياض مضيته بخط إيدي وأنا مش دريان ، هددتني بيه بنت اللذينا إن فكرت في يوم أطلقها، آه صحيح عيشتني شهروكأني في الجنة لكن من غير طعم وحياتك يا صاحبي ، زعلان يا صاحبي ؟!!

بلع علاء ريقه الممزوج بالمرارة وقال :

- أزعل، أزعل منك إنت يا خايب ، دا أنت عملت فيّا معروف مش هنسهولك أبدًا .

- مش فاهم يا علاء وضح وحياتك أبوك .

- متخدش في بالك ، الشاي يا خالتي ، أرجوك بسرعة عشان مصطفى مستعجل قوي وأنا كمان يا خالتي .

- وله يا علاء أنت مش هتحلق ذقنك دي بقى وانت بقيت عامل زي المتطرفين بتوع الأيام دي .

- ما عدتش تفرق يا صاحبي ، المهم إنت دلوقتي هترجع تفتح الورشة من تاني ولّا ؟!

- ولّا يا صاحبي ، منيرة حكمت عليّ أقعد في شقتها من غير لا شغل ولا مشغلة ، قالتلي كلّ اللي انت عايزه شاور عليه بس بصابعك وأنا اجيبهولك لحد عندك ،أمّال إيه يا سيدي خايفة عليّ لعيني تزوغ على شابة من سني .

- من حقها يا جدع ، إنت بالنسبة ليها فرصة وعمرها ما تعوضها .

- عندك حق يا صاحبي ، بس أرجع واقول أهو على كل حال أحسن ما اكون حرامي، يلا الحمد لله ربنا تاب عليّ ؛ مع أني في الأسبوعين ثلاثة اللي سرقت فيهم شقق زبايني المتريشين عملت فيهم قرشين كويسين كانوا هيخلوني أقف قدام أبها واحد في الحتة وأنا بطلب إيد بنته مرفوع الرأس، وأنا بقوله

كل طلبات بنتك أوامر رقبتي سدادة ساعتها كنت هردّ الصاع صاعين لعبدالرؤوف اللي هاني قدام الحتة كلها ، لكن تقول إيه بقى النصيب يا صاحبي .

- آه يا صاحبي النصيب ، وعندك حق تكون في إيدك وتتقسم لغيرك ، وعلى رأي كلامك من شوية هي الدنيا كده معاك عليك عليك .

ودعا الاثنان بعضهما على وعد بالاطمئنان كل يوم على بعضهما عن طريق الهاتف وتفرقا كل إلى طريقه ، سواء كان اختاره بنفسه أم فرض عليه كما يظن .

نادى علاء على كنكة ، أمر بإتيانه بالشيشة التي أصبحت لا تفارق يده وفمه طيلة الوقت الذي يقضيه جالسًا على القهوة ، وعندما عاد في وقت متأخر من الليل أخبر والدته - التي باتت تنتظره كل ليلة ولا تذهب للنوم إلا بعد مجيئه - أن تقول لوالده في الصباح ألا ينتظره للذهاب معه إلى العمل لأنه اتخذ قرارًا بعدم العودة إليه مرةً أخرى .

(١٧)

كانت الساعة تشير للسادسة عندما استيقظت جيهان على رنين تليفونها ، وعلى غير عادة المتصلة التي لم تعهدها الاتصال بها في هذا التوقيت صباحًا انتابها القلق والفزع وهي تحاول جاهدةً طرد ذلك الإحساس الذي ينبئها أن مصيبة حدثت وستعلم بها حال ردها بكلمة آلو ، حاولت التماسك لكن ردة فعلها كانت أقوى من ذلك التوازن الذي اكتسبته من خبرة السنين بحكم عملها الإعلامي ، تهاوت متناسية كل هذه الخبرات التي زادتها صلابةً مع كل موقف كانت تتعرض له ، ردت على المتصلة بقلق وانزعاج واضح على وجهها :

- صباح الخير يا مدام سندس والدتي جرى لها حاجة ؟
- أنا باتصل بسيادتك لأسألك عنها ، هل هي عندك ؟
- إنت بتتكلمي جدّ ولا بتهزري يا مدام ؟!!
- والله بتكلم جدّ ، هي موجودة عند حضرتك ولا لأ .
- لأ مش عندي طبعًا .
- هي خرجت ...
- إزاي تسيبيها تخرج لوحدها ؟ فهّميني أرجوك .
- أجلستها كالعادة في الحديقة وبعد دقائق وجدناها فصّ ملح وذاب .

- يعني إيه والدتي مش في الدار ؟!!

- أنا وجهت كل العاملين للبحث عنها حوالين الدار.

- أنا هوديكم في ستين داهية ، فهماني يا سندس هوديكي في ستين داهية لو والدتي جرالها حاجة ، سمعاني إنتِ المسئولة .

لحظات وكانت مرتدية ملابس الخروج مهرولة تجري ناحية الباب وبصوت يغلب عليه البكاء أمرت عسقلاني بفتح الباب لها ، انزعج عسقلاني الذي كان يعدّ العدة للرحيل هو الآخر بأولاده وزوجته بعدما نجح في العثور على عمل في فيلا في نفس المنطقة صاحبها الأرمل رحب باستلام عسقلاني العمل في أي وقت يريده ، رآها عسقلاني والدموع تترقرق تنسال شيئًا فشيئًا من بين جفنيها فسألها :

- خيريا ست هانم إيه اللي حُصل ؟

- ماما يا عسقلاني شكل الكلاب خطفوها ، عايزين يلووا ذراعي عشان أتنازل عن القضية ، وديني لاقلب عليهم الدنيا .

فتح عسقلاني باب الفيلا على مصراعيه وانطلقت جيهان بالسيارة خارجة ، فوجد عسقلاني نفسه وبتلقائية يفتح باب السيارة الخلفي وهو يقول :

- إستني يا ست هانم أنا جاي معاك .

خرجت ناصرة من حجرتها في اللحظة التي كان يركب فيها عسقلاني السيارة فحاولت اللحاق بها وهي تنادي :

- عسقلاني... عسقلاني ، كنت فكراك واقف معاها بتقولها احنا خلاص ماشيين ومش راجعين هنا تاني ، تقوم تركب وياها السيارة .

شقت السيارة طريقها إلى الدار بأمر من جيهان التي توجهها في أي اتجاه كما تشاء ، ولحسن حظ جيهان أن عسقلاني ذهب معها ، فقام بدوره على أحسن وجه كما المرة السابقة عندما ذهب معها إلى المحكمة ، فلم تشعر جيهان بالزحام حولها لدرجة ظنت فيها أنها أغمضت وفتحت عينيها لتجد نفسها أمام الدار.

اضطرت مرغمة لترك سيارتها في نهر الطريق لرؤيتها عددًا لا بأس به من سيارات الشرطة ولودر يتقدمهم يسدّان الشارع أمام مرور سيارات القادمين من أيّ من الاتجاهين.

***

نزلت تهرول ووراءها عسقلاني إلى داخل دار الرعاية وكل من قابلها في طريقها سألته عن صاحبة الدار والعصبية واضحة في كلامها :

- فين المسئولة اللي اسمها سندس ؟ « سألت إحدى العاملات بالدار.
- في مكتبها يا ست جيهان .

دخلت جيهان على سندس ولم تعطها فرصة للرد عليها .

- فين ماما يا ست زفت ، أنا هوديكم كلكم في ستين داهية .، إزاي يا ست هانم تسيبي ماما لوحدها وانتي عارفة والبلد كلها تعرف بالخصومة القائمة بيني وبين سيادة المحافظ ، أعمل إيه دلوقتي يا رب ..

رد عليها عسقلاني :

- مفيش قدامنا دلوقتي غير مديرية الأمن يا ست هانم لازم تبلّغي .

وجدت مدام سندس أن الفرصة سانحة الآن للكلام فأيدت كلام

عسقلاني وهي تعيد على مسمع جيهان .

- أيوه يا مدام جيهان لازم تبلغي الأمن باختفاء الست والدتك .

لم يكن أمام جيهان سوى الرضوخ لما قالاه ، فأعطت ظهرها لسندس وخرجت تهرول ، وهي تبرطم بكلام حاول عسقلاني أن يفهم منه شيئًا لكنه لم يستطع ، وكل ما استطاع فعله محاولة مجاراتها في سرعتها واللحاق بها .

فتحت باب سيارتها وقبل دلوفها إلى داخلها وجدت درواني يقف أمامها ماسكًا بباب السيارة يقول لها :

- الحقيني يا ست جيهان هانم قرروا إزالة محل أكل عيشي من غير حتى ما يستنوا حكم المحكمة .

فردت عليه جيهان :

- وأنا ف إيدي إيه اعمله دلوقتي يا عم درواني ، أرجوك يا عم درواني سيبني في حالي دلوقتي ماما اتخطفت ، عارف يعني إيه يا عم درواني ماما ، الكلاب خطفوها ، وديني ما أنا سيباهم ولازم أجيب عليهم واطيها .

لم يستجب درواني لتوسلاتها بترك باب سيارتها لترحل وهو يقول لها :

- أرجوكِ يا ست هانم اعملي حاجة بيتي اتخرب .

- يا عم درواني أرجوك ، أنا مقدرش أعملك حاجة دلوقتي .

أحس عسقلاني أن دوره المنوط به قد حان بعد رؤيته لجيهان ترمي ببصرها ناحيته ، فاندفع ناحية درواني :

- يا عم الحاج درواني سيبها في حالها دلوقتي ، أقولك على حاجة ، مش

ورقك سليم ومظبوط ؟

- أيوه يا ابني والله سليم بس تقول إيه !! المحافظ ..

نادت جيهان على عسقلاني بعدما أدارت محرك سيارتها تستعد للانطلاق بها

- اركب يا عسقلاني .

قال عسقلاني لدرواني وهو يدفع بجسده إلى داخل السيارة :

- اطمن وحط في بطنك بطيخة صيفي ، القضاء إن شاء الله هينصفك .

سمعت جيهان درواني ينادي عليها بجانب هرولته وراء السيارة :

- يا ست جيهان بيتي اتخرب يا ست جيهان .

وجيهان ترد عليه من داخل السيارة والدموع تسبق كلماتها :

- سامحني يا عم درواني مش وقته خالص والله .

***

وصلت وأمام مديرية الأمن توقفت بسيارتها ، وقبل نزولها نبهت على عسقلاني عدم مغادرته السيارة ، يظل بداخلها ، تُذكره بأن المكان الداخلة إليه ليس بأي مكان مماثل لما دخلاه ، فأيدها عسقلاني فيما قالت ، وظل ماكثًا مكانه داخل السيارة . عرفها كل من قابلها من رجال الأمن رغم النظارة المخفية معظم معالم وجهها ، وحاولوا مساعدتها بكل ما استطاعوا ، لكنها شكرتهم وهي تحاول معرفة مكتب مدير الأمن ، فتفرغ أحدهم لهذه المهمة وأوصلها لمرادها ، وبمجرد وصولها جلست تكلمت وقالت واتهمت ومدير الأمن يحاول تهدئتها ، وبعد إقناع

من جانبه هدأت لكنها عادت لانفعالها مرة أخرى عندما أخبرها عدم استطاعته عمل أي شيء في وقتها الحالي فالقانون يحتم عليه التحرك والبحث عن الضحية بعد ٢٤ ساعة من غيابها ، لم يكن في وسعها غير شكره وخرجت من عنده باكية ، قابلها عسقلاني وهو يحاول معرفة ما جرى بالداخل ، لكن دموعها لم تمهله لمعرفة أي شيء ، ظل عسقلاني ماكثًا مكانه كالحجر الأصمّ لا يعرف ماذا يفعل تجاه ذلك النهر من الدموع المتدفق من عينيها ، ودّ لو اقترب منها وأخذها بين ضلوعه يربت على كتفيها ويهدهدها مثل طفله الصغير يصبره حتى تأتي والدته كي تلقمه ثديها .

أدرات جيهان محرك سيارتها ووراء السيارات أمامها قادتها على غير هدى ، شاردة هائمة تتحرك مع الزحام ولا تدري إلى أين يأخذها ، لم يكن في وسعها فعل شيء سوى ترجيها عسقلاني برمي بصره في كل الاتجاهات حوله لعلهما يعثران عليها ، لكن حماسها فتر بعد مرور وقت قصير ، ووجدت نفسها تقول له :

- لا تجهد نفسك فالأوباش لن يتركوها إلا بعد نيل غرضهم مني ، وأظنهم سينالون ما يريدون ، حسبي الله ونعم الوكيل ، أشكي لمين غيرك يا رب أنت الوحيد العالم بحالي .

انتهت من قولها ذلك وإذا ببصرها يتعلق بتليفونها الملقى أمامها على التابلوه ، تناولته وتحدثت مع منصور ، أعلمته بما حدث ، فسمعته يخبرها بأنه يترأس اجتماعًا سينهيه على الفور، وسألها :

- أين أنتِ الآن ؟

التفتت جيهان حولها وقالت له :

- أنا الآن في الطريق وسط الزحام ، وتحديدًا أنا في طريق صلاح سالم ،

اسمعني يا منصور أقرب مكان أعرفه هنا ... - وهي ترمي ببصرها حولها يمينًا ويسارًا - هي المقابر ، نتقابل هناك عند قبر والدي ، مع السلامة .

***

سارت وسط المقابر وهي تبكي ، وصلت إلى مدفن العائلة الراقد بين جنباتها رفات والدها الراحل ، مسحت الغشاوة التي أصابت عينيها من جراء الدموع التي ذرفتها وهي غير مصدقة أن الجالسة أمام القبر هي والدتها ، نظرت لعسقلاني وقالت له :

- إنها أمي يا عسقلاني ، أحمدك يا رب ، ماما .

احتضنتها ، لثمت جبينها ، وقبلت يديها ، وسألتها :

- إنتِ بخير يا ماما يا حبيبتي ؟

ردت عليها لبيبة تسألها :

- إنتِ مين يا بنتي ؟
- أنا ..... أنا .... مش مهم يا ماما أنا مين ، المهم إنك بخير .
- آه بخير.
- الحمد لله إنك هنا .

تذكرت نسيانها تليفونها على تابلوه السيارة فاستأذنت عسقلاني في أن يأتيها به وهي تناوله مفتاح السيارة ، فلم يكذب عسقلاني خبرًا وذهب من فوره ، قرأت جيهان الفاتحة على روح والدها ودعت له بالمغفرة ، تناولت التليفون من يد عسقلاني واتصلت بمنصور تخبره بأنه ليس عليه ترك الاجتماع الذي لم ينتهِ

بعد ، والواضح من كلامه لها أنه أهم منها ومن والدتها ، أخبرته أنها عثرت على والدتها أمام قبروالدها ، وبعد انتهاء المكالمة لم تشأ سؤال والدتها كيف أتت وحدها إلى المقابر ، فكل ما كان يشغلها هو الاطمئنان عليها ، لذلك ضمتها برفق واستأذنتها في النهوض معها ، وقاما يسيران وعسقلاني خلفهما يتبع خطواتهما الوئيدة .

عمت الفرحة دار الرعاية عندما علم كل من فيها من العاملين والنزلاء بالعثور على لبيبة ، وفي جو عائلي بهيج التفوا حولها يتناولون المشروبات الساخنة والباردة على حساب صاحبة الدار التي وجدتها فرصة مناسبة لتعتذر لجيهان أمام الجميع واعترافها بالتقصير في حق والدتها ، وعند حلول المساء شكرتها جيهان وترجّتها ألا يتكرر مثل هذا الموقف مرة أخرى .

***

خرجت جيهان من باب الدار ليس في فمها سوى « الحمد لله « كررتها حتى استقلالها سيارتها ، أدارت محركها فتبدّى لها ركام كشك درواني وسط الظلام بعدما كان في مثل هذا الوقت تزينه الأضواء المبهرة من كل جوانبه ، نظرت بحسرة لما فعلته آلات الهدم الغاشمة ، وتأسفت لدرواني وقالت لعسقلاني - وهي تنظر له في المرآة - : ليتني أعرف مسكنه كي أعتذر له وأُفهمه أني كنت في موقف لا يسمح لي بالوقوف بجواره وقت هدم مكان أكل عيشه .

رد عليها عسقلاني يقول :

- دعي لي هذه المهمة يا ست هانم ، سأسأل عنه معارفي وإن علمت بمكانه سأقوم بهذه المهمة نيابة عنك .

- لا أرجوك يا عسقلاني إن عرفت بمكانه أعلمني على الفور واجب على الاعتذر له بنفسي .

- مفهوم يا ست هانم .

***

لم يكن في مخيلة جيهان أن منصور ينتظرها بفارغ الصبروالغيرة تأكله عليها بعد ما علم من ناصرة أن عسقلاني برفقتها ، ولم يكن إعلام ناصرة له إلا لغيرتها على زوجها كغيرة منصور على جيهان وهي برفقة رجل غيره طيلة اليوم .

وقف منصور في البلكونة المطلة على المدخل والقلق واضح في كل حركة من حركات جسمه الآتي بها أو أنها تصدر دون إرادته ، حركات يديه وتعابيروجهه ، قدماه يذهب بهما على غيرهدى هنا وهناك في تلك المساحة التي لا تتجاوز المترين المربعين ، ناصرة قبالته جالسة أمام المدخل بأطفالها الستة قلقة هي الأخرى على زوجها ، على أهبة الاستعداد للرحيل بهم الليلة قبل صباح الغد ، سواء برفقة عسقلاني أم وحدها هي والأولاد دونه ، مصممة على الرحيل سواء إلى عمله الجديد أو إلى البلدة ، فقط تنتظر مجيئه لإطلاعه على نيتها، رؤيتها لمنصور أمامها ينبئها أن عسقلاني زاد الطين بلة بذهابه مع جيهان دون التفكيرفي ذلك الشر تراه طالل من عيني منصور رغم المسافة التي تبعدها عنه، إنه الشر كانت تراه يوميًا في صغرها يطل من العيون الثأرية التي لا تريد شيئًا سوى إزهاق أرواح مقابل أرواح أزهقت في لحظات غضبٍ سيطر الشيطان بها على نفوس البشر، نفوس لم تعرف الرحمة وهي تقتل بدمٍ بارد ، نفوس تناست ما نهى عنه الإسلام ، وليس الإسلام فحسب بل جميع الديانات السماوية ، نفوس أسقطت دولة القانون وتعاملت بشريعة الغاب وهي بذلك تعطي العدو الرابض خلف الحدود

الحق في الحياة الآمنة المطمئنة على أرض نتناسى مع مرور الوقت أننا سنشترك لا محالة - سواء قبلنا أم رفضنا - في تحريرها ،

نفوس تنكرت في لحظات شكها لعشرة دامت سنينًا ، لم يحدث خلالها ما يعكر صفو العلاقة بين الخادم وسيده .

ارتفع الصوت الداخلي لناصرة يتكلم نيابة عنها بلسانها : إنها الأيام القليلة التي قضيتموها أنت وأولادك وزوجك داخل الفيلا تحت إلحاح من جيهان زرع الشيطان شره هذا داخل النفوس فأضعفها .

***

وصلت السيارة وعرف كل صاحب مبتغاه إلى صاحبه الذي ينتظره على أحرّ من الجمر، جرت ناصرة وأطفالها الصغار خلفها ودخلت بهم إلى الحجرة ، انتظرت بفارغ الصبر دخول عسقلاني ، لم تعطه فرصه للجلوس ، قالت له :

- بيتهيأ لي شك سي منصور طلع في محله !!
- مش فايقلك يا ناصرة ، حضري العشا لأحسن أنا على لحم بطني من الصبح.
- كنت بتعمل إيه طول النهار مع الست جيهان هانم يا عسقلاني .
- يووه يا ناصرة ، بقولك جعان ، جهزي الوكل لاول وأنا أحكيلك على كل حاجة .
- تحكيلي إيه ، تحكيلي عن مرافقتك لواحدة غيري طول النهار.
- من غيرك أرافقها يا جاهلة ، تقصدين ست جيهان ، بتسمي ردّ بعض من جمايلها مرافقة ، نسيتي ما فعلته لأجلك وأنت بين الحياة والموت ، ودفع

مصاريف مكوثك بالمستشفى طيلة فترة مرضك ، أتحبين تذكيرك بما فعلته من أجلنا خلال السنوات التي أمضيناها هنا ، ظنت المسكينة أن والدتها اختطفت ولم يكن أحد بجوارها غيري ، قولي لي ماذا أفعل أأتركها بمفردها بعد كل ما فعلته لنا .

لم تكن ناصرة على استعداد لسماع أي مبررات تثنيها عن فكرة الرحيل التي كانت عازمة على تنفيذها ، تركت عسقلاني يتكلم وراحت تلملم ملابسها وملابس أولادها في صرّة أمامها ، سألها عسقلاني :

- بتعملي إيه يا ناصرة ؟
- بلم باقي خلجاتي وخلجات لاولاد لجل ما نرحل طوالي دلوقتي .
- على فين يا مجنونة .
- في أي مكان والسلام يا عسقلاني ، إن شالله نبات في الشارع ، سي منصور عنيه بتطج شراروناويلنا ع الشرّ.
- الصباح رباح يا ناصرة ، أوعدك نبيت الليلادي ومن باكر نرحل طوالي على مكان الشغل الجديد ، زي ما قلتلك صاحب الشغل الجديد وحداني ، مرته ميتة وولاده مهاجرين لبلاد برة ، وهو عايش لوحده ، بس اللي مخوفني نظراته الزايغة وطريقة كلامه اللي بتقول إنو سكير درجة أولى ، ودا اللي مخليني افكر أن أصرف نظر وأدور من باكر على ...

قاطعته ناصرة :

- ميخصنيش كل كلامك ده يا عسقلاني المهم إننا نرحل من هنا والسلام ، سامعني يا عسقلاني بقولك في مصيبة حطب على دماغاتنا الليلادي إن مرحلناش .
- إهدي يا ناصرة وزي ما قلتلك الصباح رباح .

من ناحيتها أشارت جيهان بيدها لمنصور تحييه بعدما رأت القلق واضحًا عليه ، ومن أجل حبها له تناست تجاهله لها أثناء بحثها عن والدتها ، وانصبّ تركيزها على تفويت الفرصة عليه في تماديه بشكه تجاه عسقلاني المرافق لها أغلب ساعات اليوم ، ارتقت درجات السلم سريعًا ، واقتربت منه تحاول احتضانه ، لكن منصور صدها وهو يقول لها بنبرة لا تخلو من الحدة لأول مرة تعهدها عليه :

- لِمَ تأخرت يا ست هانم كل هذا الوقت ؟
- اسكت يا منصور أما كان دا حتة يوم عجيب ، آه والله عجيب .
- لِمَ تحاولين المراوغة وعدم الرد على سؤالي .
- في إيه يا منصور ألم أتصل بك وأعلمتك بما حدث لوالدتي .
- لكنك لم تخبريني بأمر تأخرك ، جاوبيني أين كنت وأنت برفقة رجل غريب عنك ؟
- ماذا تقصد يا منصور ؟
- والله بقى ...
- بتشك فيّا يا منصور بعد كل هذا العمر الذي قضيته معك ، وتسمي عسقلاني راجل غريب ، والله لولا إنك في منصب غير منصبك الذي تعتلي كرسيه لرميتك بكلام غير لائق ، دا غير إنك مثقف وواعي ومطلع يا متعلم.
- عيب يا جيهان .
- إنت خليت فيها عيب ، عسقلاني الذي أعتبره مثل أخي ، دا غير كده لما افكر اخونك ، أخونك مع البواب ، الله يخرب بيت العقول الوسخة التي تجعلنا نصل لهذه الدرجة من الشك والخيانة ، فوق يا منصور بيه يا كاتب يا كبير

- يا رئيس مجلس إدارة أكبر صحيفة في الوطن العربي كله ، عايز تضحك عليك الناس بعد كل هذا العمر.
- يا حبيبتي افهميني .
- افهم إيه بقى إنت مسحت ما بينا في لحظة بأستيكة .
- خلاص بقى يا جيهان سامحيني على ما بدر مني ، إنها وَزّة شيطان ولن تتكرر.

وانحنى على يدها وقبلها ، وأخذ يردد :

- لن تتكرر صدقيني لن تتكرر ، مسمحاني يا حبيبتي .
- مسمحاك دا عشان بحبك بس .
- المهم دلوقتي أريد إبلاغك بخبر سفري فجرًا .
- هتسافر فين وليه ؟
- هسافر يا ستي مع الوفد المرافق لرئيس الجمهورية في جولته الأوروبية والتي ستتضمن عدة دول .
- بس مش عوايدهم يختاروا رؤساء مجالس الصحف ضمن من يختارونهم ، اشمعنى هذه المرة .
- عِلمي عِلمك ، يمكن افتكروا إن أنا لسه رئيس التحرير أو اللي كتب الدعوة غلط وبعتهالي لشخصي، كنت سأعتذر لكني وجدتها فرصة مناسبة لإعادة الكشف والتحاليل لدى أكبر الدكاترة المتخصصين لعل وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم .
- وليه متقولش إن الرئيس بذات نفسه قصد ذهابك معه لانزعاجه من أمر موضوعي أنا والمحافظ واللي بالتأكيد الزوبعة التي ما زالت مثارة حوله وصلت لداخل القصر، ومش بعيد إنو يعرض أو يفرض عليك من خلال أمر مباشر ستنقله إليّ بأن أتنازل عن القضية .

ضرب منصور جبهته ببطن يده وقال لها :

- إزاي الموضوع كان تايه عن تفكيري ؟!!

- ولويا منصور ، يكون في علم الرئيس بصفته وشخصه عمر ما حد هيقدر يأثر فيّ أو يجعلني أتنازل عن حقي سواء بالتهديد أو بأمور أخرى ، بلغه يا منصور لما يشاورلك ويقعدك في الكرسي المجاور له بالطائرة إن أنا مبتهددش ، سمعت يا منصور على جثتي أنخّ ، قوله القضاء هو الفيصل وهو الحكم .

- متشليش هم ياحبيبتي أنا بطريقتي هتصرف وثقي بأني لن أخذلك أبدًا.

***

أعدت أسماء كوب الشاي الممزوج بقرص المنوم ووضعته أمام عبده وهي توصيه بألا يبقي شيئًا في الكوب الوحيد القادرعلى طرد الصداع الذي يداهمه في الآونة الأخيرة وتركته بمفرده بعدما استأذنته في شراء حُق لبان من كشك الصبي شوقي لتغيرطعم حلقها الذي غلب عليه المرارة فجأة ، مد عبده يده ، تناول الكوب وارتشف منه رشفة جعلته يعيدها مرة أخرى إلى الكوب لطعمه المر لنسيان أسماء وضع ملاعق السكرلتحليته ، نهض من فوره وسكبه في حوض الماء ، وعاد إلى مكان نومه ليجد أن الصداع الملازم له تهدأ حدته ، فلم يجد بدًّا من انتظارأسماء لإعداد كوب شاي غيرالذي كبه ، لكن النوم كان أقوى منه فأسلم جفنيه له ، وأسماء جالسة بالخارج تنتظر على أحرّمن الجمر إغلاق شوقي لكشكه ، عادة أصبحت تداوم على فعلها في الأيام الأخيرة منذ تذوقها شهد عسله رغم قلته ، وبدت قانعة راضية ، في تلك الليلة حاول الصبي شوقي الهروب منها عن طريق مغافلتها ، لكن أسماء له بالمرصاد فلم يستطع التملص منها وهو المجهد المتعب من كثرة طلباتها التي تزداد ليلة عن الأخرى والتي لا يلبي إلا القليل منها، ترجاها وهي تسحبه خلفها من يده لتركه الليلة لكنها رفضت

متعللة باحتياجها له الليلة أكثر من كل الليالي الماضية ، وبمجرد دخوله الحجرة وراءها عنوة جردته من ملابسه وطرحته أرضًا ، تهاوت بجسدها فوق جسده خشية هروبه منها وهو المتوسل لها بتركه يرحل لحالة الإرهاق الشديدة التي تلازمه .

أفاق عبده من نومه على إثر حركات غريبة بجواره وسماعه همسًا وكلامًا غير لائق وخارج عن الحدود ، فظن بادئ الأمر أن أسماء تسلي وحدتها بمشاهدتها لفيلم يعرض على شاشة التلفاز يحتوي على مشهد جنسي لكنه فزع عندما سمع التأوهات الخارجة من فم أنثى أغرته ليالي طوالًا بمثل تلك التأوهات ، لعل قلبه المرتخية عضلاته يهب واقفًا ويسكت تلك التأوهات التي كانت تجعله ينام خجلان مستسلمًا لسيل شتائم وإهانات لا تتحملها إلا امرأة ضعيفة ليس في وسعها سوى السكوت حتى لا تخسر طعم ألوانٍ شتى تنتظر بفرحٍ تذوقها كل ليلة .

فتح عبده عينيه ليتأكد من أن تلك التوسلات ليست صادرة إلا من شخص يعاني كمعاناته وقت اغتصابه مراتٍ ومراتٍ من قبل أسماء حيث كان يتوسل إليها بنفس تلك التوسلات بل ويزيدها عند الضرورة بتقبيل قدميها أن لا تجهد نفسها لأنه لا يوجد لديه ذرة من أمل في إحياء عضلات قلبه المرتخية منذ زمانٍ بعيد ، بحث بعينيه عن ذلك الشخص المنتظر من ينجده فلا يجد سوى مناداة من تغتصب طفولته وصباه باسمها يرجوها بتركه يذهب لحال سبيله .

فزع عبده وانتفض من رقدته ليرى الوضع الجالسة فيه أسماء ومن تحتها الصبي شوقي غير البعيد عنه إلا بضع من السنتيمترات القليلة .

لم تدرِ أسماء ماذا تفعل إزاء صدمة ما رأته في عيني عبده من شرر يتطاير نحوها

سوى الزحف والالتصاق بالجدار خلفها ، أما الصبي شوقي فكان حظه جيدًا وهو يزحف بعيدًا ويرتجف ارتجافًا من الخوف ليجد الباب خلفه ففتحه وفر هاربًا ، ليترك عبده منفردًا بأسماء غير المحاولة مقاومته فيما يفعله بها رغم كهولته الضعيفة أمام عنفوانها .

قطع صراخها صمت الليل ، وكانت دقائق قليلة والحي الهادئ الوديع بسكانه وبناياته يشهد أروع جريمة قتل لم يشهدها من قبل ، فزع أغلب السكان من هول ما رأوه في يد عبده القابضة على رأس أسماء المفصولة عن جسدها وهو ينادي بأعلى صوته رافعًا اليد الأخرى بسكين الجريمة الملطخة بالدماء :

- لقد انتقمت لشرفي يا عالم يا هووه .

وكانت دقائق تعد على الأصابع ولم تتأخر الشرطة في تلبية نداءات الاستغاثة الباعث بها الكثيرون عبر تليفوناتهم ، ولم تبذل جهدًا يذكر وهي تلقي القبض على عبده المستسلم بسهولة للنداء عبر مكبرات الصوت بأن يسلم نفسه ، وقبل وصوله إلى محبسه الانفرادي داخل قسم الشرطة كان الفيديو الخاص به على اليوتيوب يشاهده الملايين ، وكان من بعث بهذا الفيديو شخص من سكان الحي كانت بيده كاميرته شاهد عبده يتباهى بقتل أسماء ، أُطلق على الفيديو» عبده البواب ورأس زوجته « ، وهناك داخل قسم الشرطة اعترف عبده بقتله لأسماء ولم ينكر فصله لرأسها عن جسدها ، ودُون ذلك في محضر رسمي وقع وبصم عليه وهو مزهو مرفوع الرأس ، لكن الشيء الوحيد الذي لم يستطع التفوه به هو اسم الصبي شوقي لتذكره أولاده وعودته بذاكرته للخلف أحد عشرة عامًا عندما عارضوه جميعهم على زيجته من أسماء وتهديدهم له بالقتل إن ظل برفقتها في البلدة ليلة واحدة ، خاف أن يقول إنه وجد أسماء التي من أجلها تخلّى عن كل شيء وهجر بلدته للأبد أنها تخونه مع صبي يماثل سنه سن

أحفاده ، فيرى الفرحة وقتذاك تتراقص في عيون أولاده والشماتة تظهر جليًّا في أصواتهم إن قرروا المجيء لزيارته .

***

لمح عسقلاني اثنين من البوابين من أصحابه وهو يهمّ بإغلاق البوابة وراء منصور بعد توديعه له ، نادى عليهما فتوقف الاثنان مكانهما انتظارًا لمجيئه أمامهما ، بادرهما :

- غريبة ما الذي أوجدكما معًا في هذه الساعة المتأخرة من الليل .

فأجابه أحدهما :

- ألم تعرف بما جرى .
- وماذا حدث ؟
- عبده ذبح أسماء .
- وه ..... بتقول إيه يا بن الفرطوس .

رد الثاني :

- هو دا اللي حصل .

الأول :

- كل الناس شافته وهو فاصل رأسها عن جسدها وماشي بيها وسط الشارع وهو يصرخ ويجول انتجمت لشرفي غسلت عاري .
- ومتعرفوش ليه ؟!!

الأول :

- بيجولوا ظبطها نايمة مع واحد .
- ومسكوه ؟

الثاني :

- ما حدش يعرف عنه حاجة .

ضرب عسقلاني كفًّا بكفّ وقال وهو ينتفض :

- يا رب استريا رب ، جيب العواقب سليمة يا رب ، رحنا ف داهية « وانتبه للاثنين يسألهما : « طب هو فين دلوقتي ؟

رد الأول :

- بيجولوا الشرطة جاءت وخدتوا طوالي على القسم .
- طب يا خويا إنت وهو اتفضلوا مع السلامة ربنا يستر طريقكم وطريقي .

الاثنان في صوت واحد :

- مع السلامة يا عسقلاني .

لم يستطع عسقلاني حمل قدميه إلى الداخل ، بالكاد وصل إلى المدخل ليجلس القرفصاء ويلطم خديه ويقول :

- إيه اللي حصل يا عم عبده ، الله يسامحك يا أسماء وديتي الراجل الغلبان في داهية ، منك لله ؛ ياما حذرتك تبعدي عن السكة البطالة لكن بعد إيه ، بعد الفاس ما وقعت في الرأس والراجل الغلبان شرفه انعاص في الوحل ، منك لله يا بعيدة منك لله يا بعيدة .

طلعت عليه شمس الصباح وهو ماكث في مكانه ، لم يشأ إخبار زوجته وهي تنادي عليه :

- قوم يا عسقلاني الفطار جاهز ، اعملك همة شوية عشان نرحل .
- ما ليش نفس يا ناصرة ، افطري إنت والأولاد وسيبيني في حالي السعادي .

ووجد ضالته في شخص جيهان وهو يراها تفتح شباك بلكونة حجرة نومها فناداها

- ست جيهان ..... ست جيهان .
- صباح الخير يا عسقلاني ، خير في حاجة .
- أصل الموضوع ...... أصل الموضوع ، حضرتك سمعتي باللي حصل ليلة امبارح ؟!!
- وهو إيه اللي حصل يا عسقلاني .
- مصيبة يا ست جيهان مصيبة وكبيرة قوي .
- مصيبة ، في إيه يا عسقلاني اتكلم .
- عبده يا ست هانم ؛ عبده بلدياتي ما انت عارفاه .
- آه آه زوج أسماء .
- أهي دي الله يلعنها ، عم عبده قتلها ليلة امبارح وفصل رأسها عن جسدها .
- بتقول إيه يا عسقلاني يا خبر إسود .
- هو دا اللي حصل ، غتيني يا ست هانم أرجوك ، عبده وحداني في البلد دي ومالوش حد يسأل عليه ، هو في القسم دلوقتي .

- حاضر.. حاضر يا عسقلاني فهمتك ، دقايق معدودة هبدل فيها ملابسي واتصل بالمحامي ليقابلنا عند القسم .

وكما الأمس فتح عسقلاني باب المدخل على مصراعيه لتمرق منه سيارة جيهان وتخرج زوجته ناصرة وراء السيارة تنادي على عسقلاني وهي ليست بالعالمة بما حدث بعد .

***

أمام قسم الشرطة تقابلت جيهان مع محاميها ودخلا سويًّا ووراءهما عسقلاني يجرّ قدميه جرًّا وهو خائف من كون الليلة التي أوقعته أسماء في حبائلها هي السبب في ذبحها على يد عبده ، وفي مكتب مأمور القسم سُمح لهم بمقابلة عبده قبل عرضه على النيابة ، قابلهم عبده ولم يبدِ ندمًا أو أسفًا على ما حدث ، وعند انتهاء الوقت المحدد والمسموح لهما بمقابلته فيه قبض عبده على يد عسقلاني ، وأوصاه باستلام جثة أسماء بنفسه عندما تصرح النيابة بدفنها بصفته أقرب شخص له ولها الآن وتسليمها لأولاده في البلدة يفعلون بجثتها ما يشاءون .

طمأنه عسقلاني بعدما اطمأن هو الآخر أنه ليس بالشخص المتسبب في هذه الحادثة البشعة ، وأن هناك شخصًا آخر رآه عبده بأم عينه لكنه لا يريد الإفصاح عن اسمه ربما لظنه أنه سيقتص منه عاجلًا أم آجلًا لهروب هذا الشخص وقت رؤيته لعبده ، وحتمًا سيكون هذا القصاص من خلال أولاده عندما يعلمون بما حدث ، ويأتون جميعًا للوقوف بجواره ، ووقتها حتمًا سيعلمهم بمن دنس شرفه فيقومون بمهمة القصاص منه على أكمل وجه .

استأذنت جيهان في الرحيل بعد قولها لعسقلاني إنها ستضطر آسفة للذهاب إلى والدتها في دار الرعاية للاطمئنان عليها ، وأكدت عليه أنه لو أراد منها شيئًا فعليه الاتصال بها فورًا ، وأوصت المحامي هو الآخر بعدم ترك عبده في النيابة لوحده ، وأن يواليها أولًا بأول بكل التفاصيل والمستجدات التي تطرأ عليها القضية ، ولم يمض عبده وقت طويل في النيابة التي قرر رئيسها حبسه أربعة أيام على ذمة القضية مع مراعاة التجديد له ، بعد إنكاره معرفة الشخص الذي وجده في أحضان زوجته والذي عثر على ملابسه كاملة داخل الحجرة وبدوره تم استدعاء عسقلاني لاستلام تصريح دفن أسماء مع أخذ تعهد عليه باستلام الجثة من المشرحة ودفنها بالشكل اللائق في مقابر العائلة .

***

وضع نعش أسماء داخل سيارة نقل الموتى ، واستقل عسقلاني سيارة أجرة اتفق مع سائقها على توصيله إلى بلدته شريطة مروره أولًا على مكان عمله لأخذ أولاده وزوجته معه ، وفي الطريق اتصل بجيهان وأخبرها بأنه سيضطر لنقل جثمان أسماء للبلدة بعد صدور إذن من النيابة بدفنها ، لذلك فقد قرر أخذ زوجته وأولاده معه لقضاء بعض الوقت مع الأهل والأحباب الذين لم يرهم منذ عشر سنوات كاملة ، فلم تُبْدِ جيهان اعتراضها على قراره وتمنت له التوفيق والسلامة في كل خطواته ، وتمنت أيضًا انتظاره لها لتعطيه مرتبه الشهري بجانب مكافأة مالية لطالما انتظرت أفضل المناسبات لتعطيها له ، لكن عسقلاني شكرها وأخبرها أن الوقت لن يسمح له بالانتظار أكثر من ذلك متعلِّلًا بأن جثمان أسماء في سيارة نقل الموتى التي تتبعه خلف سيارة الأجرة التي سيستقلها هو وأولاده ، وليس من المفترض عليه الانتظار أكثر من ذلك ، خصوصًا أن أولاد عبده وصلتهم أخبار كل ما حدث ينتظرون على أحرّ من الجمر استلام جثة أسماء ،

ولم يستطع إكمال ما سيحدث حتمًا من تنكيل بالجثة وإلا لأقاموا الدنيا ولم يقعدوها جزاءً لما أقدمت عليه أسماء من جرم لا يغتفرلها وهي حية ترزق ، وقد أخذت جزاءها المناسب أووهي ميتة عندما يحاسبها ربها شر الجزاء على نفس ذلك الجرم ، ورغم ما حدث لأسماء فقد أشفق عليها عسقلاني ونبرات الحزن واضحة في كلماته المتقطعة المتحدث بها لنفسه حيث إنها مقطوعة من شجرة لا أصل لها يذكر ، وإن عثرلها على أهل فإنهم سيتبرءون منها .

وصلت السيارة المقلّة لعسقلاني أمام باب الفيلا ليجد ناصرة جالسة بأطفالهما وأمامها صُرّة ملابسهما ، فظن متناسيًا أنها علمت بقراره المفاجئ بالعودة للبلدة متناسيًا أن قرار الرحيل اتخذه بنفسه ليلة الأمس فقال لها وهو يناديها :

- كيف علمتي أننا سنعود اليوم إلى البلدة .
- ليس لك شأن بي ، أنا فقط أنتظر إخبارك أني راحلة أنا والأولاد.
- إلي أين يا مجنونة ، والله إن لم تركبي السيارة من سكات لأكون جاتلك وفاصل راسك عن جسمك مثل المرحومة الممدة في سيارة الموتي المنتظرة بالخلف .
- قاصدك مين يا عسقلاني .
- إياك متعرفيش باللي حُصل .
- أعرف إيه ومين دي اللي ماتت يا عسقلاني ؟.
- أسماء .
- أسماء مين يا عسقلاني ؟
- مرت عبده .
- ياخبر اسود ، ماتت ازاي ؟
- اركبي لاول يا مجنونة وأنا اعرفك بكل ما جرى ، يلا يا اولاد أخيرًا هنعاود على البلد ونشوف الأهل والأحباب اللي اتحرمنا من رؤيتهم سنين غصب عنا.

(١٨)

تعمد عبدالرؤوف إقامة فرح شربات في وسط الشارع ما دام عريسها الثري المُصرّبكامل إرادته على تحمل كل التكاليف من إقامة الزينات في كل أرجاء الحي ، يريد ذلك رغبةً منه في إسعاد عروسه المتيم بها ، والتي طالما وجد الحزن في عينيها كلما أتاها في زياراته المتكررة لها منذ موافقة والدها على تزويجها له ، وبذلك وجد عبدالرؤوف الفرصة مواتية لإغاظة غريمه اللدود وصبيه السابق مصطفى ووالدته كريمة وإخراج لسانه لهما .

وبينما الفرح مقام مرعلاء من وسط المعازيم رفع يده يرد تحية عبدالرؤوف الواقف على المسرح يحيي الداخل والخارج ، فلم يجد علاء غير الجلوس رغبة في إرضاء طلب عبدالرؤوف الذي طلب منه الجلوس في أقرب مكان يقابله ، ففعل علاء وجلس في آخر الصفوف يتأمل شربات وعريسها الجالس بجوارها يتأسف بحسرة لما آل إليه حالها هي ومصطفى المتزوج مثلها بعجوز يماثل عمرها عمر ذلك الثري الجالس بجوارها ، أحسَّ أن شيئًا ما جاثم على صدره لا يستطيع من خلاله التنفس فهمَّ بالانصراف ، لكن رؤيته لكريمة والدة مصطفى وبناتها الثلاثة الآتين في زيارة قصيرة مع أزواجهم ؛ لشوقهم لرؤية الأهل والأحباب ومن خلفهم سامية وزوجها إبراهيم يتقدمون ناحية المسرح - جعله يعيد النظرفي أمر

ذهابه والجلوس مرة أخرى لمشاهدة ما سيحدث من مواجهة محتومة ومبيتة النية بين غريمين أصبحا عدوين لدودين .

مد علاء ببصره ناحية المسرح ليتأمل تعابيروجه عبدالرؤوف الذي توقف عن تحية معازيمه وأخذ يعد نفسه لاستقبال كريمة وبناتها الأربعة ، سمعه يقول : « استني مكانك يا ست انتي ، من أذن لك بالحضور إلى هنا « ، فنهض علاء من مكانه بعدما تأكد من هذا الاستقبال غير المرغوب فيه لهم من قبل عبدالرؤوف أن شيئًا ما جللًا سيحدث ، وخرج دون الانتظاروالفرجة كغيره على ما سيحدث ، سمعت أذناه فقط بعضًا من المشادّات الكلامية وهو يترك الحي بما فيه خلفه.

لم يكن أي من الحضور لتهنئة عبدالرؤوف يتصورون أنه سيكون بهذه الشراسة وبهذا القبح في مواجهته لكريمة وبناتها ، وكردّ فعل تجاه ما سمعته آذانهم من كلام صادرمن فمه وجد معظمهم يقف في صف كريمة وبناتها وينصرونها عليه وهم يمنعون أيًّا من أقاربه التدخل في المشاجرة التي دارت رحاها بينهم ، وكان هو الخاسر الوحيد بالطبع من كل الجوانب فقد هُدّ المسرح وانتهت الليلة في أولها ، هذا غير ما ناله العريس من لكمات وصفعات ليفر هاربًا بعد تمزيق ملابسه ، لكنه صمم على أن تكون شربات برفقته ، فقال لها بعد إعطاء الأمر لسائقه بالتحرك «لا تظني أن ما يحدث الآن سيجعلني أتركك وأذهب بدونك ، أنتِ زوجتي من الآن وعهد على ألا تدخلي هذا الحي أو تري أسرتك مرة أخرى ما دمت في عصمتي».

وانطلقت السيارة تشق طريقها ناحية المطار كما كان الاتفاق مسبقًا مع عبدالرؤوف .

استقر علاء فوق كوبري قصر النيل بعدما ساقته قدماه إلى هناك ، أطلَّ برأسه يبحث عن وجهه في صفحة الماء بين الوجوه الكثيرة المطلة حواليْهِ فلم يجد شيئًا لا وجهه ولا وجه غيره ، أثار انتباهه فقط رؤيته لِطَيْفٍ تَجسد في هيئة الرجل الهرم الذي قابله عندما كان مُقْدِمًا على الانتحار يقف على صفحة الماء ويقول له: «ارْجِعْ يا بُنَيَّ لا تُنَفِّذْ ما يمليه عليكَ عَقْلُك الباطنُ ، تذكر جيدًا ما فعله ولدي بي ، أترتضي أن يكون والداك مثلي» وإذا بالطيف يغوص بقدميه داخل المياه يحاول التشبث بشيء ، لكن المياه ابتلعته وهو يقول : «ولدي يا غالي آتي إليك كي أنقذك» أشار علاء بيده نحو صفحة الماء لعل أحدًا ممن حوله يطمئنه ويقول له : «أَفِقْ إنها مجرد أوهام « لكنه وجد كل من حوله في حاله غير منتبهين لإشاراته ولا لوجوده من الأساس ، فخرج من بينهم وهو يودعهم بعدما وجد أصواتًا كثيرة تناديه من فوقه وتقول له : لماذا أنت هنا ؟ تفضل من غير مطرود ليس لك مكان بين الأحباب والعشاق ، فآثر الابتعاد خوفًا من تعارك أحدهم معه أي من أصحاب الأعين الكثيرة التي بدأت تبحلق فيه ظنًّا منهم أنه ينظر لمن يرافقونهم من الجنس الناعم ، وأخذ وجهته إلى الأسفل يكاد جسده يلامس السيارات السائرة بجواره .

(١٩)

وصلت السيارة الْمُقِلَّة لعسقلاني وزوجته وأولاده ومن خلفهما سيارة نقل الموتى الممدة بداخلها جثة أسماء مساء والظلام الدامس يلف القرية ولم يكن أحد ينتظر قدومهم إلا أربعة فقط نسّقوا مع عسقلاني وظلوا يهاتفونه طيلة الطريق ، وهم أولاد عبده : « حمدان ورشدان وخلاف ونصار « ، بعدما علموا بكل شيء من خلال أول اتصال أجراه معهم عسقلاني ، استقبلوه وأمروا سائقي السيارتين بالتوجه إلى المقابر بعد توجيههما ، وهناك فتحوا مقبرة من مقابرهم وألقوا بالجثة بداخلها وأهالوا عليها التراب ، ولولا وجود سائقي السيارتين لنكلوا بالجثة وأفرغوا فيها طلقات بنادقهم الآلية غير مبالين بأنها جثة مفصولة الرأس لا رجاء فيها ولن يضيرها شيء أيضًا مما يفعلونه بها .

رضخوا لكلام عسقلاني الذي أقنعهم بالعدول عن فكرة التنكيل بالجثة وإلا فإنهم يضعون أنفسهم تحت طائلة القانون الذي لن يرحمهم ، فرضخوا لأمره وهم ينظرون للسائقين بكل غلّ وحقد وكأنهما أقارب لها .

بعد توديع عسقلاني للسائقين وتمني لهما العودة سالمين لأولادهما ولأهليهما ذكر الإخوة الأربعة بتعهدهم له بأنه سيكون في حمايتهم ، ولن يجرؤ أحد على الاقتراب منه أو من زوجته وأولاده خلال المدة التي سيقضيها في البلدة والتي من

خلالها سيحاول إيجاد حل أو مخرج به يظل في البلدة دون العودة مرةً أخرى لمهنة البواب ، وتذكر بأسى كيف أنه خرج ذليلًا مكسورًا على إثر ذنبٍ اقترن بقتلٍ ارتكب ليس له يد فيه غير أنه قريبٌ للقاتل ، وكيف عاد بعد كل هذه السنوات العشر على إثر حادثة قتل أيضًا ليس له يد فيها غير أنه قريب القاتل أيضًا ، طمأنه أحد الأربعة -وإن كان أصغرهم - « نصار « بقوله له :

- سنسعى ونعمل بكل جدّ لإنهاء هذه الخصومة بالصلح في أقرب وقت ممكن .

رد عليه الأخ الأكبر «حمدان» :

- أنسيت أن بنت الكلب التي ألقينا بها للتوّ داخل المقبرة قريبة لمن قتلوا أولاد عم عسقلاني الثلاث .

أكمل الأخ الذي يصغره « راشد « :

- وكما تدين تدان ، خدوا قصاد بنت صغيرة ومفعوصة أرواحًا ثلاثة .

وأكمل الأصغر منه «خلّاف « :

- واحنا مش هيكفينا عشرة منهم قصاد ما فعلته بنت الكلب اللي مرمغت شرفنا في التراب .

هبَّ عسقلاني في وجوههم كالوحش الكاسر بعد رؤيته الفزع في عيني زوجته ناصرة وأولاده المتشبثين بها لعدم تأقلمهم بعد على هذا الجو المخيف من قبل، وقال لهم:

- وما ذنب أخوالها يا عالم ، أوافقكم فيما تقولون بل سأتقدمكم لقتل أهلها جميعًا إن كانوا على قيد الحياة ، أما الأبرياء الذين تفكرون في الاقتصاص منهم فإنهم مجرد أولاد عمومة لوالدتها وكمان من بعيد يا عالم يا هوووووه،

ثم لمَ هذه الضجة والجلبة التي ستحدثانها ؟ هل علم أحد غيركم من أهل القرية بما حدث ؟

فردوا جميعًا في صوت واحد :

- لا .

فقال لهم :

إذن فلنجعل المشكلة وكأنها لم تحدث ، نكفي على الخبر ماجور ولا من شاف ولا مين دري ، وكأن والدكم ما زال كما هو يعمل بوابًا وأنتم ما زلتم تجافونه بسبب زيجته على والدتكم ، ودعوا الأيام تمرّ بحلوها ومرّها ، وكفاية عليكم حمل هم أولادكم وسدّ أفواههم التي لا تطيق صبرًا إن جاعت مش كده ولا إيه يا ولاد عبده .

فردوا عليه واحدًا تلو الآخر.

- صحيح يا عسقلاني .
- عندك حق يا عسقلاني .
- اللي تشوفه يا عسقلاني .
- أمرنا لله يا عسقلاني .
- يبقى خلاص اتفقنا ، وأنا من ناحيتي أثق في زوجتي كما أثق فيكم ، أعدكم بعدم تفوهها بكلمة مما دار بيننا من حديث ، هذا غير اتصالي بكل من يعمل من القرى المجاورة في مكان عملي وأبلغتهم ألا يزيدوا الجراح عمقًا فاهْمِنّي ؟

ردوا في صوت واحد :

- فاهمين يا عسقلاني .

(٢٠)

انتصف الليل وخيم بظلامه الدامس على أرجاء حي الدقي الذي لم ينم ليلته بالأمس وخصوصًا الدائرة أو المنطقة التي وقعت بداخلها حادثة القتل ، الهدوء والسكينة هما حليفا تلك الليلة لشبه اتفاق بين جميع السكان على نوم ليلتهم هذه نومًا عميقًا بعد جهد جهيد بذلوه في التلصص والأسئلة الكثيرة التي دارت أغلبها عن عبده وعما فُعل به حتى اللحظة من قبل رجال الشرطة .

كانت جيهان الوحيدة التي ما زالت ساهرة حائرة لا تهتم لأمر كل ما جرى ، فكل ما يعنيها وما يهمها ويشغل بالها هي والدتها الساكنة دار الرعاية وكذلك زوجها الذي سافر في مأمورية عمل مكلفة إليه بالأمر المباشر ، هذا غير بواب فيلتها الذي رحل بأولاده وزوجته دون توديعه أو أخذه مرتبه الشهري ، ناهيك عن قضيتها ضد المحافظ والدائرة رحاها في المحاكم أو دروان الفكهاني الذي هدّ مكان عمله عنوة وقوةً ، أو برنامجها الشهير والذي ينتظره الملايين بفارغ الصبر في عطلة كل أسبوع ، إنها جالسة بمفردها داخل عالمها الخاص بها داخل فيلتها تفكر في كل هذا بل وتحاول جاهدةً تنحية كل ما يشغلها جانبًا والتفكير في الهمّ الجديد الهابط بظلامه عليها بدون سابق إنذار ، فهي لم تعمل له حسابًا من قبل ، إنها الوحدة التي وجدت نفسها فيها فجأة ، تحاول ملء فراغها بشيء يساعدها في الذهاب إلى النوم لعلها تنجح في طرد القلق المسيطر على تفكيرها

بسبب هذه الوحدة ، نظرت لقطها الأليف الممدد بجسده ، نائمًا بجوار جلستها القرفصائية على سرير نومها ، مدت يدها ناحيته ومسحت برفق على فروته ، وقالت موجهة الكلام إليه : « والله أنا بحسدك رغم موت زوجتك من عام تقريبًا وعيشك وحيدًا بدون رفيقة إلا أنك لا تجد صعوبة في النوم هكذا ، لكن أرجع وأقول يمكن بتعاني من الوحدة زيي بس مش مشكلتك إنك مش عارف تعبر، يا ريتك تتكلم عشان نخرج أنا وانت من الحالة هذه التي فرضت على إجباريًا « .

عرف القلق طريقه إلى احتلالها مرة أخرى بعد هذه الكلمات التي كانت تود قولها لشخص من لحم ودم مثلها ، وبعد محاولات مضنية من جانبها لم تفلح مقاومتها أو تهيئة الجو المناسب لزيارة النوم لجفونها ، فما كان منها إلا أنها فكرت في شيء أخير بفعله سيحل النوم سريعًا ضيفًا مرحَّبًا به إلى كامل كيانها ، إنه الحمام تذكرت أن تمديد جسدها داخل مياه البانيو الدافئة سيكون له مفعول السحر في طرد كل ما يقلقها ويجعل النوم سهل المنال وقت مناداته ، تركت جسدها مددًا داخل البانيو يستسلم للمياه الدافئة المتدفقة من جوانبه ولعلها نجحت بعدما وجدت الراحة والاسترخاء يشملان جسدها ، وهو ما أدّى إلى جعل بالها يطرد رويدًا كل ما بداخله من أفكار كانت متشابكة ومتداخلة بل ومعقدة إلى الدرجة المستعصية في إيجاد حلول وسط لها .

ما يقارب النصف ساعة قضتها بالحمام وما إن خرجت منه بعد ارتدائها روب نومها إلا لتجد النوم يقابلها بالأحضان زائرًا جفنيها ، فاستسلمت بسهولة له وذهبت من فورها إلى مضجعها .

***

اقترب علاء من مسكنه ، الشوارع من حوله خالية لا أثر لبشر اللهم إلا من عمال الفراشة الموشكين على الانتهاء من لملمة لمبات الزينة وكراسي فرح شربات

الذي لم يكتمل ، كان الإحباط واليأس يسيطران عليه لدرجة خشيته الذهاب إلى المنزل فيرى نظرات والديه الباكيين على ما آل إليه من حال ، فقرر الوقوف مكانه ومشاهدته لعمال الفراشة حتى انتهائهم من عملهم ممددين أجسادهم في الصندوق الخلفي للسيارة خارجين من الحي وأحدهم يشير إليه بالتحية : تصبح على خيريا أستاذ .

وجد علاء نفسه وحيدًا ، الشارع أمامه خالٍ من المارَّة ، فقط الظلام هو المسيطر على أرضيته اللهم إلا بعضًا من اللمبات الكهربائية التي بالكاد تنير الطريق لمن يخرج في هذا الوقت المتأخر لأمر ما كشراء دواء لمريض من أقرب صيدلية مجاورة .

فكر علاء : ماذا يفعل أيعود إلى منزله وهو الرافض لهذه الفكرة ؟ فما كان منه إلا أن اتخذ وجهته إلى القهوة لعله يجد كنكة ما زال ساهرًا بداخلها ينتظر انصراف آخر زبون لديه ، واستراحت نفسه عندما وجد كنكة ما زال بداخل القهوة لم يغلقها بعد ، لكنه وجد القهوة خالية من الزبائن ، فسأل كنكة عن سبب جلوسه وحيدًا هكذا ما دامت القهوة خالية ، فابتسم له كنكة وهو يستقبله قائلًا :

- لقد عودتني أنت وصاحبك مصطفى من قبلك على إغلاق القهوة في ساعة معينة لن أستطيع العودة قبلها إلى مسكني وإلا ظنني الجيران حرامي يتخبط في ظلمات درجات السلالم وهو في سبيله الوصول إلى شقة أيّ منهم لسرقتها.

طلب علاء شيئًا لم يكن يتوقعه كنكة أن يطلبه منه ، فما كان من كنكة إلا أن استجاب لطلبه وهو متردد وخائف مما سيطرأ عليه من تغيرات ، فنبهه بشدة وهو يقول له :

- أرجوك يا أستاذ علاء بلاش الهباب اللي اسمها المخدرات دي، دا انت يا دوب بقالك أيام معدودة مجرب شرب المعسل ، وعلى حد خبرتي لسة مدخلتش في الغويط وما أدمنتوش زي الناس التقيلة اللي بقالهم زمن في الكار، فخذها نصيحة مني ولا تُقدم على تناولها كي لا تقع في براثنها .

- خليني أجرب يا كنكة ، أهو أنا أحسن من الناس ، بص في عيونهم تلاقيهم في أي مكان مساطيل من الهمّ والغمّ الذي يلازمهم ليل نهار، كلنا مساطيل لكن كل على طريقته التي فرضتها علينا الظروف ، وأنا الآن ظروفي حتمت على تجريبها فهل من مانع ، بس باقولك وحياة ابوك أنا عاوز كوكتيل ينسيني الدنيا وبلاويها .

رد عليه كنكة بعدما وجد أنه لا فائدة من إقناعه ألا وهو العليم والأدرى بحاله من غيره :

- لا مانع يا أستاذ المهم الدفع مقدمًا ، إيدك على ثلاث ورقات بمدنة .
- يعني إيه مش فاهم ؟!!

- يعني إيدك على ثلاثمائة جنيه .

مد علاء يده في جيبه ليخرج له ثمن ما سيتعاطاه ، لكنه وجد جيوبه خاوية إلا من بعض جنيهات فضة ، فقال لكنكة :

- حظك سيئ يا كنكة لا يوجد معي نقود إلا هذه الجنيهات، في الغد سنتحاسب سويًا .

تركه كنكة قاصدًا مخزنًا خلفيًا للقهوة معبأ بأنواع مختلفة للخمور ، تعثرت قدمه في صندوق زجاجات الفودكا وهو ذاهب بعقله المركز على صندوق زجاجات البيرة وخوفًا من إحداثه جلبة أو تهشم بعض من زجاجات الخمور التي سيتحمل ثمنها بلا شك، أخرج زجاجة فودكا وهو يقول :

- مش خسارة فيك يا أستاذ علاء .

ناولها لعلاء وهو يقول له :

- ابسط يا عم نسبة الكحول فيها ٥٦٪ .

- بس أنا مطلبتش خمرة يا كنكة أنا بقولك حشيش .

- يا عم هتفرق إيه من خمرة لحشيش أهو كله بينسّي وبيخليك عايش في دنيا تانية ، المهم تخلص على الإزازة دي وتضرب بعدها قرش الحشيش دا وهتلاقي نفسك بعون الله في دنيا تانية خالص غير دنيا الهم والغم اللي معيش نفسك فيهم .

وأخرج له قرش الحشيش من جيبه وقال له وهو يناوله :

- تعرف دا تمنه كام يا أستاذ علاء ؟
- كام يا سي كنكة ؟
- ورقتين بمدنة ؛ أصله حشيش لبناني أصلي .
- أصلي ولا فالصو ناولني الشيشة ورص يا أبو الكنك.
- حلوة منك يا أبو الأعلاء .

هزّ كنكة كتفه وتركه لينكبّ على زجاجات الشيشة ينظفها مما علق بها من أدخنة وماء آسن لم يتغير طيلة النهار ، فأصبحت رائحته نتنة لا يكاد يطيقها الحيوان قبل الإنسان ، وأخذ يتابع علاء بعينه ويواليه بأحجرة المعسل الممزوجة بمخدر الحشيش لدرجة أن علاء أتى على قرش حشيش بأكمله ، وقبل أن يطلب من كنكة حجرًا آخر سبقه يقول :

- بح يا أستاذ علاء شطبت أستأذنك عايز اقفل .

فرد عليه علاء وهو مقبل على فقدان الوعي ، والكلام يخرج من فمه بصعوبة :

- يعني إيه يا كنكة عاوزني اروّح .
- آه بصراحة ومن غير لف ودوران .
- تعرف يا كنكة أنا نفسي في إيه دلوقتي .
- في إيه يا أستاذ علاء ؟
- نفسي أجرب موضوع السرقة دا مرة ، مرة واحدة في حياتي ، أصلي أنا فلّست وانكسف أمدّ إيدي لوالدي زي العيال الصغيرة وأقوله هات ، مش واخد بالك إن أنا بقيت عامل زي الهلف ، ومش كده وبس لا دقني ما شاء الله كبيرة .
- والله اللي تشوفه عايز تسرق عايز تقتل دا شيء يخصك وانت حر في نفسك.
- يعني انت شايف كده يا كنكة ، طب خلاص أستودعك الله أنا رايح أسرق ، هادور على أحسن منزل يقابلني واسرقه ، لأ لأ أنا هستأذن أهله أولًا ، أصحيهم من نومهم وأقولهم يا جماعة أنا جاي أسرقكم عندكم مانع ، تظن يا كنكة هيبقى عندهم مانع ؟
- لا ما اظنش يلا مع السلامة وربنا يوفقك .
- مع السلامة يا كنكة واشوفك بكرة بقى .

ضرب كنكة كفًّا بكفّ ولام نفسه لأنه طاوعه وأعطاه بيده مخدر الحشيش بجانب زجاجة الفودكا اللذين أوصلاه لحالته هذه من السطل والهلوسة وانحدار لمبادئه وسلوكه ، لدرجة تجرأه والبوح له بأن عقله يلح عليه بارتكاب جرم السرقة ، لكنه هز كتفيه بعد إغلاقه القهوة وسيره وحيدًا في الحارة وقال لنفسه :

- وأنا مالي هو أنا ضربته على إيده وقولتله اشرب بالعافية ، دا هو اللي جه بنفسه وطلب مني تجربة هذا المدعوق اللي شكله كده والله أعلم لن أطول

حقه إلا بعد ما يفرجها عليه ربنا ، يا رب افرجها على عبادك .

لم يكن كنكة يتصور أن علاء سينفذ ما أسرّبه اليه، ولوكان علاء بذات نفسه قال له لقد هِمْتُ على وجهي ما بقي من الليل أبحث عن منزل أسرقه ما كان سيصدقه .

***

كان الوقت فجرًا عندما اجتازعلاء شارع التحرير سيرًا على الأقدام مقتحمًا من خلاله حي الدقي يسيرعلى غيرهدًى في شوارعه الهادئة المستكينة النائمة في ظلمتها الموحشة ، لمبات الإضاءة تتوارى مستحية بفعل الأشجار المتجاوزة النصف قرن بأعمارها بل ويزيد البعض منها حتى المائة عام والكثيفة بأغصانها وأوراقها الخضراء والممتدة بأفرعها .

ظل على حاله هكذا هائمًا في الشوارع لمدة تجاوزت الساعة ونصف يبحث عن ضالته حتى وجدها ، فيلا راقت له وأعجبته دونًا عن البنايات القائمة بجوارها واختارها أيضًا لملاحظته لباب الفيلا الخارجي مواربًا ، نسي أصحابها إغلاقه بعد دلوفهم إلى داخلها ، قال علاء وهو يشير ناحية الفيلا : لقد وقع اختياري عليك ومن حسن حظك أنك ستكوني أولى بداياتي في السرقة فلا تخذليني وكوني وش السعد عليّ ، وتقدم نحوها حتى جعل وجهه مواجهًا للسور الأسمنتي الذي يعلوه حراب حديدية تجعل من يحاول التسلق يفكر ألف مرة قبل الإقدام على محاولته الخطرة هذه والتي حتمًا سيخرج منها داميًا نادمًا ، أخذ علاء يحدث نفسه ويقول :

- هما الحرامية لما ييجوا يسرقوا بيعتلوا الأسوار أم يدخلون البيوت من أبوابها؟ أظن أنهم يدخلون البيوت من أبوابها .

ساربجانب السور حتى وصوله لمدخل الفيلا ، وتقدم بخطواته إلى الداخل وهو يقول لنفسه :

- طلعت غلطان يا واد يا علاء دي طلعت فيلا مش منزل ، أما أنا حمار بصحيح ، طب ما هي الفيلا هي المنزل وهما الاثنين لا يتخيران عن بعض.

وصل للباب الداخلي فوجده مغلقًا ، فجلس بجواره وهو يقول لنفسه :

- طب إذا وجدنا الباب مغلقًا فما الحل ؟ آه صحيح ؛ الحل هو أن نأتي البيوت من شبابيكها أو من بلكوناتها .

وقام من فوره وهو ما يزال يترنح في مشيته واعتلى البلكونة وفتح ضلفتيها الموصدتين ليجد نفسه بالداخل ، وقبل امتداد يده على أي شيء ما تجحظ عيناه عليه حدث نفسه قائلًا :

- من العيب أن أمد يدي على شيء وآخذه قبل استأذان أصحابه .

أخذ يفتح حجرات الفيلا حجرة حجرة إلى أن وصل لحجرة نوم وعلى سريرها جسد ممدد صاحبته نائمة لتوها، فدخل عليها وتفحصها بيده وهو ينزع عنها روب نومها الشفاف الذي يبرز مفاتنها، فسال لعابه وهو يتفحصها مرة أخرى من رأسها إلى أخمص قدميها وهو يقول لنفسه :

- أظن أني رأيت هذه المرأة الفاتنة من قبل، فين فين مش فاكر ؟

وأخذ ينزع ملابسه عن جسده وهو يقول :

- أول مرة في حياتي أحس إن أنا جعان بهذا الشكل .

هوى بيده على القط المتحفز لمهاجمته ففرّالقط مذعورًا لأسفل السريروبعدما انتهى منها لملم ملابسه ، وخرج من الحجرة يبحث عن الحمام لشعوره بتقلصات

قوية تضرب معدته لن يسكتها إلا بجلوسه على مقعدة الحمام في التوّ واللحظة ، قال لنفسه يتساءل «فين الحمّام يا واد يا علاء ؟ « ظل يبحث عنه حتى وجده ، وداخل البانيو تمدد داخل المياه التي نسيت صاحبته إفراغه بعد استحمامها ، دقيقتين أو أكثر أفاق خلالهما علاء واسترد وعيه كاملًا ، ففزع عندما وجد نفسه داخل مكان غريب عليه لأول مرة يكون بداخله ، ظن في بادئ الأمر أنه حمام منزله ، فارتدى ملابسه على وجه السرعة وخرج يبحث عن باب الفيلا .

وبينما هو كذلك حائر في الصالة يبحث عن مخرج اصطدم جسده بفازة ثمينة تعلوها رسوم أسماك فارتطمت أرضًا لتحدث دويًّا كبيرًا ، قامت على إثره صاحبة المسكن من نومها فزعةً من صوت الدوي ، وتزداد فزعتها لتصل لذروتها وهي ترى قطها الأليف بين ثدييها متحفزٌ يصفعها بقدميه يريد إفاقتها من نومها ، فرسمه خيالها للحظات وكأنه جنيٌّ جاثمٌ فوقها يضاجعها ، ولما فزعت لصوت الارتطام عاد يتلبس شخصية القط الأليف الذي يخدعها طول الوقت يقابلها بالأحضان ويتمسح فيها ، وأخيرًا ينام بجوارها ليفعل بها ما يحلوله وهي نائمة ، أزاحته بعيدًا بقوة يديها وكأن الارتطام ألصقه في الحائط فأسقطه أرضًا مغشيًا عليه ، ووسط حيرتها جراء ما فعلته بالقط تذكرت صوت الارتطام فخرجت مسرعة ناحية الصالة لترى ما الذي أوقعها ، وعلى مرمى بصرها تلاقت عيناها بعيني علاء الذي كان قد اهتدى أخيرًا إلى شباك البلكونة الذي دخل منه ، فقال لها وهو يهم بالفرار: أرجوكِ أرجوكِ يا مدام جيهان لا تظنيني لصًّا ، فأنا لم أسرق شيئًا ، وفي لمح البصر اختفى من أمامها .
أسرعت جيهان خلفه وهي تنادي على عسقلاني تستغيث به :

- امسك يا عسقلاني، امسك حرامي .

رأت علاء يفرّ من أمام عينيها إلى خارج الفيلا ، فتذكرت أنها وحيدة بعد سفر منصور ورحيل عسقلاني المفاجئ بأولاده وزوجته عائدًا إلى بلدته بجثة أسماء ، فتوقفت عن الاستغاثة ، وحمدت الله أن اللص الذي رأته بأم عينها ليس بقطها الأليف الذي ظنته في لحظة فزعها من كونه جنيًّا من فصيلة الجان التي تعيش بيننا يُخفي هيئته الحقيقية تحت عباءة الأنواع العديدة من الفصيلة القططية ، تذكرت القط وما فعلته به وهو يحاول إيقاظها عند رؤيته للص فاستعدت لدخول حجرتها للاطمئنان عليه ، فوجدته في سبيله إليها يموء ويهز ذيله ويتمسح في إحدى قدميها عند اقترابها منه ، فحملته بين يديها وقبلته على رأسه تتأسف له عما بدر منها تجاهه .

وبعد تأكدها أن اللص لم يسعفه الحظ لسرقة شيء بعد اصطدامه بالفازة واستيقاظها في الوقت المناسب ورؤيتها له يفرّ خالي الوفاض ، دلفت إلى الحجرات تفتح أبوابها وتتأكد من أن كل شيء ما زال موجودًا بمكانه لم تمتد عليه يد بعد خصوصًا الأموال والمجوهرات المحتفظة بهم داخل حجرة خاصة لا تسمح لأحد بدخولها إلا هي بعدما ذاقت الأمرّين من أغلب الشغالات التي كانت تستعين بهن في القيام بالأعمال المنزلية أثناء غيابها ساعات العمل.

وبعد انتهائها من فحص كل شيء وتأكدها أنه في مكانه همت بالذهاب إلى حجرة نومها مرة أخرى وهي في طريقها تذكرت الفازة المهشمة أمامها ، فركعت على ركبتيها تحاول لملمة أشلائها وهي حزينة على فقدها شيء عزيز حاولت قدر المستطاع الإبقاء عليها سليمة كما هي ، «إنها أغلى هدية أهداها لي منصور ، ليس لثمنها الباهظ الذي دفعه فيها فقط بل لإحساسي أنه اقتطع جزءًا من جسده وأهداه لي».

قالت ذلك وهي تجلس على حافة السرير لعلها تستطيع النوم مرةً أخرى ، لكنها لم تفعل سوى الجلوس مكانها والارتكاز بيديها الاثنتين للخلف.

وبينما هي كذلك إذ أحست بإحساس غريب لم تعهده من قبل في أي ليلة من لياليها السابقة لا قبل ولا بعد زواجها من منصور ، إنه شعور الإحساس بالدفء والإشباع والارتواء الذي طالما سمعت به من نساء كثيرات استضافتهن من خلال برنامجها ، وكان محور حديثها معهن عما يدور داخل الحجرات المغلقة ، سواء كن متزوجات أو مومسات ، وتمنت من كل قلبها أن يشملها هذا الإحساس يومًا عن طريق منصور الذي ما يزال باردًا برود القارّة القطبية الجنوبية المتجمدة ، وبالأخص عند نومه بجوارها .

هزت كتفيها تطرد تلك الأوهام التي داهمتها في لحظات لا تعرف لمَ ألمَّ بها هذا الإحساس وذلك الشعور الذي أنساها أمر اللص وما كان ينوي سرقته .

حاولت إقناع نفسها أنها كانت تحلم حلمًا من نوعية أحلام الواقع التي كانت تنسج خيوطها وتصيغ حبكتها لتتناسب مع رغبتها المكبوتة والمكتومة التي تجعلها تئن أنين الحالمة العاشقة التي أحبت حبًّا «شفويًا «وصلت من خلاله لدرجة عدم خوفها من خوض غمار معركة تعلم أنها ستنال خلالها ألوانًا شتى من العذاب حال تذوقها طعم ثمار ذلك الحب ، وعندما أتت لحظة الامتحان «التحريري « لحظة الاقتراب والتعامل والتفاعل والتجاذب والتشابك والتلاحم ، لحظة الإثبات الحقيقية التي من خلالها يتلاشى الوجود وتبقى تلك اللحظة ، لحظة يفنى العالم في سبيل الاقتناع والرضا التامّ بأنها تحققت وأصبحت شيئًا سيتحرك داخل أحشائها خلال فترة ليست بالبعيدة ، إنها لحظة السمو التي تفصل الإنسان عن عقله لتلبية نداء رغبته الحيوانية التي لا يستطيع فكاك أسره منها إلا بقذفها في وجه من يخوض في سبيله معركة حب البقاء ، معركة

تجعل من البشرية بل جميع الخلائق في دخول دائرة إحلال وتجديد دائمين ومستمرين حتى يشاء المولى ويأمر بزوال الدنيا وما فيها.

وأمام إحساسها بعدم تحمل ذلك اللهيب الذي ما زال يضرب بكل قوته في جسدها ولم تخمد نيرانه بعد تذكرت مرة أخرى المياه الدافئة التي حتمًا ستطفئها وتجعلها تستعيد اتزانها مرة أخرى ، فاتجهت إلى الحمام رغبةً منها في الاستحمام وهي لا تعلم أنها ستزيل آثار بعض من تلك الحيوانات التي اخترقت مسمام جلدها تشعر وتحس بها تسري بداخل جسدها .

انحنت لفتح صنبور المياه لملء البانيو لكنها وجدته مملؤًا عن آخره ، فقالت لنفسها: «أول مرة أنسى إفراغك بعد استحمامي بداخلك « وهمّت بإفراغه لكنها قالت لنفسها مرة أخرى : «ومالها المية دي هو يعني في حد غيري استحمى بداخلها ، فالحين بس نوَعّي الناس في الرايحة والجاية ونقولهم يا جماعة حافظوا على المية ، حافظوا على المية ، واحنا أول ناس بنستخدمها استخدام خاطئ ونسرف في استعمالها ، والله لاستحمى بنفس مية البانيو التي استحممت فيها منذ قليل « وغاصت بداخل البانيو ، وبينما هي في كامل استعدادها للاسترخاء بداخله يشملها مرةً أخرى ذلك الإحساس الذي شعرت به وهي جالسة على حافة السرير لكن هذه المرة يتبعها برعشة فرجفة فخضة من المياه التي كانت لا تشعر بها رغم برودتها القارسة في فصل الشتاء .

استسلمت للمياه رغم ما يلمّ بها ، وغاصت في داخلها بكامل جسدها ، وقبل إغماضها عينيها لتتوه في عالم من الأحلام الوردية نظرًا لذلك الإحساس الذي لم يشملها من قبل ، وقع بصرها على سروال داخلي لم تره عيناها من قبل ، فهي تعرف قطعًا ملابس منصور الداخلية ؛ لأنها هي التي تشتريها له بنفسها من أغلى الماركات العالمية ، وهذه القطعة التي تراها محلية الصنع وتختلف اختلافًا

كليًّا في الشكل واللون ولم ترها من قبل ، فتذكرت على الفور اللص الذي كان منذ دقائق أمام عينيها يرجوها أن تدعه يذهب بسلام والماء يتساقط من شعر رأسه وذقنه المبللين ، فقامت فزعة من مكانها وأفرغت كل ما في البانيو من ماء ، ووضعت زجاجة شامبو بأكملها على جسدها ، وظلت لمدة تدلك جسدها به فاتحة الدش من فوقها لعلها تستطيع مساعدة نفسها في التخلص من الماء الذي تمدد بداخله اللص الذي حتمًا أعجبه الحمام فتناسى أمر السرقة وتذكر أمر جسده الذي لم تزره مياه الاستحمام منذ أمدٍ بعيد .

***

اصطدم علاء بوالده وهو يهمّ بوضع يده على جرس الباب ، وسأله قبل أن يبادره والده متعجبًا :

- هو أنت كنت بايت برة يا علاء يا ابني !
- هو أنت لسة مارحتش لشغلك يا حاج !.
- يا ابني ردّ على سؤالي الأول إنت كنت فين ؟
- كنت ... كنت ، هو أنا ما قولتلكش أصل أنا قضيت الليلة في عمل جابهولي واحد صاحبي في فندق ثلاث نجوم بس أنا خلاص قررت إن ماروحهوش تاني.
- ليه يا ابني هو حد يطول يشتغل في فندق .
- يا بابا ما تتغرش في الفنادق للدرجادي دي عاملة زي المثل اللي بيقول : من برّة هالله هالله ومن جوة يعلم الله .
- والله براحتك يا ابني ، دي حياتك وانت حرّفيها ولن أتدخل في شئونك بعد الآن ، هيه السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا بابا .

دلف علاء إلى حجرته قبل رؤية والدته له التي خالفت ظنه ورأته يغلق باب الحجرة وراءه فنادت عليه :

- مش هتفطريا ابني .

فردّ عليها من وراء الباب :

- مش واكل يا ماما ماليش نفس ولّا اقولّك أنا فطرت من بدري .

خلع ملابسه وأخفاها داخل شنطة سفرتعتلي الدولاب ، وبعد تبديلها ببيجامة نومه وضع الفوطة على كتفه وخرج من الحجرة متجهًا إلى الحمام ، وخلال دقائق كان حالقًا لحيته وهويدعوفي كل مرة تنزل ماكينة الحلاقة على وجهه ألا تتعرف عليه جيهان في يوم من الأيام بعد أن جثم على صدره إحساس عدم هدوء بالها إلا بالعثور عليه من خلال البحث عنه ، وهي الآن في سبيلها لتقديم بلاغ للشرطة بمواصفاته بعد اتهامها إياه باغتصابها ورؤيته وجهًا لوجه .

رأته والدته بعد خروجه من الحمام فابتسمت في وجهه واضعةً يديها على خديه الناعمين وقالت له :

- باسم الله ما شاء الله .

فبادرها علاء والحزن واضح جدًّا من خلال قسمات وجهه :

- ليتك لم تلديني يا أمي .

وتركها في حيرتها من جملته هذه ، وأغلق من ورائه باب حجرته ، وراح في نوبة بكاء أعقبها الاستغفاروالندم على ما بدرمنه .

(٢١)

بدأت الخلافات تدبّ بين مصطفى ومنيرة بعد رؤيتها له وهو يتحدث مع ثلاث من بنات الجيران ويتبادل معهن أرقام التيفونات ، وذلك عندما اضطرت لارتقاء درجات السلالم بعد إخبار البواب لها بأن الأسانسير معطل ، نادت عليه بانفعال : «مصطفى» فارتبك واستأذن البنات على وعد باللقاء ، وحيّاها متصنِّعًا بأنه لقاء عابر لم يكن يقصد فيه استيقافهم والتحدث معهم ، لكن منيرة لم تصدق تبريره هذا ، وهددته صراحة إن كرر فعلته هذه مرة أخرى فلن تتوانى عن مطالبته بمبلغ المليون جنيه الذي أخذه منها على سبيل الاستدانة ، وذلك عن طريق المحاكم ، فما كان من مصطفى إلا أن استشاط غضبًا وانهال عليها ضربًا وركلًا وصفعًا بعد أخذها المبادرة وصفعه أولًا على وجهه .

وبعد هذه المشاجرة العنيفة التي لم يخرج منها خاسرًا إلا منيرة التي وقفت حائلًا أمام خروج مصطفى من الشقة ترجوه ألا يتركها ويرحل ، رغم ما أحدثه بها من كدمات ظهرت سريعًا على أنحاء وجهها وجسدها ، وأمام إلحاحها هذا وتوسلها له وهي تبكي رضخ مصطفى وتأسف لها هو الآخر ، وبذلك عادت المياه لمجاريها بين الزوجين خلال مدة تجاوزت الدقائق المعدودات هي وقت المشاجرة بينهما ، وكأن شيئًا لم يحدث ، لكن الشئ الوحيد الذي لم يشأ الاثنان البوح به لبعضهما هو أن كلاهما خرج ببعض الدروس المستفادة من هذه المشاجرة ألا وهي أن منيرة التي تمنت لو عادت عجلة الزمن للخلف وخُيرت بين أن تظل وحيدة بدون زواج وبين اختيارها الذي لم يكن موفقًا لفضلت أن تظل حاملة

لقب آنسة حتى مماتها ، أما مصطفى فقد تعلم من خلال هذه المشاجرة أنه مهما فعل بمنيرة من ضرب وإهانات وسباب ، حتى إن وصل الأمر لخيانتها مع غيرها في سرير نومهما ، فإنها لن تفكر في التخلي أو البعد عنه ، لسبب أنه الوحيد من أيقظ رغبة مدفونة منذ القدم بداخلها تجاهلت إشباعها خلال معترك العمل اليومي .

وفي اليوم التالي للمشاجرة استدعت منيرة الحسيني لمكتبها وأعلمته أنها لم تبتّ في قرار استقالة علاء بعد ، وأنها تعتبره في إجازة مرضية وإن كان لا يزال لديه رغبة في عودته للعمل فليعد ، فدعا الحسيني لها بالستر وشكرها على هذه الخدمة الجليلة التي لم يكن يتوقع صدورها منها ، لكنه كان لديه إحساس أن ما اتخذته منيرة من قرار لعودة علاء للعمل إنما لأنها تريده بجانبها دومًا لتشكو له أفعال صاحبه تجاهها ، وهو ما يظهر واضحًا يفضح وجهها من آثار كدمات كانت منيرة تبحث عمن تشتكي له أفعال زوجها التي تغيرت على النقيض تمامًا بعد شهر عسل لم يدم طويلًا ، كان خلال أيامه الثلاثين نِعم الزوج الذي تحلم به أية سيدة في عنفوانه وقوته وحبه وعشقه وبحره المتدفق بالحيوية ، والذي أغرقها فيه بل وأسكرها من ملذاته التي لطالما تمنتها وحلمت بها في ليالٍ كثيرة ، عانت خلالها من الوحدة وعدم وجود الونس الذي يشعرها بالدفء في الليالي الشتوية ، وبالنسمة العليلة في فصل الصيف .

جلست أغلب ليلتها تفكر كيف تحافظ عليه ولم تهتد إلا إلى علاء فهو الوحيد من وجهة نظرها القادر على ردّ صاحبه وإعادته إلى رشده وصوابه بعدما عرفت مدى الاحترام الذي يكنّه مصطفى له من خلال كلامه الكثير عنه أمامها.

عاد الحسيني من عمله حاملًا البشرى والبِشر على وجهه ، قابل زوجته التي قابلته هي الأخرى حاملةً البشرى والبشر على وجهها ، فكل منهما لديه خبرٌ سعيد

يريد إعلامه للآخر. بدأ الحسيني أولًا وأخبرها بما أسرّت به منيرة من عودة علاء للعمل، فكان هذا الخبر الذي أثلج صدر عزيزة وجعلها تنسى أو تتجاهل إعلام الحسيني بأمر لحية علاء التي حلقها بعد عودته من الخارج.

جلس الاثنان على مائدة الطعام ينتظران خروج علاء عليهما ليتناول معهما طعام الغداء، وليتمليا فيه بنظرهما وكأنه شخص كان محبوسًا داخل السجن وخرج لتوّه.

طال انتظارهم لخروجه وهما مصمّمان على عدم امتداد يديهما على الطعام والتهام منه شيء قبل تناوله هو منه، نادت عليه عزيزة مرة واثنتين وثلاثة وأربعة وهكذا، ولم تملّ من تكرار المناداة حتى استجاب لها علاء، وخرج يتأسف لهما، وجلس يتناول اللقيمات التي كانت تنزل بصعوبة شديدة إلى معدته لدرجة شعوره بالغثيان، فقام من فوره وتوجه إلى الحمام ليستفرغ كل ما تناوله، نظر الوالدان لبعضهما بعدما انتابهما القلق لخوفهما عليه، ولسان حالهما يقول: «إحنا حسدناه ولا إيه»

***

كان الوقت مساءً عندما نشبت المشاجرة الثانية بين منيرة ومصطفى إثر مكالمة هاتفية تلقاها مصطفى الذي كان غائبًا داخل الحمّام يأخذ دشًّا ساخنًا استعدادًا لبدء ليلة ساخنة اتفق عليها الاثنان في نهاية جلسة عقداها سويًّا لإزالة ما علق من شوائب ألمت بعلاقتهما.

استشاطت منيرة غيظًا عندما فتحت الهاتف وردت على المتصلة التي وجدتها تقول لها بكل بجاحة: لو سمحت يا طَنط ممكن أكلم مصطفى، وإذا بالتليفون على إثر هذه الجملة يطرح أرضًا بكل قوة من يد منيرة فيتهشم تهشيمًا.

خرج مصطفى من الحمام مستعدًّا تمامًا لما اتفقا عليه ، لكنه وجد منيرة تقذف ناحيته بكل ما وقعت عليه عيناها ، فما كان منه إلا أن اختبأ وراء الجدار القريب منه يحتمي به وهو يحاول معرفة ما جعلها على هذه الحالة من الشراسة والعدوانية تجاهه ، وأول ما بدأ به من كلام :

- في إيه يا مجنونة ، ماذا حدث ؟ دا احنا لسه معملناش حاجة من اللي اتفقنا عليها .
- وحياة أمك ما أنت طايل مني أي شيء لا جنس ولا أموال .
- إيه دا يا منيرة هي وصلت الحكاية للأمّ ، طب فهميني الأول إيه اللي حصل .

وفي أقرب فرصة وجد من خلالها يدها خالية تحاول البحث عن أي شيء تقذفه به جرى نحوها وأخذها بين يديه وجعلها أسيرة حضنه الدافئ وهو ما يزال يسألها ماذا حدث ؟ وهي تصرّ على مناداته بالخائن المخادع ، وعندما وقعت عيناه على تليفونه المهشم أرضًا أيقن أنها ما أقدمت على ما فعلته إلا من خلال شخص ما أثار حفيظتها وجعلها في هذه الحالة من الجنون .

ارتدى ملابس الخروج ، وتركها بعدما أخبرها ألا تنتظر مجيئه لأنه قرر تمضية يومين أو ثلاث بجوار والدته يسلي وحدتها بعد أخذها منها فجأة .

وفي الصباح جلست منيرة تؤنب نفسها على تهورها وعدم تمهلها وسماع مصطفى وتبريراته ، «لعلها وقيعة من أولاد إخوتي بعدما تسرب اليهم خبر زواجي» ، قالت ذلك وهي تضرب جبهتها ببطن يدها ، ومن أجل ذلك حولت وجهتها من الذهاب إلى عملها إلى الذهاب إليه في منزل الأسرة، طيلة الطريق تلوم نفسها على عصبيتها الزائدة تجاهه ، تتحسر على الليلة التي قضتها لأول مرة منذ زواجها به بدون أحضانه الدافئة والتي وجدت من خلالها أخيرًا الإحساس بالأمان .

رنت جرس الباب وظنته سيكون أول مستقبليها لكنها وجدت والدته تفتح لها وتسألها من أنت ؟ فودت منيرة القول لها أنا زوجة ابنك الغالي لكنها تراجعت عن ذلك وبادرتها قائلة والابتسامة لا تفارق شفتيها :

- إنت مش فكراني يا حاجة أم مصطفى ؟

تفحصتها كريمة وقالت لها :

- أهلًا أهلًا بالست منيرة اتفضلي مش حضرتك اللي زرتِ مصطفى من فترة وأتيت له بعمله الجديد .
- أيوه أنا يا ست أم مصطفى، أُمّال مصطفى فين هو لسه نايم ؟
- مصطفى .... دا مصطفى مسافر ولسه ما رجعش .
- إزاي يا حاجة دا قال لي امبارح إنه هيبات هنا .
- امبارح وقالك، ليه هو إنت شفتي مصطفى فين ؟، وهو جه امتي ومعقول ييجي وميعديش عليّا ؟!.
- يا حاجة أقصد أنه اتصل بي بالأمس وأخبرني أنه سيأتي اليوم آخر النهار وأوصاني بالمرور عليك وإبلاغك بهذا .
- والله ما انا فاهمة حاجة، إزاي جاي النهاردة وهو اتصل بي بالأمس وأخبرني أنه سيضطر للعودة بعد شهر لضغط الشغل عليه .

وقبل أن تزداد حيرتها أكثر سمعت جرس الباب يرنّ فاستأذنتها وقامت لتفتح الباب، لتتنفس منيرة الصعداء بعدما أصبحت في موقف لا تحسد عليه ولولا سماعها لجرس الباب لكانت اعترفت لكريمة بأمر زواجها من مصطفى وأراحت واستراحت ، وبينما هي كذلك تفكر في مخرج مما أوقعت نفسها فيه إذ تسمع كريمة تقول :

- مين .... مصطفى ابني حبيبي .

فقامت منيرة من مكانها والدم يغلي في عروقها وهي تقول : « جيت يا بن الكلب»
لكنها عادت لحالتها الطبيعية مرة أخرى عندما سمعت كريمة تقول :

- مالك يا ابني مش عارف تصلب طولك ليه، إف سكران، يوم ما تيجي تزورني تجيلي سكران، روح الله يسامحك .

دخل مصطفى يترنح وهو يتأسف لوالدته :

- معلش يا ماما غصب عني، أصل أنا وقعت نفسي في مشكلة كبيرة كبيرة قوي وشكلي كده هدخل السجن قريب، مين منيرة، إنت ورايا ورايا، حتى اسألي منيرة مش كدة يا منيرة هدخل السجن قريب ولا لأ .

لم تحاول منيرة الدخول معه في نقاش سيؤدي حتمًا إلى مشاجرة جديدة بينهما، وخشية افتضاح أمرزواجها منه أمام والدته التي استأذنت في عمل مشروب للضيفة التي رأته على حاله هكذا .
تركته منيرة وأغلقت باب الشقة وراءها وهي تسمعه يناديها :

- منيرة استني يا منيرة حرام عليك يا قاسية متسجنينيش .

وعلى بُعد خطوات من مسكنه سارت منيرة على قدميها وهي لا تعرف إن كانت هذه الخطوات طالت أم قصرت ذهبت خلالها إلى شقة الحسيني تسأل عن علاء ، استقبلتها عزيزة فعرفتها جيدًا ورحبت بها أيما ترحيب وودت لو انتظرت لتجلس معها لبعض الوقت بعد إخبارها بأن علاء فرح كثيرًا بأمر عودته للعمل وهو الآن هناك في عمله برفقة والده .

لم تكذب منيرة خبرًا وعادت نفس الخطوات لكنها كانت خطوات يغلب عليها السرعة، استقلت سيارتها آخذةً طريقها إلى مقرّعملها .

(٢٢)

استطاعت الشرطة من خلال تحرياتها وبحثها العثور على الصبي شوقي صاحب الملابس التي تركها بالحجرة عند رؤية عبده له ، اعترف بكل شيء بعد رؤيته لوالده يعلّق من قدميه ويعذب أمام عينيه ، وعندما واجهته النيابة بعبده لم ينكر أيضًا بل أصرّ على اعترافه ، لكن الشئ الغريب الذي حير المحقق أن عبده أنكر رؤيته لشوقي وقت وقوع الجريمة ، وأنه لا يتذكر وجه الرجل الذي وجد زوجته في أحضانه ، وظل يردد على مسامع المحقق أن الصبي شوقي بريء ، فاضطر المحقق الإفراج عن شوقي ووالده ، لكن عندما علم أهل المنطقة بأمر القبض على شوقي ووالده وتوجيه الاتهام إليه بأنه عشيق أسماء التي قتلت من أجله وأنها هامت به وخانت عبده معه أجمعوا على أمر طرد الأسرة جميعها من المنطقة بل وإزالة الكشك الوحيد الذي لو علم من سعوا لإقامته كمساعدة لتلك الأسرة ، التي يطحنها الفقر طحنًا ، أنه سيجلب من ورائه أول جريمة قتل في حيهم الهادئ - لما كانوا أشفقوا عليهم وما حاولوا مساعدتهم .

وبعد أيام من رحيلهم شاع خبر بينهم لم يعرف مصدره مفاده أن الصبي شوقي وجد ليلًا بالمنطقة التي رحل مع والديه وإخوته إليها منزوع العضو الحساس لديه عن طريق قطعه بسكين حاد ، ولم يستدل بعد على من أقبل على فعل هذه الفعلة الشنعاء به .

في الجانب الآخر هناك في قرية بلابيش المستجدة بدار السلام تعمد أولاد عبده الأربعة العمل على إشاعة نبأ وصول عسقلاني هو وأولاده وزوجته للبلدة للتغطية على فعلة أسماء النكراء وإلهاء الناس الذين حتمًا سيترقبون ما ستسفر عنه الأيام القادمة من مواجهات دامية ، وضع الإخوة الأربعة أنفسهم بداخلها بإرادتهم كما يظنون ، ولو كان أهل البلدة يعلمون ما يحيق بأولاد عبده من وصمة الخزي والعار لعفوا عنهم بل وأشفقوا عليهم ومن ضمنهم من يريدون الثأر من عسقلاني لتجرؤه العودة مرة أخرى وهو الآخذ على نفسه عهدًا بالرحيل بعيدًا وعدم العودة مرة أخرى .

نادى الإخوة الأربعة في الناس وأكدوا أن عسقلاني وأسرته في حمايتهم ومن يريد به سوءًا فقد ناصبهم العداء لأنه ضيف عزيز حل بديارهم ولجأ إليهم وهم رحبوا به وما داموا رحبوا به فقد أصبح واحدًا منهم .

وعلى إثر هذا الخبر الذي يقينًا رآه أهل القرية رؤيا العين أصبح لزامًا عليهم الترقب لسماع خبر ليس بسعيد سيحل عليهم عما قريب ، بعد هدوء دام لعشر سنوات كانوا ينعمون بالأمان والسكينة خلالها دون أي حوادث جسام تذكر ، وكذلك أصبح لزامًا على من يريد رؤية عسقلاني وأولاده وزوجته ، أن يستأذن أصحاب الدار في السماح له بمقابلته سواء كانوا من أصدقاء عسقلاني القدامي أو أهل زوجته أو أيًا من أقاربه غير الموجودين بالقرية اللهم إلا أولاد من قتلوا ، صغارٌهم لم يشبّوا بالقدر الذي يسمح لهم بحمل السلاح ومواجهة من يتمهم ورمّل أمهاتهم ، ولو رُفض طلب أيّ منهم بناء على رغبة عسقلاني في عدم رؤيته فليعد من حيث أتى دون مناقشة وإلّا ...

وجرّاء تلك الأحداث المتلاحقة والتي جعلت من القرية شبه ثكنة عسكرية بين يوم وليلة ودون سابق إنذار، طلقات نارية كثيفة عشوائية هوجاء تشقّ صمت

الليل الكئيب بظلامه الموحش ، إنهم أولاد عبده من يفعلون ذلك ، أما أصحاب الدم فقد التزموا الصمت ولم يصدر منهم أي تعليق على ما حلّ عليهم كالصاعقة ، يبحثون عن الأسباب التي جعلت الإخوة الأربعة ينصِّبون أنفسهم أعداءً لهم فجأة وهم ما يربطهم بهم علاقات الود والصداقة والجِيرة .

***

وفي يوم محدد كان معدًّا له مسبقًا بين عسقلاني والإخوة الأربعة خرجوا من القرية متخفين وزاروا عبده في محبسه ، رأوه والدموع تفرّ من عينيه أمامهم كالطفل الصغير يطالبهم بأن يسامحوه على ما بدر منه في حقهم ، انسحب عسقلاني بهدوء وأخذ ركنًا قصيًّا يضرب رأسه في الحائط الملاصق لظهره ويبكي كما يبكي عبده ، رآه الإخوة الأربعة وظنوه يبكي لبكاء والدهم وحزنًا عليه ، لكنه وحده كان يعلم سبب بكائه ، وفي نهاية الزيارة وأثناء توديعه لعبده أخذه بالأحضان ، وقال له :

- سامحني يا عم عبده إن كنت يومًا بدر مني سوءًا بحقك .

فتعجب عبده من كلامه وقال له :

- إن كان من الأولى فلا بد أن يصدر مني هذا الكلام ولتسامحني أنت .

وفي طريق العودة كان الإخوة الأربعة يحاولون ما في استطاعتهم حمل عسقلاني على كفوف الراحة من خلال توقفهم في أكثر من استراحة ووضع أمامه ما لذَّ وطاب من الطعام ، هذا غير المشروبات الساخنة والباردة التي شربها مضطرًّا تحت ضغط من قسمهم وأيماناتهم ، لكن في كل مرة كانوا يفعلون هذا معه كان يزداد تأنيبًا لنفسه متمنيًا لو يُلقي بنفسه تحت عجلات أي سيارة قادمة من أي

الاتجاهين ليستريح من العذاب الذي ينهش في ضميره نهشًا لما فعله من خيانة لوالدهم في لحظة ضعف كان مخططًا ومعدًّا لها مسبقًا من قبل أسماء .

***

وصلوا والظلام قد خيَّم بوحشته على القرية كما خرجوا فجرًا ظانين أن أحدًا بالقرية لم يعرف بأمر خروجهم أو دخولهم منها ، لكن ما أفزعهم أن كل واحد منهم وجد رسالة مرسلة إليه عن طريق لسان زوجته مفادها أنهم دخلوا حربًا لا هوادة فيها ما داموا نصبوا أنفسهم خصومًا في معركة كانوا بعيدين عنها كل البعد ، وإن كانوا يريدون السلامة لأنفسهم ولأولادهم فليسلموا عسقلاني لهم ليقتصوا منه كما يريدون ، وعلى إثر تلقيهم هذه الرسائل من زوجاتهم اعتلوا أسطح منازلهم في آن واحد مصممين أكثر على حماية عسقلاني وبعث رسالة للجميع عن طريق بنادقهم الآلية أنهم دخلوا بالفعل المعركة وقبلوا التحدي وهم على علم تامّ بما ستدره عليهم من خسائر في الأرواح وانطلقت بنادقهم تشق صمت الليل الرهيب لا تكل ولا تمل من الضرب ما دامت تزود بالمزيد من الطلقات كلما فرغت خزناتها .

(٢٣)

ثلاثة أيام بلياليهم قضتهم منيرة وحدها تؤنِّب نفسها على ما بدر منها في حق مصطفى ، لم تفلح كل محاولاتها معه في الاتصال به لعدم رده عليها ، آلاف من الرسائل المحتوية كلمات الحب والإطراء والتبجيل والتعظيم في قوة بنيانه وشهامته وجدعنته ... إلخ ، مما لم يجدِ نفعًا مع مصطفى الذي صمَّم على عدم الرجوع إليها وعدم الاهتمام بما ترسله إليه ما دام عرف طريقه أخيرًا إلى صالات الديسكو والسهر معظم الليل مع بنات يفوق جمالهن الظاهري جمال حبيبته الأُولى شربات ، حتى صاحبه علاء عاودت مطاردته كسابق عهدها لكن هذه المرة طاردته وهددته من أجل إقناع صديقه بالرجوع اليها ، تنتظر بفارغ الصبر حتى يهلّ الصباح فتذهب باكرًا وتكون أول مستقبليه ، تختلي به داخل مكتبها وتسأله : ماذا فعلت مع صديقك يا علاء ؟

فيجيبها علاء بأنه لم يعثر عليه في أي مكان يظنه متواجد فيه حتى هاتفه يعطي رنات فقط دون مجيب ، وعندما أحس علاء بالإحراج من إلحاحها المستمر عليه وخوفه من تقلباتها التي لا يعرف بمواعيدها إلا هي فقط فقد صمم في اليوم الرابع العثور على مصطفى ، وفي قرارة نفسه عدم العودة إلى العمل في صباح اليوم التالي إن لم يهتدِ إليه ويعيده إلى منيرة التي يظن من يراها أنها مقدمة على ارتكاب حماقة من حماقاتها الكثيرة ومنها توقيع جزاءات وخصومات بالجملة على كل العاملين في المؤسسة .

اضطر علاء لفعل ذلك ومساعدة منيرة في الوصول إلى مبتغاها ؛ خوفًا من العودة إلى طريق الضياع الذي كان قد وضع فيه أُولى خطواته بفعلة نكراء تميته آلاف المرات يوميًا .

جلس على القهوة يترقب تفوه كنكة بسؤال يتمنى ابتلاع الارض قبل توجيهه له : إيه أخبار موضوع السرقة معاك ، لذلك عمل جاهدًا على إقناعه وهو يقدم له كوب الشاي بأن جيوبه ما زالت خاوية ، وأن عليه الصبر لأول الشهر ميعاد قبض راتبه وقتها سيحاسبه على كل المشاريب وخلافه التي يحفظ كنكة أرقامها المالية عن ظهر قلب .

كان الوقت فجرًا عندما هلَّ مصطفى ورآه علاء على مقربة منه يترنح يمينًا وشمالًا من كثرة تناوله للخمور التي أصبح لا يستغني عنها خلال أيامه القليلة الماضية ، فما كان من علاء إلا أن طلب من كنكة مناولته جردل ماء ، ففهم كنكة مقصده ولم يكذب خبرًا ، فما كان من مصطفى الذي كاد يفتك بصديقه لو كان شخصًا آخر جرَّاء فعلته هذه ، فلم يجد أمامه غير تعنيفه فقط ، وبعد تدخل من كنكة الذي أصبح حكمًا بينهما وانحيازه لعلاء في كل ما يقوله لصديقه من إعادة المياه لمجاريها وافق مصطفى على العودة إلى منزل الزوجية مشترطًا مجيء منيرة بسيارتها لتصطحبه بها ، ولغلق فم كنكة الذي أصبح يعرف كثيرًا من أسرارهما وعدم بوحه بما سمعه لأي كائن كان مد مصطفى يده لمنيرة وأمرها بإعطاء كنكة كل ما معها من نقود فلم تبدِ منيرة أي اعتراض ، وتمنت في هذه اللحظة لو أمرها مصطفى الرقص أمامه في الشارع شريطة رجوعه إليها لفعلت ، وبعد توديع علاء لهما انتظر حتى أغلق كنكة القهوة ، ورافقه حتى باب المسجد وصلَّيا معًا الفجر حاضر مع قلة قليلة تواظب يوميًا على إقامة ركعتيه في وقتهما خلف إمام المسجد .

والشيء الذي لاحظه كنكة على علاء بكاؤه الشديد ، والذي اضطره إلى البكاء مثله لكن ليس بالدرجة التي وصل إليها علاء من النواح ومواساة المصلين له بعد فروغهم من الصلاة وشدهم على يده بأن يستجيب الله دعاءه الذي يقينًا كان خارجًا من القلب وبكل صدق .

***

على الجانب الآخر فإن جيهان المصابة بالفاجعة لما حدث لها وهي في مرحلة الشك الذي هو في طور النمو ولم يصل بعد إلى مرحلة اليقين لديها حبيسة الجدران الأربعة ، تعيش حالة من الفزع والترقب لما ستحمله الأيام القادمة لها ، يعتريها شيء من القلق والحيرة والتفكير الدائم فيما هو محتمل حدوثه ، فكل ما تخشاه أن يكون اللص الذي تجرأ ودخل مسكنها واستخدم حمامها قد أتى بشيء معين تجاهها هي تحس به ، ولا تجد غير قطها الأليف لمناداته وإرغامه على الجلوس بجوارها فتسأله سؤالًا كررته على مسامعه آلاف المرات : « شفت الحرامي وهو داخل على هنا وأنا نايمة « وحتمًا لا تجد إجابة لسؤالها ، فتضطر لتعنيفه والقسوة عليه بشد فروة رأسه بكل غيظ وهي تقول له : « ردَّ عليّا ، جاوب على سؤالي ، حرام عليك متخلنيش في حيرة وعذاب أكثر من كده « .

وبعد هذا العذاب اليومي تضطر مستسلمةً للنوم بعد إفراغها هذا الموشح اليومي المتكرر لأكثر من مرة في وجه القط الذي ملَّ من معاملتها الجافة ووده التحرر كقطط الشوارع التي ما إن يرى واحدًا منها متسللًا إلى فناء الفيلا المتحول مع مرور الأيام إلى خرابة تسكنها هذه النوعية من الحيوانات الضالة - لعدم وجود شخص يطردها شر طردة كما كان يفعل عسقلاني - فينسى القط كل ما تفعله به جيهان متمسحًا في قدميها ، ولسان حاله يقول نارجنتك ولا جنة قطط

الشوارع الضالة ، لكنها تحت وطأة هذه الهواجس التي بدأت تتكون لشيء مادي وملموس تنتظر بفارغ الصبر مرور الأيام اليوم الذي يليه اليوم لتتأكد إن كان شكها في محله أم لا ، وما يؤكد لها ظنونها ويكاد يجعلها حقيقة دورتها الشهرية التي انقطعت عن ميعاد مجيئها ، يومها الذي يحسب بالأربعة وعشرين ساعة تقضي معظمه داخل الحمام تغتسل وتنشف جسدها ، وتعاود الاغتسال وهكذا دواليك ، وهي لا تفعل ذلك إلا لنوع من القرف أصابها يصل إلى حد التقيؤ.

ومع مرور الأيام والارتفاع في معدل نسب صدق هاجسها اختفت عن العالم الخارجي لا تريد رؤية أحد أو مقابلة أي كائن كان ، ولولا تليفونها النائم بجوارها لا يفارقها لظن الكثيرون مما يهتمون لأمرها أنها ماتت وتعفنت جثتها داخل

مسكنها ، تطمئنهم فقط على صحتها لكنها تمتنع عن مقابلتهم أو رؤيتهم ، محاميها يتصل بها يوميًّا ليعلمها بمستجدات قضيتها المقامة ضد المحافظ ، وصاحبة دار رعاية المسنين السيدة سندس تقول لها يوميًّا من خلال اتصالها بها : وحشتينا يا ست جيهان ألن تأتي لزيارتنا اليوم ، فتتأسف لها جيهان وتخبرها أن مشغولياتها كثيرة ولن تستطيع المجيء مع وعد بالزيارة في أقرب فرصة ، وتزيدها - في محاولةٍ منها لإنهاء المكالمة - : ما دامت الست الوالدة بخير فلمَ حضوري وإزعاجكم .

أما بالنسبة لزوجها منصور فتتمنى حينًا مجيئه على وجه السرعة لترتمي في أحضانه وتشتكي له وحدتها التي أوجدتها الظروف حولها وحينًا آخر تتمنى عدم عودته ، يظل هناك بعيدًا عنها آلاف الأميال ينتظر حتى ينتقشع الظلام ويخيب ظنها بما يؤرق مضجعها من أوهام هي كالجبال الجاثمة على كاهلها ، فكل مرة يتصل بها يخبرها بأن الزيارة قاربت على الانتهاء وأنه خلال أيام سيكون بجوارها ، تقطع كلامه وتسأله عن المستجدات الطارئة على التحاليل التي يأمره الأطباء

هناك بعملها فيخبرها بألا جديد ، فتستسمحه راجيةً ألا يعود من رحلته هذه إلا وقد وجد حلًّا أو عثر على علاج شافٍ لحالته .

***

استأذن علاء والديه في الدخول للنوم بعد تصنعه التثاؤب لعدم تحمله الجلوس بينهما وهما يلحظان عليه الهم والنكد ؛ لذلك فقد حاول الحسيني تفريج تكشيرته من خلال بحثه في القنوات عن أي شيء فكاهي يجعله يتقاسم معهما الضحكات والابتسامات ، وبعثوره على إحدى المسرحيات ظن أنه سيجعل علاء يفرد صفحة وجهه ويبادلهما ما هما فيه من سعادة ، وجده يقول له :

- معلش يا يابا معلش يا ماما ، سامحوني لأني مضطر للنوم باكرًا الليلة .

وبعد جهد جهيد استسلم جفناه للنوم ، وهو لا يدري أن ما سيصيبه من كابوس سيجثم عليه لدرجة عدم تمكنه من النطق والمناداة على أي من والديه لينتشله مما هو فيه ، وبعد معاناته مع الجاثوم الذي لم يكن ليتركه إلا بعد نيل مراده منه قام فزعًا يتخبط في خطواته حتى باب الحجرة يبحث عن شربة ماء يتجرعها لعل أنفاسه المتلاحقة تهدأ وتريح القلب النابض الذي يكاد يتوقف عن نبضه. تخطى والديه قاصدًا باب الثلاجة وهو غير متعمد عدم رؤيتهما ، وتجرع شربة ماء كبيرة هدأت على إثرها نفسه ، وعاد مارًّا عليهما ، لكن هذه المرة رآهما وسألهما :

- هي الساعة كام دلوقتي ؟

فأجابه والده :

- لمَ تسأل عن الساعة وأنت لم تنم بعد ثلاث أرباعها ؟!

تعجب علاء وهو الظان بأن دهرًا كاملًا مر عليه وهو نائم ، فقال لنفسه بعد استئذانهما : ما دام الوقت مبكِّرًا فقد تحتم عليّ الخروج ، واستأذنهما مرة أخرى بعد تبديله ملابسه قاصدًا الطريق يشقه بخطواته المتأنية شارد الذهن ، لا يأبه لمن حوله .

وكعادته في الآونة الأخيرة كانت وجهته إلى الكورنيش ليعتلي من خلاله كوبري قصر النيل قاصدًا مقابلة الفجيع في ولده والمنقذ لكل روح تلحّ عليها فكرة الانتحار .

انتظر مجيئه والأحبة من حوله يتسربون إلى الأسفل زوجًا وراء زوج ، تاركينه وحده والليل يمضي متسحبًا على أطرافه راسمًا خيوط الفجر ، ساحبًا خلفه القمر الذي لم يكتمل بدرًا بعد ، دبَّ القلق في نفس علاء ، ونادى في صفحة الماء بصوت يكاد يسمع :

- إن لم تأتِ أيها العجوز فسألقي بنفسي في الماء ، وستكون أنت السبب .

وبنفس درجة علوّ صوته سمع العجوز يناديه :

- أنت جبان ولن تستطيع فعل ذلك ، يا ريتك تقدر أهو تكفّر عن ذنبك وتروح تعترف بظلمك للي انت ظلمتهم ، إنت بتضحك على نفسك يا ولدي وخلاص مفيش منك رجا ، يا خسارة يا ناس ابني التاني هيموت كافر زي أخوه الأولاني يالّا إرمي نفسك وريحني وريح الناس من شرك .

كان علاء مثل المجنون وهو يلف حول نفسه يبحث عن العجوز في كل مكان ، فناداه بعدما انتهى من كلامه :

- إنت فين يا راجل يا عجوز ؟ إنت ليه مبتورنيش وشك ؟ حرام عليك كفاية العذاب اللي أنا فيه ، كفاية كفاية .

وانسكبت دموعه على خديه جاهشًا بالبكاء ، ولما وجد دورية الشرطة قادمة نحوه مسح دموعه متعمدًا إخفاء وجهه وأدارظهره نحو الطريق ، وعندما وصل لنهاية الكوبري وعند الأسدين الرابضين في المدخل ، وجد العجوز يضع أولى خطواته على مطلعه فانكب على يديه وقبلهما مبادرًا العجوز وهو يصعد معه مرة أخرى لأعلى الكوبري قائلًا له :

- يا راجل يا طيب إنت عايزتقتلني ليه ؟
- أنا يا ابني لم أرك منذ أيام فلمَ تتهمني بقتلك ؟!
- لقد جئتني في المنام وربطت كلتا يداي بحبل ، وظللت تسحبني إلى هنا .

وأشاربيده خلفه عند المطلع .

- حتى وصلت بي إلى الأعلى ، ورفعتني عاليًا بعد لفّك الحبل حول عنقي ، ورميت بي إلى الماء وأنا مُدلى والحبل يخنقني ، والناس من حولك يرجونك أن تتركني لكنك في كل مرة ترد على أحدهم وتقول له : ليس لأحد شأن بما أفعل إنه ولدي وأربيه على طريقتي .

وقف العجوز وأوقف معه خطوات علاء وأخذ يقول له :

- متزعلش مني يا بني لو قلت لك إنك تستاهل وأكثرمما حكيته هتصدقني لو قولتلك إني قبل ما ابني يموت - أقصد ينتحر - بأيام رأيت في منامي كل ما حكيته لي يفعله معي .

- مش فاهم يا والدي .

- ما لم أحكه لك أني ارتكبت جرمًا عظيمًا ، خنت أحد أصحابي من خلال إقامة علاقة غيرشرعية مع زوجته ، تماديت في العلاقة معها ولم أراع

شعوره وهو يتعذب في اليوم ألف مرة بعد اكتشافه علاقتنا ، أصله كان مغلوب على أمره بسبب ضعفه الجنسي، كل ما فعله أمام شخصية زوجته القوية أنه أقدم على إلقاء نفسه في هذا الماء ، أقدم على الانتحار ولم يستطع مواجهتي بما رآه من نومي في فراشه وأنا في أحضان زوجته التي جاءتني بعدها بأيام تعرض علي الارتباط بها، ليته واجهني يا ولدي وقتلني ، على الأقل كان ريحني من عذاب الضمير اللي من ساعتها مش عايز يسيبني في حالي ، عرفت ليه دلوقتي ابني انتحر ليه ، ربنا عاقبني في الدنيا من خلاله وما زال ، ومع أني برجوه يوميًّا إنو يرحمني في الآخرة من عذابه إلا إني حاسس إني بسبب جرمي في حق صديقي مش هشوف أبدًا الجنة ولا نعيمها .

بكى العجوز بعد كلامه هذا ، وجلس القرفصاء لعدم تحمل قدميه حمل جسده المتعب من كثرة مشيه عليهما ، جلس علاء مثله وقال له - وهو يناوله منديلًا ورقيًّا -:

- يا ريتني ما قابلتك يا راجل يا عجوز ، دوست ع الجرح ، جرمي زي جرمك وشكل مصيري هيبقى نفس ...

- إوعي تكمل يا ابني ، إنت لسه قدامك فرصة ، روح الحق نفسك وكفّر عن ذنبك .

- أنا حيوان يا والدي حيوان ، واللي ارتكبته ما ينفعش معاه ...

- اوعى تكفر ولا تيأس ، ربنا رحمته واسعة تسع جميع خلقه ، وإياك تقارن نفسك بيا ، إنت ممن تكون غلطت نفس غلطتي ، بس اللي متعرفوش إن أنا كنت متمادي في هذا الغلط وخيانتي لصاحبي مكنتش أول غلطة أرتكبها، بالعكس دي كانت آخر غلطة من آلاف الغلطات والذنوب والمعاصي التي يهتز عرش الرحمن غضبًا من مرتكبها .

- بس أنا ...

- أنا معاك إن إنت غلطت ، بس ما تنساش إن انت مش لوحدك حيوان ، البشر جميعًا يا ابني في حد ذاتهم حيوانات ، وعلى حسب طبيعة مصالحهم ورغباتهم ، خد عندك مثلًا إنسان بيحط نفسه في موقف وبمزاجه تلاقيه حمار ينهق عشان شاف واحدة جميلة عجبته ، ومرة تانية يبقى قرد بيتنطط عشان برضوا نفس الوحدة الجميلة يجري وراها ويعمل المستحيل عشان يلفت نظرها إليه ، ومرة تالتة تلاقيه أسد يزئر ، ما هو في الوقت دا بيحس إنو ملك الغابة ، وقعت الغلبانة في فخه ونال غرضه منها ، دا غير إنك في أحيان كتيرة بتلاقي نفس الإنسان دا يا ابني جاموسة بقرنين ، كل همه إنو يتعلف ، همّه الأكل وبس ، وف أحيايين كتيرة برضه ممكن تلاقيه خنزير ما بيحسش ، والنوع دا يا ابني ربنا يحفظنا منه لأن عيشته كلها ، أكله وشربه ونومه حتى خلفته ، تلاقيها بين القاذورات ، يجمع ويلم ويكوش ويمص في دم الغلابة ويعمل ما بداله ، وطبعًا محدش يقدر يقوله إنت بتعمل إيه ، ليه ؟ عشان الكل عارفين لو حد منهم فكر بس يقرب من جنته - اللي أنا بسميها قاذورات - هيتفرم فرم ، وساعتها محدش هيعرف له طريق جُرّة .

آه نسيت اقولك ، في نوع أخير أشد فتكًا من الإنسان نفسه ، حاجة مخلوقة من ضلع أعوج ، إنها حواء يا ابني نستعيذ بالله من مكرها وكيدها وشرها وقت تحولها لأفعي لا يمكن لأي سلاح ردعها به .

(٢٤)

وصل منصور لأرض الوطن قادمًا من جولته الأوروبية التي استمرت لشهرين ، لم يترك خلالهما عيادة طبيب لعلاج العقم والذكورة إلا وزاره ، والنتيجة في كل مرة واحدة لا تتغير الكروموزومات عندي «إكس. إكس. واي» والحيوانات المنوية صفر، وتسمى هذه الحالة «كلاين فلتر» ، وهي حالة وراثية تنتج من وجود كروموزوم أنثوي زائد في الرجل ، كان منصور يمنِّي نفسه إسعاد جيهان من خلال هذه الجولة ويفاجأها أثناء عودته بأنه أخيرًا عثر على العلاج الشافي لحالته ، لكن كل أحلامه تحطمت على صدر التقارير التي أجمعت على نتيجة واحدة لم يكن في مقدوره إطلاع جيهان عليها خصوصًا تلك السطور التي تخبره بحمله صفات أنثوية بجانب صفاته الذكورية التي سماه الأهل من خلالها باسمه الذي يحمله ، وبه أيضًا عرف وتزوج جيهان زوجته حب حياته ، وبه أيضًا كافح ووصل إلى منصبه.

لم يكن بعد كل هذا ليفكر مجرد التفكير في إجراء عملية يتحول من خلالها للجنس الآخر لمجرد أنه يحمل بداخله صفات منها.

- كلا وألف كلا ، أنا رجل ابن رجل ، ذكر، ولدت هكذا وسأموت أيضًا هكذا.

قال ذلك لنفسه وهو في شدة الانفعال عندما أخذ قرار العودة إلى أرض الوطن بعد هروب دام الشهرين ، ظل خلالهما يفكر كيف ستكون المواجهة بينه وبين جيهان عندما يطلعها على نتائج التحليلات .

عاد يجرّ أذيال الهزيمة خلفه حاملًا بعض الهدايا النفيسة لها ، والتي يتمنى أن تنسيها سؤالها الوحيد له وهي تقابله : «عملت إيه يا منصور ؟ « .

ظنها ستكون أول مستقبليه في المطار، وهي العالمة بميعاد وصوله منذ يومين مضيا، استقل تاكسيًّا يستحث سائقه على الإسراع حتى يلحق بها ، وهو من وحشته كلمة أحبك الصادرة منها له ، تتبعها بعناقه والارتماء بجسدها في أحضانه التي لا يجد لها معنى الآن ، سوى أنها أحضان تتبعها قبلات حارة بين جسدين شاذين من فصيلة واحدة هي الأنثوية .

وفي الطريق حاول الاتصال بها لكن لا مجيب على اتصاله ، فأقنع نفسه بأن عدم ردها عليه إنما لانشغالها ببعض الأعمال التي تخص برنامجها المتوقف بأمر منها: «ربما قررت فجأة الإطلال على جمهورها تحت ضغط من صاحب القناة أو تحت إلحاح من عقلها الباطن للخروج من حالة الاكتئاب التي لازمتها من كثرة الجلوس بدون عمل كل هذه الفترة « .

برر لنفسه بهذا الكلام بعد محاولاته الفاشلة بالاتصال بها .

***

وصل مسكنه ، وصُدم عندما وجد الباب الخارجي مفتوحًا على مصراعيه ، وبعض الحيوانات الضالة ، متمثلة في مجموعة من القطط التي تعوي ، تملأ الفناء الخارجي ، وكذلك المدخل وأشجار الزينة التي كانت تعطي منظرًا جذابًا لزائريه أوراقها متساقطة من فعل عدم ريها بالماء وعدم الاهتمام بها ، فانتابته حالة من الصدمة والفزع والخوف من أن يكون حدث مكروه لجيهان التي بحث عنها في كل غرف الفيلا .

وبعد إخفائه لنتيجة التحاليل التي لن يُطلع عليها جيهان وإلا لتغير موقفها معه إلى النقيض وعملت في أسرع وقت على الانفصال عنه بكل هدوء ، وإلا فضحته أمام الرأي العام الذي لن يرحمه ويرجمه رجمًا في كل خطوة يخطوها أمامه ، هذا غير اللعنات والسباب والبصق في وجهه ، بجانب قول كثير من التعليقات البذيئة هو في غنى عن سماعها من مجتمع أمّي جاهل الثقافة والاطلاع ، لن يرحمه ولن يقتنع أيضًا بأنها إرادة الخالق .

صمَّم على الاتصال بها وعدم تركها حتى تردّ عليه ، خصوصًا أنه لم يجد أثرًا لعسقلاني أو لزوجته أو لأولاده ، بعدما وجد حجرتهم خالية منهم ، لا يسكنها إلا زوج من الفئران تزوَّجا وأنجبا ، وهما حوله يحاولان الاقتراب منه فيهشهما ليبتعدا مضطرين لللهو مع صغارهما ، وكأنهما يقولان لهم باءت محاولاتنا معه بالفشل لإطعامنا .

خرج من الحجرة والحيرة تزيده قلقًا ، ولم يجد أمامه سبيلًا للاطمئنان غير بعثه لها برسائل فحواها : إن كانت بخير فلتطمئنه فقط بكلمتين تدلان على ذلك ، وحسنًا ما فعل ، فلقد استجابت جيهان لطلبه بعد عناء منها من التردد والخوف من مواجهته ، اضطرت للرد عليه وإعلامه أنها في زيارة لوالدتها بدار الرعاية وأنها بعد انتهائها من الزيارة ستضطر للذهاب للطبيب لشعورها ببعض المتاعب في معدتها.

حاول أن يعرف منها ماذا حدث بالفيلا من خراب واضح أمامه ، سألها :

- وأين عسقلاني وعائلته ؟

- تحلَّ بالصبر يا منصور؛ أنتظرك منذ شهرين وأنت لا تريد انتظاري لبضع ساعات ، كل ما تبحث له عن إجابة سأزودك بها عندما آتي إليك.

قالت له جيهان ذلك وأنهت المكالمة وهي باكية .

***

سألتها والدتها الجالسة بجوارها :

- إنتِ بتبكي ليه يا بنتي ؟
- ببكي وخلاص ياماما .
- ماما ...... ماما مين ؟
- إنتِ يا ماما .
- أنا مش مامة حدّ .
- يوه يا ماما إنتِ رجعتِ تاني ، أنا آسفة يا ماما ، نسيت إن عندك زهايمر.
- وهو إيه زهايمر دا يا بنتي .
- مش لازم تعرفي يا ماما ، المهم أنا لازم أستأذن عشان ألحق ميعاد الدكتور .
- دكتور .... هو انتِ عيانة يا بنتي ؟
- أيوه يا ماما أنا عيانة .
- هو انت اتعديتي مني يا بنتي ؟
- لأ يا ست الكل أنا حامل ، المصيبة إن أنا حامل ومش عارفة أعمل إيه ... دبّريني .
- أدبّرك .... واللي خالقنا راح فين .
- ونعم بالله يا ماما .
- روحي يا بنتي لجوزك ، إنتو مالكوش غير بعض .
- ما أنا عارفة إن احنا ملناش غير بعض لكن ..... لكن ، والله ما انت فاهمة حاجة يا ماما ، عن إذنك أنا لازم أمشي دلوقتي ؛ لأن بصراحة عايزة حدّ يفهمني ، عايزة حد يقولّي أعمل إيه في المصيبة اللي وقعت على راسي فجأة

وبدون سابق إنذار.

- طب يا بنتي مع السلامة ، لكن أرجوك لما تقابلي بنتي جيهان ذكّريها بأني زعلانة منها لعدم زيارتها لي .
- يووه يا ماما ، حاضر... حاضر مع السلامة .

***

ودَّعت جيهان والدتها وفضلت المكوث أكثر من ساعة في عيادة الطبيب تنتظر قدومه بفارغ الصبر، ولم يسلّ وحدتها إلا الممرضة التي كانت تواليها بكل احتياجاتها من المشروبات والعصائر، وعندما أتى الطبيب كان لم يمض على مكوثها أكثر من نصف الساعة ، خرجت بعدها من العيادة وقد زادها تأكيدًا أنها حامل في شهرين ، وأن الدكتور الذي زارت عيادته بالأمس لم يكن بكاذب .

ونظرًا للمستوي الاجتماعي الذي تعيش في نمطه ولطبيعة عملها الذي قابلت من خلاله مئات الحالات المعقدة والمتشابكة والتي يصعب حل مشاكلها بسهولة فقد فضَّلت الدخول في مواجهة مع منصور واعترافها له بخبر حملها ، فلم يكن يهمها ردة فعله أكثر من اهتمامها بالعثور على اللص الذي تجرأ واغتصبها وهي نائمة ، لذلك فقد ظلت طوال الطريق تحاول تذكر ملامحه ، ولولا ثقتها بنفسها وإيمانها القوي بأن خالقها سيقف بجانبها ولن يتركها في معاناتها طويلًا لاضطرت للإصغاء لكلام قرينها الشيطاني وفعلت بنفسها سوءًا .

وصلت للفيلا واستقبلت منصور بفتور لم يكن يتوقعه منها، وقبل أخذه المبادرة وسؤالها عن كل ما يدور بمخيلته ويريد إجابات شافية عليه، بادرته هي بقولها له:

- أنا لسة جاية من عند الدكتور حالًا ، وعارف قالّي إيه يا منصور ...

صمتت برهة كانت بينهما كأنها العمر الذي قضياه معًا يمرّ أمام عينيها ، قال لها منصور :

- يا ريت تسكتي ومتتكلميش إلا لما تعرفي بالمصيبة التي حلت عليّ ، ولا أعرف لمَ أنا تحديدًا ابتلاني الله بها .

فقالت:

- إنها مشيئة الله ، «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» وقطعت الصمت لتكمل كلامها :

- الدكتور قال لي أنا حامل .

صُعق منصور عندما خرجت كلمة حامل من فمها ، وشخط فيها وهو لا يدري ماذا يفعل بها غير قوله فقط يسألها والدهشة تتملكه :

- يعني إيه حامل يا هانم ؟!
- ولما لم يجد ردًّا منها غير السكون الذي شملهما لثوانٍ، أكمل يقول :

- خنتيني مع مين ردي ؟

- أرجوك يا منصور لا تتهمني ظلمًا وافتراءًا ، فلو حكيت لك ما حدث فلن تصدقني .
- ها انت قولتها أني لن أصدقك ، تودين القول بأن حملك هذا مني .
- لا لن أقول هذا ، فحملي ليس منك .
- يا بجاحتك ؛ بتقوليها في وجهي ولا تخشين ردة فعلي .

- وماذا ستفعل أكثر مما أنا فيه ، فمنذ علمي بما يتحرك في أحشائي وأنا أود قتل نفسي ولا الدخول معك في هذه المواجهة ، ارحمني أرجوك ارحمني فأنا

ليس لي ذنب فيما حدث ، أنا ضحية لصّ جبان خسيس دخل حجرتي في منتصف الليل واغتصبني وأنا نائمة وعندما استيقظت ...

- وعندما استيقظتِ رحبتِ به وجعلتيه يغتصبك مرة أخرى ، وهكذا تكررت اللقاءات بينكما ، وظللت تنصحيني بعدم العودة إلا بعد زيارة أكبر عدد من الأطباء لعل أحدهم يخبرني بما تتمنينه بأني معافى وقادر على الإنجاب ، لكن خاب ظنّك ، وعندما علمت بذلك مني أمرتي عشيقك بالرحيل حتى لا أفتك به ، أين هو يا خائنة ؟

- هو مين يا منصور ؟ لقد قلت لك الحقيقة بأن لصًّا ...

- والله لو ظللت تحلفين لي بما تدّعينه فلن أصدقك ، قولِي لي عسقلاني راح فين يا جيهان ؟

- عسقلاني .... ومال عسقلاني بالموضوع .

- كل حاجة كانت واضحة وضوح الشمس يا هانم وقعت في حب البواب الحقير وحملتِ منه .

- إنت مجنون يا منصور ..... إنت مجنون ... مجنون ... مجنون .

- اخرسي يا وقحة .

وصفعها على وجهها صفعة قوية ألجمت لسانها، لا تدري بعدها ماذا تقول له، فقط ظلت ناظرة له تنتظر ردة فعله التالية بأن كان سينهال عليها ضربًا ليريحها من عذابها ، وودت لو قتلها ، لكنه لم يستخدم هذه المرة غير لسانه يقول لها :

- لو تظنين أني سأضع يدي على خدي وأسكت لا ، لن يهدأ لي بال حتى عثوري على عسقلاني وتقطيعه إربًا أمام عينيكِ ، وبعدها سيكون حسابي معك الذي لم يبدأ بعد ، والآن تفضلي اخرجي برة بيتي يا ملعونة .

- صدقني يا منصور عسقلاني ليس له ذنب .

وإذ بها تجد الصفعة الثانية على خدها من يده وهو يكرر على مسمعها .

- برَّة ... برَّة .

وكردّ فعل إزاء ما بدر منه تجاهها أعلنت تحديها له بقولها :

- هذا بيتي ولن أخرج منه ، اتفضل انت أخرج منه ، أنا بكرهك .. بكرهك ... بكرهك ... بكرهك .

لم يتمالك منصور نفسه وهو يرضخ لأمرها بعد تذكره أن الفيلا ملك لها بالفعل وقال لها :

- لن تمر فعلتك مرور الكرام .

استوقفته جيهان بقولها له :

- قبل ما تمشي في حاجة بينا لازم تنتهي .
- هي إيه ؟
- تطلقني .
- بس كده إنت طالق .. طالق ... طالق، وقبل ما امشي لازم تعرفي إني بعد نيلي من الخاين عسقلاني سيكون الدور عليكِ، ووقتها قولي على نفسك يا رحمن يا رحيم .

***

لم يجد منصور غير مكتبه لقضاء ساعات الليل هناك ، وأول شيء فعله لدى وصوله أصدار قرارًا بتغيير المانشيت الرئيسي للصفحة الأولى بوضع صورة جيهان مكانه وكتابة بالبنط العريض تحتها : « ترقبوا فضيحة الإعلامية الكبيرة جيهان « بل أنه تمادى ونبه على من أصدر إليه هذا القرار بأن يكون هذا المانشيت يوميًّا حتى يصدر قرار منه شخصيًّا بتغييره.

(٢٥)

داخل بيت الثري العجوز في بلده الخليجي بيتت شربات النية وعزمت على الهروب مهما كلفها الأمر ، ولو وصل إلى حد عودتها إلى بلدها جثة هامدة ، صممت على نيتها أمام ما تراه يوميًّا من أهوال وعذاب من ضراتها الثلاث وأولادهم الذين يفوق عددهم العشرون ولدًا وبنتًا .

منذ وصولها برفقة زوجها واكتشافها أنه ما تزوجها إلا لتكون خادمة لأهل بيته وهي تركع تحت قدميه وترجوه أن يعيدها لأهلها ما دام الأمر لا يتعدى كونها مجرد خادمة لزوجاته وأولاده ، فلا تجد منه غير رد وحيد على توسلاتها هذه :

- لن تعودي لأهلك قبل تنفيذ ما أطلبه .

فترد عليه :

- أنا رهن إشارتك ، قل لي الآن ماذا تريد ؟

فيرد عليها بعد أن يلكزها بقدميه فيصطدم رأسها أرضًا :

- بعدين بعدين ياحلوتي .

وعندما حانت اللحظة التي وجدت من خلالها الفرصة لهروبها ، وذلك عند ذهاب الجميع للتنزه في أحد الحدائق وتركها بمفردها لملمت ملابسها وأوقفت

تاكسيًّا وطلبت من السائق الذهاب بها إلى المطار، وهناك أحست بأن جبلًا كان جاثمًا فوق صدرها وانزاح من توّه ، لكن فرحتها لم تدم عندما وجدت زوجها خلفها يقول لها : «على فين ياحلوتي « هوت أرضًا وكاد يغمى عليها ، لكنها تذكرت إن غابت عن الوعي ستجد نفسها حبيسة منزله بعد إفاقتها ، فتماسكت وانكبت على قدميه أمام جميع المسافرين ترجوه أن يتركها ترحل ، فما كان منه إلا رضخ لطلبها تحت وطأة الإحراج الذي وضعته فيه ، أخرج تليفونه وكلم إحدى زوجاته يعلمها أنه مضطر للسفر لإنهاء بعض المصالح الهامة هناك في بلد زوجته شربات .

***

وما يفصل بين العصر والعشاء كانت شربات تطأ أرض الوطن تخرج زفيرًا طويلًا ، وودت لو علقت يديها برقبة زوجها وقتله خنقًا أمام الجميع ، لكنه سبقها بأن أحاط بهما مجموعة من رجاله المنتظرين وصوله ، ففهمت شربات بأنهم بلا أدني شك يعملون لديه ، لم يعطها هؤلاء الرجال فرصة للتنفيس عن غضبها وأدخلوها السيارة عنوة .

وداخل جناح خاص به داخل أحد الفنادق الكبرى سمعته يقول لها : ستلزمين داخل هذا الجناح يا حلوتي إلى أن يحين موعد لقائك بوالديك .

ولم تمضِ الليلة إلى منتصفها حتى وجدته يدخل عليها وهي نائمة ، يوقظها ويطلب منها ارتداء قميص نوم وضعه برفق على جسدها الممدد ، فاستجابت لطلبه ظانة أن ليلة دخلتها الحقيقية حان موعدها ، وأن ما كان يمنعه عنها إنما لخوفه من زوجاته الثلاث وأولاده من أن يمسوه بسوء ، ولهذا السبب استجاب طواعيةً لأن تكون خادمة لهم فهذا أفضل له من موته ، أما الآن فهما

سويًا فقط ، وعليها عمل ما في استطاعتها للتأثير عليه لإيجاد مسكن مناسب لها وعدم تفكيره في عودتها معه مرة أخرى إلى بلده ؛ لأنه إن اتخذ ذلك القرار فلن توافق عليه .

«كفى ما لقيته من عذاب على يد ضراتي الثلاث « كانت تقول ذلك وهي خارجة من الحجرة تبحث عنه لعلها تجده بانتظارها أمام شاشة التلفاز المستمعة لصوته العالي تظنه منتبهًا ومركزًا بصره أمام ما يعرض من فقرة رقص شرقي ستحاول تقليد تلك الفنانة الاستعراضية فيما تأتيه بجسدها من رقصات فقط لإرضائه ، لكن ما أفزعها وجعلها ترتد مسرعة إلى داخل الحجرة اكتشافها أنه ليس بمفرده بل برفقته أربعة عواجيز يماثلونه عمرًا رأوها شبه عارية ، ورأتهم ينهشونها بأعينهم ، خافت أن ينهرها وهو مقبل نحوها لخروجها عليهم دون استئذانه ، فتأسفت له لعله يغفر لها، لكنها وجدته يقول لها : « تعالي ياحلوتي « ويمسك يدها يسحبها خلفه ولم يتركها إلا في الصالة أمام العواجيز الأربعة ويقول لهم : « إيش رأيكم ، من منكم يريد أن يبدأ معها ، فردوا جميعًا في صوت واحد : أنا « ، وصمتوا ينهشونها مرة أخرى بأعينهم ، وألسنتهم خارجة من أماكنها يلهثون مثل الكلاب الجائعة ، وهي واقفة مصدومة تنظر لزوجها لا تدري ماذا تفعل حيال ما يحدث أمامها .

ولما وجدته لا يفعل شيئًا حيال ما يقولون ، بل هو من شجعهم على تماديهم فيما يفعلون ، من خلال سماعها ما ألقاه على مسامعها ، سألته لتتأكد إن كانت سمعت منه ما قال حقًّا أم أنها تهيؤات رسمها عقلها الباطن الذي لا تسعه الفرحة لتحررها أخيرًا من حالة العبودية التي عاشتها ولم تكن تصدق أنها ستتحرر منها وتعود لوطنها ويسكنها هذا الجناح الفخم في ذلك الفندق الكبير ذي النجوم الخمسة ، سألته :

- ماذا يريدون مني يا شيخ ؟

فصدمها برده :

- ألا تعرفين ياحلوتي ماذا يريدون بعد ؟ إنهم يريدونك أنت، هيا اختاري من بينهم من يقضي باقي الليلة معك، هيا يا حلوتي إنهم أربع ليالي ستعيشين فيهم أحلى أيام عمرك مع أصحابي هادول .

ولما سمعت منه هذا الكلام صعقت، وبدأت في التقهقر للخلف قاصدة الحجرة وهي تحاول سترما يبرز من مفاتنها ، وإذ بها تجده يتمادي ويقول لها

- مكسوفة يا حلوتي ؛ إذن سأختارلك بنفسي واحدًا منهم .

في الصباح وجدته يدخل عليها وهي متكومة على نفسها بأحد أركان الحجرة ويقول لها :- سامحيني يا حلوتي، لقد كنا نلعب قمارًا وخسرت كل نقودي، وداينوني ها الملاعين دول بمبلغ كبيرلم يكن باستطاعتي تسديده لهم فعرضوا عليّ قضاء كل منهم ليلة معك مقابل تخليهم عن مطالبتهم لي بالنقود، فلم يكن أمامي خيار آخر غير استجابتي لمطلبهم وإلا تعرضت للإفلاس ودخول السجن ، أيرضيكي يا حلوتي أن يدخل زوجك السجن، اغفري لي زوجتي ما بدرمنهم إنهم جميعًا عجائز مثلي، وكنت أظن عندما تكالبوا عليك أنهم لن يستطيعوا النيل منك عندما قاومتي أول واحد منهم وهو يستنجد بالثلاثة الآخرين ، ثم ما حدث قد حدث، انسي وعيشي حياتك .

- هتروح فين من ربك يا ظالم .
- إخرسي انت يا كلبة تشتمي زوجك.
- وانهال على وجهها صفعًا وهو يكمل :

- والله لن تري نور الشمس مرة أخرى ، أنت عبدتي ، سمعتيني ، أنت عبدتي، وعلى العبدة إطاعة سيدها، استعدي من الليلة وكل ليلة لاستقبال أمثال من ضاجعوك بليلة الأمس .

(٢٦)

استدعت منيرة علاء ووالده الحسيني إلى مكتبها ، وبنبرة يغلب عليها التهديد والوعيد وجهت كلامها لعلاء إن لم يقنع صديقه مصطفى بالرجوع عما يفعله من سكر وعربدة ومرافقة الفتيات الصغيرات حتى الصبح وإنه رأى بأمّ عينه ما يفعله عندما اصطحبته معها لشقتها ذات يوم بعد انتهاء العمل لتشهده على تصرفات صاحبه التي أصبحت طائشة ولا يمكن السكوت عنها ، فأحس علاء بالحرج والشعور بالمهانة أيضًا خصوصًا أن والده واقف بجواره ، فواجه تهديدها ووعيدها هذا بانفعال ممزوج بكل حرف يخرج من فمه قائلًا لها :

- وما شأني أنا ووالدي بحياتك الخاصة ، مصطفى صديقي لا أُنكر ذلك ، لكن عليك حل مشاكلكما مع بعضكما هناك داخل مسكنكما ، وإياك إني أحذرك أن تكلميني بهذه النبرة مرة أخرى ، وإلا أقسم بالله العظيم سأجعل حياتك جحيمًا أكثر مما هي الآن ، يلا يا بابا الظاهر إنها اتجننت .

ربت الحسيني على كتفه وهو خارج من الباب وقال له :

- اهدى يا ابني واستعيذ بالله من الشيطان .

واستدار ناحية منيرة يحاول امتصاص غضبها يقول لها :

- سامحيه وسامحيني يا ست منيرة ، ودعي لي هذه المهمة ، وإن شاء الله لن يمر اليوم إلا وقابلت مصطفى وعقلته ، وإيه رأيك كمان سأجعله يبوس

إيدك وش وظهر.

وتركها وحيدة بين جدران مكتبها الأربعة بعد رؤيته لدموعها المنهمرة دون إرادتها ، ومضى يبحث في كل ركن من أركان مقر العمل عن علاء فلم يجد له أثرًا، ولم يجده إلا داخل حجرته بعد أن ترك خبرًا مع أحد زملائه بأنه سيضطر للمغادرة ، وعليه إبلاغ والده بذلك إن رآه ، ولم تفلح محاولات الحسيني معه في إخراجه من حجرته بعد إخباره من وراء الباب أنه لن يذهب مرة أخرى للعمل ما دامت هذه المرأة رئيسته .

وفي المساء ودع الحسيني زوجته آخذًا وجهته إلى شقة مصطفى ظانًّا منه أنه سيجده حتمًا ، وهناك جلس مع والدته بعد ترحيبها به وإصرارها على عدم ذهابه إلا بعد إراحة قدميه من طلوع السلالم ، وتطور الأمر إلى تقديمها فنجانًا من القهوة ، دخلت المطبخ وجهزته له سريعًا ، وكان لزامًا على الحسيني التحدث قطعًا لحالة الصمت الجاثمة على المكان حولهما، وخلال تحدثه عرفت كريمة منه السرّ الذي لم يشأ مصطفى إعلامها به ، في بادئ الكلام قالت للحسيني :

- نعم أعرفها جيدًا ، إنها الست منيرة والتي أتت لمصطفى بالعمل الذي يمتهنه الآن ، ربنا يعليها كمان وكمان .

- دعت لها لأنها السبب الرئيسي في توديع مصطفى للبطالة التي كانت تلازمه في الفترة الأخيرة ، تعجب الحسيني من كلامها وقال لها :

- شغل إيه وعمل إيه يا ست أم مصطفى !! أنا لا أقصد هذا إنما قصدي المشاكل التي تدبّ بينهما من حين لآخر ، وبسببها تهددني أنا وولدي علاء بطردنا من العمل ، أرجوك يا ست كريمة أرجوك أفهمي مصطفى أن يُفهم زوجته ، ويؤكد عليها أن مشاكلهما الزوجية لسنا طرفًا فيها .

لم تفهم كريمة أي شيء يقصد عن مشاكلهما الزوجية وأرادت توضيحًا منه قائلةً له :

- أرجوك وضِّح لي أكثريا حاج الحسيني ، أنا مش فاهمة حاجة .

ومن هذا المنطلق سرد لها الحسيني مطارداتها لعلاء بادئ الأمر للزواج منه ، ولما يئست منه وجدها تعود من إجازة طويلة بخبرزواجها من مصطفى ، ولما انتهى الحسينئ من تفريغ ما لديه من أسرار اتصلت كريمة بمصطفى وادعت أن مصيبة قد حلت بها ولا بد من مروره عليها اليوم قبل الغد .

ولما رأى الحسيني انفعالها وردة فعلها أحسَّ أنه لم يكن من المفترض عليه إعلامها بكل ما أسرَّه إليها ، ولزامًا عليه فقد استأذنها مطأطأ الرأس حتى جلوسه أمام علاء يخبره بما حدث ، فما كان من علاء إلا أن عاتبه على إفشائه سر صاحبه الذي كان مصطفى حريصًا كل الحرص على عدم إطلاع والدته عليه حتى يجد الحل الأنسب في طلاقه منها .

من جهتها جلست كريمة منتظرة بفارغ الصبروصول مصطفى لتعنفه وتقول له : « أنت لست بابني إن لم تطلق هذه المرأة « ، وليس هذا فقط بل التنبيه عليه عدم دخوله مسكنها مرة أخرى إن لم ينفذ ما تمليه عليه ، وقد فعلت ما أراده عقلها وطردت مصطفى شرّ طردة وهو يحاول تهدئتها بعد تصميمه على الاستمرار في هذه الزيجة التي سيحقق كل أحلامه من خلالها على حد قوله ، وبدوره استشاط مصطفى غضبًا وعاد من فوره إلى منيرة ليعاتبها على إفشائها السر الذي تعاهدا على عدم إطلاع والدته عليه مهما حدث بينهما من شقاق ، لكنه لم يكتف بالذهاب وحيدًا بل أصر على مصاحبة فتاتين ممن تعرف عليهما ، وتمادى في الاعتداء عليها أمامهما عندما حاولت الاعتراض على أفعاله

وتهديدها له إن لم يقم بطردهما فستضطر لرفع دعوى قضائية عليه لاسترداد الأموال التي استدانها منها ، وتطور الأمر بينهما إلى حد أنه هم بطردها لتماديها في تهديدها ووعيدها له أمام الفتاتين ، فما كان منها إلا أن احتمت داخل إحدى الحجرات خوفًا من بطشه تاركة له باقي الشقة يفعل ما يحلوله فيها مع الفتاتين .

(٢٧)

أمر منصور موظف الأرشيف بالبحث عن موضوع صحفي حققه أحد صحفيي الجورنال مع مجموعة من قطاع الطرق القاطنين أحد جبال البحر الأحمر الممتدة شرقًا حتى حدود محافظة سوهاج ، وعندما أراد عامل الأرشيف معرفة السبب كجزء من عمله ليسجله لديه في الدفتر المكلف بتدوين كل ورقة تخرج من الأرشيف ، قال له منصور :

- بعدين بعدين هتعرف كل حاجة المهم أن تأتي لي بهذا التحقيق على وجه السرعة .

ولم تمر الساعة إلا وكان العامل واضعًا أمامه التحقيق واسم المحرر ، وبعد قراءة منصور للتحقيق الذي كان يعايش وقت ذاك أحداث قرية الكشح الشهيرة وكتابته لأسماء قطاع الطرق الذين احتمى بهم بعض الجناة في ذلك الوقت في ورقة صغيرة احتفظ بها في جيبه ، ذهب للصحفي في مكتبه ووضع أمامه التحقيق وقال له :

- أخبرني كيف أذهب إلى هؤلاء الناس وكيف أتعامل معهم .

كان الوقت عصرًا عندما اهتدى منصور لجبال وادي قصب التي يقطنها قطاع الطرق ، توقف بسيارته وتعمد إطلاق العنان لسارينتها التي تصدر أصواتًا مزعجة يرتدّ صداها بين الجبال المترامية الأطراف من حوله ، تصور بادئ الأمر أنه سيقابل بالأسلحة من خلال عدة أشخاص يحملونها يقفون أمام سيارته يأمرونه بالنزول ويسألونه عما يريد ومن دله على مكانهم ، لكنه لم يجد كل ما كان يظنه وكان مهيئًا ومعدًّا نفسه للإجابة عليه .

وجد المكان خاليًا ، ولا أحد يستجيب لصوت سارينة سيارته ، فشمله الخوف من أن يكون قطع كل تلك المسافة دون الوصول إلى مبتغاه وقبل أن يهمّ بدخوله سيارته للعودة من حيث أتى ، حدثته نفسه بالصعود لأعلى الجبل عند الكهف الذي يُرى رَأْيَ العَيْن لعله يجد أحدًا بداخله ، أخذ يعتلي السلالم المنحوتة في الصخر حتى وصوله أمام الباب ، صفق بيديه أولًا ونادى ثانية :

- هل يوجد أحد بالداخل ؟

فسمع من يناديه :

- تفضل أيها الزائر الغريب .

دلف إلى الداخل يتلفت حواليه ، فلاحظ وجود كاميرات مراقبة مثبتة أعلى الصخور فوقة وفي الجوانب ، فظن بادئ الأمر أنها عبارة عن قطع من الصخور لكن عند رؤيته للأسلاك الكهربائية الموصلة بها تأكد أنها بالفعل كاميرات مراقبة .

وأثناء تفقده للكاميرات فوجئ بشخص يحمل سلاحًا ويوجهه إلى رأسه من الخلف ويقول له :

- امشي جدامي ، قولي إنت بيه ولا باشا ولا أستاذ ولا دكتور ولا باش مهندس ولا ، فقاطعه منصور بقوله :
- أنا منصور ، أنا منصور وبس .
- وأنا واحد من المطاريد ، جاي في إيه يا منصور .
- أقابل الكبير.
- محدش هنا كبير، كلنا زي بعض ، ها ... قتل ولا سرقة ولا خطف ولا حاجة تانية .
- قتل .
- اتفضل جدامي .

بضع خطوات مشاها منصور ليجد نفسه داخل حجرة مجهزة بأحدث الديكورات ، نجفة في السقف ، وورق حائط على الجدران يخفي نتوءات الصخور خلفه ، وقنالتكس أرضيات أسفل قدميه ، وبعض اللوحات المزورة لأعمال كبار الرسامين العالميين تزين الحوائط كذلك شفاط ، ومروحة مثبتة باستاند أرضي ، وما أذهله أن الأشخاص الجالسين من حوله في الحجرة والبالغ عددهم عشرة أفراد لم يكونوا في حالة تسمح لهم باستقباله ، فهم مشغولون بما أمامهم ، كل اثنين واضعين أمامهما لاب توب وغير مهتمين لأمره بالمرة ، حتى من اصطحبه للداخل تركه وعاد مكانه بجوار صديقه المنتظر قدومه ، وسمعه يقول : وقعت يا حلو هذا دوري ، فعلم منصور أنهما يلعبان أتاري، حاول لفت نظر أيّ منهما إليه فلم يجد استجابة ، وأثناء حيرته هذه سمع من يناديه خلفه ويقول له :

- تفضل يا أستاذ منصور تعالى ورايا .

وداخل حجرة أقل مساحة من الحجرة التي كان يقف بداخلها جلس على أحد

كراسي المنضدة التي تتوسط الحجرة في مواجهة الشخص الذي عرفه بنفسه :

- أنا الكبير هنا ، طلباتك .
- قتل .
- رجل أم امرأة أم طفل صغير أم ...
- وما الفارق ؟
- الفرق عندينا أننا نحدد لكل من هؤلاء تسعيرة .
- رجل .
- وأي وسيلة تريدنا قتله بها ، وكله له تسعيرة زي ما جولتلك .
- مش المهم طريقة قتله المهم أسمع خبر قتله في أقرب وقت .
- ما تشيلش هم .
- طلباتك .
- مليون جنيه .
- مش كتير.
- ضحك الرجل بصوت مسموع وقال :

تعرف تقرأ يا أستاذ منصور ؟

وناوله لستة بالأسعار، قرأها منصور بصوت مسموع :

- طفل صغير ١٠ مليون جنيه .

فقاطعه الرجل موضحًا :

- عشان كده مبنقتلش أطفال ، ولو جاءنا شخص وأصرَّ في طلبه وطاوعنا في دفع ما نطلبه لأخذنا منه الأموال وجتلناه وهو جالس في مكانه قبل أن يهم بتوديعنا ، عارف ليه ؟ لأن لدينا أطفال ، دا من ناحية ، ومن ناحية تانية هما مالهومش ذنب في أي صراعات بين الكبار، أما لو كانت امرأة ونادرًا

من يأتي لتكليفنا بهذ المهمة فالثمن يكون خمسة مليون ، أما لو كان رجلًا فالمبلغ المدفوع فيه يا دوب يكفي رجالتي أسبوع دا غير تعرضنا للإصابات والقتل أحيانًا ، ويكفينا الشر القبض على أحدنا ودخوله السجن .

- عندك حقّ ، الله يعينكم على ما أنتم فيه .

وأخرج من جيبه صورة عسقلاني يناولها له وهو يقول :

- وهذا هو الشخص المطلوب قتله ، ودا شيك بنصف المبلغ المتفق عليه وبعد انتهاء المهمة ابعث لي أحد رجالك وأعطيه النصف المتبقي .

تفحص الرجل صورة عسقلاني جيدًا ، ونظر لمنصور قائلًا له :

- إنت متأكد أنه الشخص المطلوب جتله .

- أيوه متأكد وهو مش بعيد عنك ، نصف ساعة بالسيارة تكون داخل قريته.

وعلامات التعجب تأخذ انتباه الرجل وهو ينظر لصورة عسقلاني ، ويقول لمن حوله من زملائه المطاريد :

- وهه وهه يا ولاد ، تعرفوا مين المقصود جتله ؟
- مين يا خوي ؟
- عسقلاني الصوالحي .

وأدار وجهه ناحية منصور يوجه باقي كلامه إليه :

- بس اللي اعرفه عن عسقلاني أنه هج من البلابيش وقاعد في مصر بجاله عشر سنين .

- وانت إش عرفك بيه .

- دا بلدياتي يا أستاذ وبالأمارة مرته اسمها ناصرة ، جولي هو عمل إيه

يستحق عليه الجتل .

- اغتصب مراتي في غيبتي ومتمرش فيه عشر سنين آويه فيهم هو واولاده ومراته .

بصق الرجل في صورة عسقلاني .

- اسفكس عليك يا عسقلاني وعلى اللي جابوك ، هو انت هتشتريه ما هي دي عادة في عيلتهم يا أستاذ ، حضرتك تعرف هو كان هاجج وتارك أهله وناسه ليه .

- ليه ؟

- يوم فرحه ابن عمه اغتصب بنت صغيرة وما اكتفاش بكده وبس دا جتلها بعد ما عمل عملته السودة ، بس للحق أهل البنيَّة مسكتوش جتلوا اللي عمل كده واخواته الاتنين كمان ، كانوا ناويين يجتلوا عسقلاني كمان ، ولما لاجوه راكع تحت رجليهم يتوسل إليهم إنو مالوش دعوة بأولاد عمه ولا باللي حُصل أرغموه على ترك حاله ومحتاله ويرحل بهدمته وبمرته وبس .
- الكلب قاعد عندي المدة دي كلها ومعرفش عنه كل ده .
- بس أنا مش هقدر أقوم بالمهمة دي من أساسه .

- ليه مش عاجبك المبلغ ، لو عايزني أزيدك بمليون آخر فلا مانع عندي .

- إنت حضرتك مش فاهمني ، إنت بتقول إن عسقلاني المحروق ابن المحروق هو في القرية دلوقيت وأنا لو اتجرأت وقتلته يبقى أخذت حق غيرك ، خصومه أولي بيه وهو كده كده مجتول ، فبلاش تدخَّلني في مشاكل أنا مش قدها ، خصومه شداد وإيديهم طايلة وفي أي وقت يجيبوني .

- وأنا إش ضمَّني ياركبير المطاريد إنهم يقتلوه ، فمن الممكن أن تتوسط عائلة عسقلاني وتبعث من يقيم صلحًا بينهم وينتهي الموضوع ببقاء عسقلاني حيًّا , وأنا افضل آكل في نفسي طول عمري ، يرضيك يا كبير.

- ميرضنيش يا منصور بيه .
- طب إيه رأيك تنسي أمر عسقلاني خالص ونتفق من جديد.
- على إيه ؟
- إنك تقتل امرأة ، والخمسة مليون جاهزين وتحت أمرك في أي وقت .
- وأنا موافق ... إيدك على صورة المرأة التي سأقتلها .
- صورتها ما زالت بيدك .

نظر كبير المطاريد لصورة عسقلاني ، وصدرت من فمه ضحكة كالتي ضحكها منذ قليل ، وأخذ يردد على مسمع منصور وهو يشير للصورة :

- مرة ... عسقلاني مرة .. هاء هاء هاء ....

وبعد انتهائه من نوبة الضحك قال لمنصور بنبرة لا تخلو من الجد :

- وأنا موافق .
- وآدي الشيك يا كبير ، ادفعوا لأمر...
- ممكن اتشرف بمعرفة اسم كبير المطاريد لجل كتابة الشيك باسمه .
- رحيم .

(٢٨)

فحصت منيرة أوراق ما يقارب الألفي شاب تنطبق عليهم شروط الالتحاق بوظيفة علاء التي خلت باستقالته لتختار من بينهم الأفضل ، أصر علاء على استقالته بل أنه تمادى في تهديده لها إن اقتربت من والده ونفذت ما وعدت به بإقصائه من وظيفته فسيكون له شأن آخر معها ، وكان اختيار منيرة لشخص بعينه ليس لأنه يستحق هذه الوظيفة إنما جاء اختيارها له لفكرة اهتدت اليها لعل مصطفى من خلالها يتراجع عما يفعله ويراعي مشاعرها كزوجة قدمت له الغالي والنفيس وما زالت لإرضائه .

تفحصت صورة الشاب الذي رأته من خلال الصورة الأسوإ بين المتقدمين ، ولما طلبت رؤيته من خلال اتصالها به وجدته كما أرادت من حيث طريقة ارتدائه لملابسه : «قميص بكمّ من ذراع ، ونصف كمّ من الذراع الآخر ، والبنطال يمتلئ بثقوب وتراقيع» ، فلما سألته عن ذلك ، وهي لا تمسك نفسها من الضحك فأخبرها أنها الموضة ، وعندما سألته عن قَصَّة شعره : نصف شعر الرأس محلوق بالطول والنصف الآخر متروك كما هو ؟ ردّ عليها نفس الرد :

- الموضة يا ست هانم .

وعندما سألته عن اللبانة التي لا تتوقف حركة فمه عن الصمت بسببها من طرقعة للبانة وغيرها من الحركات التي تتصف بها المرأة ، تفعل نفس حركاته في أوقات معينة لغرض ما في نفسها كانت تتمنى أن تناله في وقت معين لكنه تأخر ولم يحدث، فلا تجد غير هذه اللبانة تلوكها بطريقتها الشهوانية ؛ لتعبر بها لكل من حولها ، والحدق يفهم ، فلم يجد غير إجابة :

- إنها الموضة أيضًا .

لكنه قال لها :

- نسيت شيئًا هامًّا قبل انصرافي ، ألا وهو أنني رجل لا ينقصني شيء من صفات الرجولة غير أني أحاول التمرد فقط على طريقة المجتمع في التعامل معنا من ناحية الشكل والمظهر والمأكل وخلافه ، ونسي هذا المجتمع أننا لنا حق مغتصب أغفله ، ويا ليته يعمل جاهدًا على توفيره لنا .

سألته منيرة :

- وما هو ؟

رد عليها بعد إيقافه لحركة اللبانة التي يتشدق بها :

- إنه العمل .

قالت له منيرة :

- وإن توفر هل ستتخلّى عن كل ما تفعله بنفسك عمدًا ؟

قبل رده عليها بصق بقطعة اللبان في يده ، فقالت له منيرة :

- أرجوك أعدها إلى فمك مرة أخرى وأنت تكمل باقي حديثك .

ففعل ، قالت له منيرة وهي تُرجع ظهرها للخلف وتضع ساقًا فوق الأخرى :

- الآن أكمل باقي كلامك .

فقال :

- سيجدني المجتمع وقتها إنسانًا ، بل رجلًا بالمعنى الذي يحاول فرضه علينا فرضًا دون تحقيقه ، أو جعلنا نحاول مجرد المحاولة لتحقيق أحلامنا التي وجدناها مستحيلة التحقيق بعد تخرجنا واصطدامنا بصخور الواقع الصادم لكل آمالنا وأمانينا.

- وماذا لو طلبت منك أن تظل هكذا كما أنت بعد استلامك لوظيفتك .

تردد الشاب قليلًا وهو يحاول وأد دهشته التي لم يكن يتوقع من خلالها أن يكون قد اختير فعلًا دون غيره مما تقدموا لنيل هذه الوظيفة التي يعلم جيدًا أنها لن تأتي لشابّ مثله إلا إذا كان لديه واسطة تؤهله لنيلها ، لذلك تعمد وهو خارج من بيته عندما أتاه اتصال منيرة بتحديد ميعاد المقابلة معه ارتداء تلك الملابس وقصّ شعره بالطريقة الغريبة التي يبدو عليها وأخذ يلوك اللبانة بالطريقة النسائية التي يلوكها بها ، ناهيك عن جرأته في حديثه الذي أظهر من خلاله تمرده على ما هو تقليدي في المجتمع ما دام المجتمع نفسه يسلبه حقًّا كان يود تقديمه له على طبق من ذهب فور تخرجه ونيله شهادته أيًّا كانت ، سواء جامعية أو معهدًا فنيًّا أو دبلومًا أو فرضت عليه الظروف ألا يكمل تعليمه ، وما أكثرها هي هذه الظروف التي تتمثل في عراقيل تمنع هؤلاء الأشخاص من نيل أبسط حقوقهم في الحياة من أن يتعلموا .

ولما وجدت منيرة مفاجأتها له تمنعه عن الحديث والرد عليها قالت له :

- كن واقعيًّا كطريقة ملبسك وقصة شعرك وطريقتك الشهوانية في نهمك

لقطعة اللبانة وأيضًا جرأتك وشجاعتك في الكلام ، لقد اخترك بالفعل لنيل هذه الوظيفة ، لكن بشرط .

عاد الشاب كسابق عهده قبل مفاجأته بفوزه بالوظيفة وقال لها :

- أأمري ما دام هذا الشرط في سبيل نيل الوظيفة .

ودعته منيرة بعد اتفاقها معه على مقابلته في مكان حددته بنفسها لمناقشته في هذا الشرط الذي تتمنى موافقته عليه ، وقالت له مؤكدة عليه عدم التأخرعن الميعاد :

- لا تتأخريا وليد ؛ سأكون بانتظارك .

***

جلس الاثنان في مواجهة بعضهما ، أمامهما منضدة عليها ما لذَّ وطاب من المأكولات البحرية في مركب سياحي على النيل ، وفهم وليد ما شرحته له منيرة لفعله ، وقال لها يطمئنها :

- أوعدك هو أسبوع واحد وستجدين بعدها زوجك خاتم في أصبعك .

أمرته منيرة بالصمت ، وقالت له :

- ما اتفقنا عليه لليلة واحدة فقط ، لا أريد للموضوع أن يتعقد أكثر مما هو متنيل .

حل عليهما الليل وهما ما زالا جالسين مكانهما ، قدم لهما الطعام مرتين رغبة من وليد في هذا ، غير المشروبات التي استاءت منيرة من كثرتها .

وعندما حانت ساعة تنفيذ المهمة المتفق عليها اضطرت منيرة لاستخدام الفيزا كارت لدفع الحساب الذي لم تكن تتوقع قيمته المالية الكبيرة ، وقالت لوليد :

- ما دفعته يساوي مرتب سيادتك عامين كاملين فلا تخذلني أرجوك .

هزَّوليد رأسه ولسان حاله يقول لها :

- كان مالي ومال مشاكلك ، شكله يوم أسود من أوله ، لكن أستاهل أنا كل اللي هيجرالي .

***

وكما توقعت منيرة وجدت مصطفى بداخل الشقة جالسًا أمام شاشة التلفاز يشاهد إحدى أغاني الفيديو كليب يحتسي الخمر ، وبجواره أربع شابات تعمد أن يكنَّ مرافقات له ، متعمدًا بذلك رؤية منيرة لهنَّ ؛ لجعلها تتخلى عن كل تهديداتها بسجنه إن فكر في تطليقها .

ألقت عليه السلام وهي تتصنع عدم المبالاة بما يفعله في شقتها ، وتجرئه ووقاحته عليها ، ولما رآها مصطفى على حالتها الطبيعية وهو المتمني قولها له : طلقني وسأقطع كل وصولات الأمانة التي جعلتك تمضي عليها في لحظة سكر كالتي أنت فيها الآن ، ولم يدرِ مصطفى أن منيرة حقًّا قد أحبته ولا يمكن لها التفريط فيه بالسهولة التي يظنها ، ولما رآها مصطفى على حالتها الطبيعية لا تحاول افتعال المشاجرات معه ، استشاط غضبًا وطرح ما في يده من الخمر أرضًا وقال لها :

- لو مش عاجبك أطلقك ، بس قبل ما اطلقك تتنازلي عن كل حقوقك لي.

تصنعت منيرة عدم سماعه ، ونادت بأعلى صوتها :

- ادخل يا وليد يا حبيبي .

دخل الشاب وليد بمجرد سماعه اسمه ، وكما المتفق عليه بينهما بدأ بتنفيذه على الفور رمى بنظره تجاه مصطفى وقال لها :

- أهذا هوزوجك يا حبيبتي يا منيرة ، إنتِ بتعرفي الأشكال دي منين يا حبيبتي ، يلا روحي ندخل أوضة نومك نعمل اللي احنا عايزينه جواها .

وسار خلف منيرة يتصنعان الذهاب إلى الحجرة ينتظران ردة فعل مصطفى الذي أطاح بكل زجاجات الخمر الفارغة والمملوءة أرضًا ، فتهشم منها ما تهشم ، وقام منفعلًا قاصدًا عنق وليد الذي احتمى خلف منيرة التي قالت له بنبرة لا

تخلو من الحدة والخشونة ، كأنها رجل يقف أمام رجل من جنسه مستعدًّا للدفاع عما وراءه بكل ما أوتي من قوة ، وقالت له تتوعده :

- إياك أن تمسه بسوء ، أنت تفعل ما يحلولك ، وأنا كذلك سأفعل ما يحلو لي إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولًا .

رنت جملتها الأخيرة في أذن مصطفى الذي بدأ يفيق من سكره ومد يده تجاه عنقها وقال لها :

- لن أنتظر أن يقضي الله ، سأقضي عليك وعليه بنفسي .

وكالثور الهائج اندفع وهي كذلك اندفعت نحوه ، اصطدما ، أمسك بعنقها وأمسكت بعنقه ، غرست أظافرها في رقبته ، فما كان من مصطفى إلا أن أبعد يديه عن رقبتها مركزًا كل هدفه في التقهقر للخلف ، فزلَّت قدماه وسقط أرضًا ، ومنيرة تتبعه في سقطته لا تفكر في ترك رقبته وكأن مخالبها التصقت بعنقه ولا تريد تركها ، اندفعت البنات الأربع وراء بعضهن متخذات وجهتن لخارج الشقة ،

ولسان حالهن يقول : إنها الفرصة المناسبة للفرار من هنا ، وكذلك فعل الشاب وليد مثلهن بعد إحساسه أنه فعل ما كُلف به على أكمل وجه ، وما يدور بين الزوجين ليس لأحد التدخل بينهما .

ظلت منيرة جاثمة فوق جسد مصطفى متشبثة بعنقه تنتظر تدخل وليد للتفريق بينهما أو أيّ من البنات الأربع اللائي ظللن واقفات بجوار الباب يتفرجن متأهبات للفرار عند حدوث الفاجعة ، لكن مع طول الانتظار فقدت منيرة الأمل واستسلمت لقوة مصطفى التي بدأت تزداد في كل لحظة تمرّوهي متشبثة بعنقه ، وفي غمضة عين وجدت نفسها أرضًا وجسد مصطفى فوقها ويديه حول عنقها يضغط عليه بكل قوته ، فحاولت المقاومة وزادت من نهشها لعنقه ، فما كان من مصطفى إلا أن بدأت قواه تخور مرة أخرى ، وبدأ يشعر بالإختناق ، فراح يبحث عن شيء يتشبث به أو يخلصه من اللبؤة المفترسة القابعة تحت جسده ، رأت عيناه شِبه المغمضتين زجاجات الخمر المهشمة على مقربة منه ، فمد يدَّه إليها ، وبصعوبة بالغة استطاع إمساك واحدة منها، وغرس حوافها في عنق منيرة التي أرخت يديها وأبعدتهما عن رقبته المنسالة منها الدماء هي الأخرى بفعل أظافرها التي استطاعت الغوص داخل رقبته .

وقف مصطفى غير مبالٍ بما فعله ولا بتوسلات منيرة بأن يسرع في إنقاذها ، كان كل همه البحث عن منديل ورقي يكتم به الدماء المتساقطة من رقبته ، ولما لم يجد منديلًا تذكر صنبور المياه ، فأسرع نحوه وألقى برأسه تحته ، وعند استعادته كامل وعيه جلس على مقربة من جثة منيرة ، ووضع قدميه على صدرها بعد تشغيله للتلفاز يحاول تصنع الهدوء ، لكن عينيه خانتاه وأصبحتا كالشلال المتدفق انهمارًا بمياه لا محاولة لها من الهروب من الانزلاق لأسفل خديه .

مرَّوقت عليه وهو في حالته هذه مستسلم لرجال الشرطة عندما هلُّوا بِطلّتهم البهية ، غير عابئ لمقدمهم على وجه السرعة هكذا أو بمعرفة من قام بإبلاغهم بفعلته هذه ، مدَّ يده لأحدهم عندما رآه ماسكًا بالكلابش الحديدي ، وسار بينهم دون أي مقاومة تذكر معترفًا بأنه قاتل منيرة ؛ لأنها شرعت في خيانته .

(٢٩)

لم تفلح محاولات شربات في الهروب من الحجرة التي سجنها فيها زوجها داخل الفندق بسبب الحراسة المشددة على الجناح الموجودة بداخله والذي بدأ يستقبل كل ليلة ضيوفًا بالجملة يعرض زوجها عليهم قضاء الليل معها مقابل المال الذي يخسره في لعب القمار، القمار الذي اتضح لشربات مع توالي الليالي أنه إدمان يجري في دمه ، مستعد في سبيله التضحية بأي شيء مقابل الجلوس يوميًّا على موائده ولعبه ، وتمادى في غيه عندما استهوته لعبة وضع اسمها كل ليلة على ترابيزة القمار في ورقة ومن يريدها عليه تثمين البضاعة في مزاد علني تسمع أحيانًا كثيرة أرقام المبالغ التي يزايدون بها حتى يفوز بها من يظل يزايد ويصل لأعلى رقم.

لم يعد يعني شربات ما يحدث لها كل ليلة من هتك لعرضها عنوة وقهرًا بالقوة إن أصرت على صد من فازبها في المزاد أوتجرأت بمدّ يدها عليه وضربه ، ودت فقط قتل نفسها ، بل تمزيق جسدها بالسكين الذي احتفظت به بين طيات ملابسها أخفته خلسة من الحارس سالم المكلف بحراستها ، والمراقب لكل تحركاتها داخل الجناح الفندقي ، لفت نظرها وجود السكين ملقى على الأرض في طريق خروجها من الحمام .

كانت تلقي نظرة على غرف الجناح الفندقي لعلها تجد فرصة تغافل فيها الحارس سالم وتهرب من باب الجناح الخلفي الذي يؤدي حتمًا إلى سلالم خلفية للفندق تستخدم عند الضرورة كاشتعال حريق أو ما شابه ، لمحت السكين فتصنعت انزلاق قدمها ، جلست وتناولته ، فاندفع سالم نحوها لتشجعه بعد ذلك على معاونتها حتى الوصول إلى حجرتها ، ولما فعل سالم ذلك مدت يدها وهي تلقي بكل جسدها في أحضانه ، وهي مضطرة لذلك ، ولما وصلت لمرادها بصقت في وجهه وهي تغلق باب الحجرة بكل عنف .

مرت ليلتها دون استعمال السكين مع الشخص الذي لازمها في الحجرة حتى الصباح مترددة في قتله بعد استسلامها له ، وترك جسدها لشهوته الحيوانية تشملها حالة من اللامبالاة بما يفعله بها ، كان كل اهتمامها منصبًّا على زوجها تنتظر دخوله عليها في أية لحظة فتندفع نحوه وتمزقه إربًا ، لكنه لم يفعل كعادته طيلة الليالي السابقة بالمرور عليها ليطمئن على الشخص المرافق لها خشية مسها له بسوء ، لم يزرجفناها النوم ، فلم يكن بالأمر الهين عليها الاستسلام له .

كرهت كل شيء حولها ، نفرت امتعضت امتقعت حتى جسدها الذي يحمل رأسها عن طريق العنق ودت لو تطرده شر طردة ، طاردة لكل توسلاته بتركه يحيا ويعيش مبررًا ذلك بأنه ليس له ذنب فيما يحدث لها .

سألت سالم وهي يناولها طعام الإفطار:

- أين زوجي ؟

فلم يجبها، فعاودت تكرار السؤال عليه مرة أخرى ، وكررته ثلاث مرات حتى أجابها بردّ لم تكن تتصور من خلاله أنه على علم بما ستفعله ، فسألته كيف عرفت ؟ فأجابها بأنه من تعمد وضع السكين في طريقها ، وظل منتظرًا طوال

الليل سماع نبإ موت الضيف الذي كان معها في الحجرة ، وأكمل يعترف لها :

- وددت قتل زوجك في كل دقيقة تمرّ عليه يوميًّا ، وأنا أراه أمامي لكني للأسف - سامحيني - لا أستطيع ، فلن يجد أولادي من يطعمهم إن أقدمت على فعل ذلك، سيشردون ويموتون جوعي ، سيحدث لهم كل هذا - بل وأكثر - في هذا الزمن الذي لا يعرف فيه الأخ أخاه .

فرحت شربات لوجود شخص بجانبها يؤازرها فيما ستفعله ، بل وشاهد على كل ما يحدث لها ، وودت لو قالت له : ساعدني على الهروب ، لكنها تذكرت كلامه لها عن أولاده ، هذا غير أنها قالت لنفسها تتساءل : إلى أين أذهب إن هربت وعدت إلى أهلي ؟ فلن يصدقوني إن أسررت لهم بما فعل بي اللعين زوجي خصوصًا أبي الذي سيعيدني إليه دون تردد ، وهو يزورهم محملًا بهدايا يضحك بها عليهم .

صمتت برهة تفكر في حل آخر لكن سالم لم يمهلها وهو يهم بالذهاب من أمامها ، فقالت له :

- أرجوك سامحني على ما بدر مني تجاهك عندما أوصلتني إلى حجرتي هذه .

هز سالم كتفيه بعدم اللامبالاة ، وقال لها :

- والآن سأذهب لإيقاظه تحت مبرر أنك مريضة أو أنك تريدنه في أمر ها.

ودعته شربات بسعادة غامرة ؛ لأنها فهمت من مغزى كلامه أنها الفرصة التي لن تحظى بها مرة أخرى لتنفيذ ما يمليه عليها ضميرها ويلح بكل قوة لأن تفعله ، وشعرت بمرارة أيضًا من أن يكون سالم يخدعها وما هي إلا محاولة من زوجها لجسّ نبضها ومعرفة إن كانت تضمر له سوءًا وهو من بعث بسالم ليبوح له بكل ذلك ، لكنها طردت تلك الهواجس ودلفت للحجرة متناولة السكين من مخبئه

عندما وجدت زوجها خارجًا من حجرته قادمًا في اتجاهها .

سعت إليه وهو يتجشأ ويتأوه ويتثاءب ، فظنها قادمة نحوه ، عادة ألفها تكررها يوميًّا ، تركع تحت قدميه ترجوه بتركها تذهب لأهلها ، فظهرت في عينيه الشماتة في لحظة ركبه الغرور فيها ، ولم يكن يتصور أن سكينًّا سيبقر بطنه أولًا ويستقر في رقبته بارزًا من قفاه ثانيًا حتى مجيئ شرطة الفندق ، ليجدوه مقتولًا ويتأكدوا من صدق قول شربات لهم في التليفون أنها أجهزت عليه وليأتوا حالًا للقبض عليها .

(٣٠)

اضطر رحيم كبير المطاريد ترك مغارته لزيارة منصور في مكتبه ؛ لإعلامه بصعوبة قتل عسقلاني مبررًا ذلك بأنه لو قتله فإن الخراب سيعمّ على أهل بلدته متعللًا بأن عسقلاني حي يرزق في حماية أربعة إخوة ينتمون لأقوى العائلات ، وحتمًا إن نفَّذ فيه القتل ، فستقوم مبدئيًّا حرب لا هوادة فيها بين ثلاث عائلات وربما يزيد عددهم عن ذلك ، وبناءً على ذلك سيموت أبرياء كثيرون لا ذنب لهم فيما يحدث وحتمًا ولا بد ستتم ملاحقته وقتله هو وأعوانه .

تأسف له من عدم قدرته القيام بهذه المهمة وهم بالذهاب ، لكن منصور جعله ينتظر حتى انتهائه من كوب الشاي المنتظر قدومه من عامل البوفيه ، وخلال هذه الدقائق التي أخذ خلالها رحيم يرتشف كوب الشاي ألحت على منصور فكرة لم يتأخر في إخبار رحيم بها ، وهي السعي من أجل الصلح بين عسقلاني وخصومه وأثناء الصلح تكون نهاية عسقلاني بطلقة غادرة لن يعرف من أطلقها ، وبهذا يتبرأ الإخوة الأربعة من دمائه ، فقال له رحيم وهو يهم بالاستئذان في الرحيل :

- دعني أفكر وأستشير رفقائي .

وجلس منصور بعد توديعه لرحيم يفكر في كيفية تنفيذ الفكرة التي طرأت على

باله منذ قليل بنفسه ، هذا إن استمر رحيم في رفضه قتل عسقلاني ، وأخذ يتصور نفسه مرتديًا جلبابًا وواضعًا كمامة على وجهه تُخفي معالمه ، وبيده سلاح يطلق أعيرته النارية تجاه عسقلاني الذي يشق بتقدمه صمت الحضور الجالسين على الجانبين يشهدون توقيع الصلح ، تخيل رؤيته لعسقلاني يهوي أرضًا مقضيًّا عليه .

وبينما هو كذلك إذ بأحد المحررين الصحفيين يدخل عليه بعد أخذه الإذن بالدخول فرحًا بشوشًا يقول له :

- مبروك يا منصور بيه مدام جيهان كسبت القضية .

فانزعج منصور بشدة بعد سماعه اسمها ، وهو يحاول إخفاء غضبه وحنقه سأله بعد انقباضة ألمت بصدره :

- قضية إيه اللي كسبتها الهانم ؟

ردَّ عليه المحرر الصحفي :

- قضيتها أمام المحافظ ، لقد حكم القاضي بحبس المحافظ سنة مع الشغل وتغريمه مبلغ ١٠٠١ جنيه على سبيل التعويض .

فقاطعه منصور بغضب :

- أكنت حاضرًا جلسة النطق بالحكم اليوم ؟

- لا ؛ إنما بعث به مراسلنا في المحكمة منذ قليل .

- إذن تأكد بنفسك من صحة الخبر حتى لا تعطي مبررًا لأحد للهجوم علينا ، واجعله في سطرين لا بل في سطر واحد في العدد الورقي الصادر غدًا ، ولَّا اقولك ؛ خبر مثل هذا ليس له أهمية لدى الغلابة المطحونين ، هناك

أخبار كثيرة لها أهمية تستحق النشر بدلًا منه .على الجانب الآخر لم تكن جيهان سعيدة بما أسرَّبه إليها محاميها عندما هاتفها وأخبرها بمنطوق الحكم ، حاولت رسم الابتسامة من خلال شفتيها لكن فمها أبى ؛ لحالة الحزن الملازمة لها عندما علمت بأمر حملها ، وصدمتها بردة فعل منصور وطلاقها منه، نظرت لبطنها المنتفخة حديثًا ولامستها بإحدى يديها ، ومسحت باليد الأخرى دموعًا انسابت من عينيها دون إرادتها .

وبعد فترة لم تدم طويلًا كانت تقاوم فيه هذا الحزن ، اتصلت بصاحب القناة واستأذنته في إفراغ مساحة زمنية لها على الشاشة لأنها قررت الإطلال على جمهورها الليلة بشأن أمر هام تريد إعلامه للمجتمع ، فرحب صاحب القناة وقال لها :

- لو أردت مساحة القناة الزمنية كلها فلا مانع عندي .

ولم يكذب خبرًا بعد إنهائه المكالمة معها ، وأمر على الفور ملء مساحة الشاشة بإعلانات مكثفة تنبه جمهورها بشأن ظهورها الليلة .

ومن ناحية جيهان انهالت عليها المكالمات من كل صوب وحدب اضطرت لكثرتها لإغلاق هاتفها ، وبدأت في تهيئة نفسها استعدادًا للخروج على جمهورها الليلة ، كما اتفقت مع صاحب القناة ، في نفس ميعاد إذاعة برنامجها ، أخرجت كل ملابس خروجها وبدأت في اختيار أيهما يناسب الحلقة ، وبعد جهد وعناء استقرت على ردائين أسودين تحيرت بينهما ، فما كان منها إلا أن فتحت تليفونها مرة أخرى واتصلت بمدام سندس واستأذنتها في مكالمة والدتها التي قالت لها :

- رغم إحساسي بأنك حزينة فتقبلي اختياري بصدرر رحب وارتدي الرداء ذي اللون الأحمر أنتِ تبدين رائعة فيه ، وأرجوك يا ابنتي لا تفكري في ارتداء

أيّ من الردائين الأسودين حتى لو جاءك نبأ موتي فلا ترتدي أيًّا منهما ، إنها وصية أوصيكي بها .

قاومت جيهان دموعها وهي تنهي المكالمة ، ونزولًا على رغبة والدتها أعادت الردائين الأسودين مكانهما ، وبدأت في ارتداء ما اختارته لها ، وقبل ميعاد إطلالها على الجمهور بساعتين ذهبت لمقرّ القناة ، وداخل الأستوديو بدأت العمل بجد مع فريق العمل لخروج الحلقة كما تتمناها وما يتمنى رؤيته جمهورها المنتظر بشغف انتهاء الفقرة الإعلانية الطويلة والتي لن تنتهي إلا بموعد ظهورها .

***

وفي ظل الحالة النفسية الشديدة التي لازمت علاء حزنًا على صاحبه مصطفى والتزامه داخل حجرته وإطلاق العنان للحيته مرة أخرى ، سمع صوتًا صادرًا من شاشة التلفاز بأن جيهان ستظهر بعد خمس دقائق من الآن ، خرج علاء من الحجرة وجلس بجوار والديه ينتظر بشغف ظهورها ، وبينما هو كذلك إذ تذكر الليلة المؤسفة فأحس بتأنيب الضمير وهو يستعيد أحداثها .

***

حانت اللحظة وشد الجميع أحزمة الأمان على بطونهم منتظرين ماذا ستقول وأي القضايا تطرحها الليلة للمناقشة لإيجاد الحلول السريعة لمعالجتها ، وإن كان يغلب على الأغلبية منهم معرفتهم لأي القضايا التي ستكون مطروحة للنقاش من جانبها ظانين أنها ستعاود الهجوم على المحافظ الذي بسبب تعنته غير المبرر في الهجوم عليها أوقفت حلقات برنامجها مصرّة على توقفه حتى يفصل القضاء في القضية التي أقامتها ضده .

أطلت عليهم بوجهها ، وقالت :

- مع أني فرحة بعودة برنامجي مرة أخرى وجلوس الملايين حول شاشات التلفاز الآن ينتظرون ما سأطرحه للمناقشة ، وإن كان الأغلبية منكم يتوقعون مني التحدث فيما حدث بيني وبين المحافظ ، وآخرين يظنون أني سأتشفى فيه ، ويتوقعون أيضًا أن أصب جام غضبي على الحكومة والكبرياء والصلف الذي لازمهم وعدم إقرارهم بالخطأ الذي وقعوا فيه وإنصاف القضاء الشريف لي، لا ؛ فلست حزينة على حال حكومتنا وما يؤول إليها حالها وبالتبعية يصب كل هذا على حال المواطن البسيط الذي بالكاد يجد قوت يومه ، صدقوني أحس بكل ما تعانونه وتقاسونه ، لكن اعذروني سأضطر لطرح موضوع يخصني شخصيًّا ، وبسببه كنت سأضطر لعدم الظهور نهائيًّا على الشاشة بل وإلغاء هذا البرنامج ، لكن لأني أحب المواجهة ومعالجة الأمور مهما كانت درجة أهميتها بالنسبة لكم فقد وقفت أمام نفسي الأمارة بالسوء ، وحسمت موقفي بأن أطرح عليكم مشكلتي ، أضعها أمامكم لتجدوا لي حلًّا لها ، أرجوكم قبل سماعكم لما سأقوله لكم أن تتقبلوا اعتذاري وتتفهموا أني في مشكلة حقيقية .

وإذ بالدموع تنهمر من عينيها وتتوقف عن الكلام لبرهة من الوقت كانت تحاول خلاله إخراج منديل ورقي من حقيبتها لتمسح به دموعها ، سمعت صوت المخرج يستأذنها من خلال سماعة الأذن في ملء الشاشة بالإعلانات حتى تهدأ ، ولما وجدها لا تعطي أي اشارة لتنفيذ ما يريده قال لها متوسلًا :

- أرجوك اتكلمي يا مدام جيهان لا تنسي أننا على الهواء مباشرة والملايين يشاهدونك .

فاستجابت جيهان لتوسلاته ، وبدأت في سرد ما حدث لها دون خجل أو خوف من ردود الأفعال تجاه ما تقوله ، فكل ما كان يعنيها ردة فعل زوجها تجاهها وعدم تفهمه للموقف الذي فرض عليها فرضًا ولم يكن لها أي ذنب فيما حدث .

- لم أكن أتخيل في يوم من الأيام أن قضايا دائرة الاغتصاب التي تمس قطاعًا عريضًا منكم ستمسني أنا شخصيًّا ، أرجوكم سامحوني وأنا أقول لكم أني عندما قدمت أولى حلقات هذا البرنامج ركبني الغرور وقلت في نفسي : أنا والحمد لله ميسورة الحال فلن أتعرض لمثل هذه القضايا التي تمسكم ، صدق المثل اللي قال : «طباخ السم لازم يدوقه» ، وأنا دوقت السم دا غصب عني ، والمشكلة معرفش لحد الآن مين اللي سقاني السم دا ، عارفين ليه؟ مكنتش متخيلة إني أدوق مما كنت أطبخه في كل حلقة من حلقات برنامجي؛ لأني تخيلت عدم تعرضي لمشاكلكم بسبب تعليمي والمنطقة السكنية الراقية التي أعيش فيها ، وكذلك زوجي المتفهم لطبيعة عملي ، هذا غير راتبي الذي يكفيني ، بل واشتريت منه فيلا وسيارة ولبس شيك وأرصدة بالبنوك ، والله وحده يعلم كم أنفق من هذا الذي يزيد ويفيض على مشاريع الخير والجمعيات الأهلية وغيرها ، واللي ميعرفوش الكثير منكم أيضًا أني كنت بعمل دا كله وما زلت - أقصد طبعًا فعل الخير - لأن في حاجة واحدة بس كانت نقصاني ربنا إداها لناس كتير منكم ، ومع إن في كتير منكم برضك بيرفسوا النعمة اللي ربنا ادهالهم ، عارفين هي إيه ؟ نعمة الخلفة ، أيوه نعمة الخلفة ، وطبعًا اللي ربنا ما رزقهومش بالنعمة دي يعرفوا أد إيه العذاب والألم اللي كنت باكتوي بيهم وأنا باشوف طفل أو طفلة بيطبعوا قبلة على وجوه آبائهم ، كنت بادعي ليل ونهار إن ربنا يرزقني بالنعمة دي وأنا عارفة ومتأكدة أن ربنا عمره ما هيحققلي مرادي ، مش عشان معنديش ثقة في ربنا ، لأ ؛ بس عشان كنت عارفة إن العيب مش عندي ، التحاليل أكدت إني سليمة وممكن أخلف في أي وقت ، لكن حبي لجوزي اللي عمري ما تخيلت إننا ننفصل ونسيب بعض عشان النعمة د، والشهادة لله ياما اتحايل عليّا إننا نسيب بعض ، لكن أنا رفضت رفض قاطع ، ورضيت بقضاء ربنا اللي قال في كتابه الحكيم : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَهَبُ لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ .

- سامعة ناس دلوقتي بتقول : واحنا مالنا ومال مشكلتك سبينا باللي احنا فيه كفاية علينا همومنا ، أقولهم : أرجوكم لازم تنتظروا وتسمعوا باقي حكايتي وتساعدوني زي ما ساعدتكم في إيصال همومكم ومشاكلكم

للمسئولين ، ومن غيرلتّ وعجن من جانبي هادخل في الموضوع على طول :

- أنا قلت أول ما ابتديت الحلقة إني دخلت جوة دايرتكم وكما اغتصبتم اغتصبت أنا الأخرى .

وبعد انتهائها من السرد بعثت بنداء ممزوج بالدموع ترجو فيه من فعل بها هذا الجرم أن تتحرك فيه النخوة والرجولة ويعترف بما فعله كي تبرأ ساحتها أمام زوجها الذي لا يعنيها أحد سواه ، وزادت بأنها لا تخشى أحدًا ، ولا تخاف من ردة الفعل التي ستطلقها الحناجر المسمومة التي تنتظر هفوة صغيرة منها .

***

انتابت علاء حالة من البكاء الذي تزايد ليكون هستيريًّا لا يسمح لأحد بايقافه ، وإذا به يعلن لوالديه وهما يسألانه - وحالة من الخوف والذعر تشملهما - عما يجعله يبكي هكذا ، فقال لهما بصوت جهوري :

- أنا مرتكب هذه الفعلة النكراء بحق مدام جيهان .

نظر والداه لبعضهما ، وتصنَّعا عدم الفهم ، وبدأ والده يستفسر منه :

- إنت تقصد مين يا ابني ؟ وفعلة إيه دي التي ارتكبتها ؟

وزادت عزيزة عليه :

- يا ساتر استر يا رب .

وبانفعال متزايد اعترف لهم بما فعله بجيهان ، لطمت عزيزة خديها وكاد يغشى عليها لولا كلمات الاستغفار وبعض الآيات القرآنية التي صدرت من فم الحسيني ، والتي لم تبرح لسانه يصبر بها نفسه ، وكذلك زوجته .

فترة من الزمن لم تدم إلا لدقائق معدودات كانت غمغمات الحسيني هي سيدة الموقف بعدها أخذ علاء مبادرة الكلام بعد هدوئه قليلًا ، وسأل والده :

- أشر عليَّ يا والدي ماذا أفعل الآن ؟

زادت غمغمات الحسيني ولم يرد عليه ، بل ألقى برأسه بين كتفيه ، وكذلك فعلت والدته، وبينما هو كذلك في حيرة من أمره ، نظراته حائرة بين والديه ، إذ به يجد والده يختفي من مكانه ويحل بديلًا منه الكهل الذي أنقذه مرات عديدة من الغرق ويقول له :

- عارف دلوقتي إنك بين نارَيْ والديك الخائفين عليك ، وحتمًا سيتغلب عليهما شيطانهما ويأمرانك بالصمت ، ونفسك الأمارة بالسوء بتقولك : عيش حياتك عادي واكفي على الخبر ماجور، لكن قل لي : ما الفائدة التي نجنيها ونحن نرى الشر ينتصر على الخير؟ هل سيعود علينا بالنفع حقًّا ؟ لا يا ابني صدقني الدنيا التي نحياها ليست إلا فيلمًا سينيمائيًّا ، نجلس أمام الشاشة نرى نتفرج نشاهد نسمع نبتسم نضحك نبكي ، لكن ليس بأيدينا أن نغير شيئًا مما يدور أمامنا من مشاهد ، حتى لو كانت هذه المشاهد تخصنا أو أننا جلسنا مرة بعد مرة وقد عرفنا مسبقًا ما يحتويه المشهد القادم ، فلن نستطيع أيضًا أن نغير شيئًا ، فكل ما نستطيع فعله هو الفرجة فقط ، ولن يعجز الفيلم شيء إذا أبدينا غضبنا لأن النهاية كانت بانتصار الشر على الخير أو إذا أبدينا سرورنا ونحن نرى النهاية السعيدة التي نتمناها دائمًا بانتصار الخير على الشر، لكننا إذا عُدنا إلى الحقيقة التي نحياها وأسألك مرة أخرى ماذا سنجني أم ماذا سيعود علينا بالنفع إذا رأينا الشر ينتصر على الخير؟ صدقني لن نجني شيئًا أبدًا إنها فقط جولات سريعًا ما تنتهي لتبدأ الجولة التي بعدها ، وكأننا في مباراة ملاكمة .

- هي حياتنا كذلك تتكون من ثلاث جولات تحدد مَنِ الغالب ومن المغلوب ممكن تكسب بالضربة القاضية من أول جولة ودا شيء في حد ذاته عظيم تلاقي نفسك وقتها فوق من الكُبرات ، وممكن يحصل العكس وتلاقي نفسك

في سابع أرض عايش كأنك حشرة ، نكرة ولا حد سائل فيك ، وممكن تكسب جولة وتخسر جولة وفي الجولة التالتة يتعادل الخيروالشر ككفتي الميزان ، ساعتها نبقي في حيرة ونفضل نفكر يا ترى مين اللي هيتحسبله الجولة دي والحكم يرفع إيده معلنًا فوزه بالمباراة ....بص يا بني من الآخر كده الدنيا دي من ساعة ما آدم انكتب له إنو ينزل من الجنة هو وأمنا حوا ومعروف إن فيه خيروشرلحد ما تقوم الساعة اللي ميعرفش بأوانها غيرربنا سبحانه وتعالى ، عشان كده لو قعدت قدام التاريخ وقرأته كويس هتلاقي إن الخيروالشر في جولات كل منهما مرة كسبان ومرة خسران والضحية أولًا وأخيرًا البني آدم اللي وضع القوانين وطبقها على نفسه ، وقت الجد يندم أشد الندم وبيلعن اليوم اللي فكر فيه يضع تلك القوانين التي حتمًا تنصر الخيرعلى الشر ، معلش يا ابني إن كنت طولت عليك حبتين قوم روح سلم نفسك اعترف بفعلتك دون تردد أو خوف ، سلم أمرك لله ولا تخشى من عقاب الدنيا فعقاب الله أشد في الآخرة ، مع السلامة يا بني مع السلامة .

أشار علاء له بيده بأن ينتظر ، سار خلفه لا يسمع لتوسلات والديه بأن ينتظر ليعلمها إلى أين هو ذاهب .

ظنه ضابط القسم من مجانين الشهرة فهزأ منه وقال له :

- إنت عارف ياض جريمة مثل التي تدعي أنك ارتكبتها من الممكن أن توصلك لحبل المشنقة ، وأمر أحد مساعديه من أمناء الشرطة بإلقائه في الحبس حتى الصباح لعله يفيق ويعود لرشده .

***

اضطر منصور لمشاهدة حلقة جيهان كالملايين غيره ممن تستهويهم مشاهدة برنامجها حتى ولو كانت تولدت لديهم حالة عدائية من موقف ما حدث بينهم وبين جيهان فإنهم رغم ذلك لا يتصورون مرور حلقتها دون رؤيتها ، وأثناء اعترافات جيهان بما حدث لها استشاط غضبًا ، وامتلأت نفسه غيظًا وحنقًا

، وود وقوفها أمامه أثناء لحظات اعترافاتها هذه ليندفع نحوها ويرديها قتيلة ، وأخذ يعاتب نفسه لأنه لم يفعل بها ذلك عندما دخلت عليه واعترفت له بجريمتها التي يعرف مرتكبها جيدًا ، وأنها تمثيلية أطلت بها على الرأي العام في محاولة منها لاستمالته في صفها عندما ينكشف أمر خيانتها له كما يظن ، ولم يجد شيئًا يُفرغ فيه غضبه هذا سوى تهشيمه كل ما وقعت عليه عيناه من فازات وأكواب زجاجية داخل الشقة المفروشة التي اتخذها مسكنًا له ، فأصبح كل شيء حوله محطمًا ما عدا هاتفه الذي لم يفكر لحظة واحدة في تهشيمه لأنه أصبح الوسيلة الوحيدة أمامه التي بها سينتقم شرَّ انتقام ممن يظن أنه خانه وغدر به بعد عشر سنوات من العطف عليه وعلى أولاده وعلى زوجته ، اتصل برحيم وقال له :

- إن لم تنفذ في الغد ما اتفقنا عليه فسأضطر بتوكيل المهمة لغيرك لتنفيذ ها .

رد عليه رحيم يتعلل له :

- إنها أثقل مهمة وكلت لي واعذرني لأني لن أستطيع تنفيذها .

وزاد يقول :

- وإذا أردت استرداد مالك في أي وقت ستجده مصونًا لم تمسسه يد .

ورمى إليه بمعلومة لعله يفهم من خلالها أن الوقت لن يسعفه لإيجاد الشخص المناسب لتنفيذ ما تصبو إليه نفسه من أن مؤتمر الصلح سيقام في الغد وسيحمل عسقلاني كفنه بين يديه ، وهو ونصيبه ، يا إما يذبح وإما ذبح الشاه النائمة بجواره .

ثارت ثائرة منصور وتخطت الحدود وود تحطيم الأبواب والشبابيك والحوائط ولو لزم الأمر هدم العمارة التي توجد فيها الشقة على سكانها لتبرد ناره وبعد كل ذلك فلن تهدأ .

تذكر منصبه وما يمكن أن يفعله من تكذيب لكل ما قالته ، واتصل بالجريدة آمرًا المسئول عن النشر بكتابة ما سيمليه عليه ونشره في صدر الصفحة الأولى بالبنط العريض ، وأخذ يمليه ما سينشر:

« الإعلامية جيهان كاذبة ؛ إنها تدعي ذلك لاستعطاف الرأي العام وأخذه في صفها ضد زوجها الذي حاولت إقناعه بأن ما تحمله بين إحشائها هو من صلبه ، تتصنع أو ناسية أنه عقيم ... عقيم ... عقيم « .

استفزته تلك الكلمة الأخيرة والصادرة من فمه أثناء لحظة انفعاله ، فلم يجد سبيلًا من تهشيم الهاتف بدفعة قوية من يده تجاه الحائط .

(٣١)

ظن مصطفى عندما رأى باب الحبس يفتح على مصراعيه ، وصاحبه علاء يدلف إلى داخله يتلفت يمنة ويسرة ، وأنه ما جاء إنما يبحث عنه ليطمئن عليه ، فنهض من مكانه واحتضنه قائلًا له :

- تكلف نفسك كل هذا العناء يا صاحبي، كان من الأولى عليك الانتظار حتى الصباح ، أم أن من سعيت إليه ليجعلك تزورني أخبرك أن هذا أنسب وقت لنكون فيه معًا نتكلم على راحتنا ، اطمئن يا علاء وحط بطيخة صيفي في بطنك ، لقد اعترفت وبصمت بأصابعي العشرة بقتلي لمنيرة وليس من المجدي أن تقنعني بتغيير أقوالي ، باكر سأعرض على النيابة وسأضطر لقول الحقيقة مجددًا ولا شيء غير الحقيقة .

ولما وجده علاء يتكلم بدون توقف كما عهده ، ولم تؤثر فيه الجريمة التي ارتكبها ألجمه عندما قاطعه قائلًا :

- شربات قتلت جوزها الثري .

وكما أراد ، صَمَتَ مصطفى الذي لم يجد غير أن يمدّ جسده أرضًا ويغمض عينيه ، ولسان حاله يقول لعلاء : يلا قوم امشي من هنا يا ريتك ما أطلعتني على هذا الخبر الذي زلزل كياني .

ساعات مرت خلال الليل ظنها مصطفى عند نهوضه من نومه كأنها دقائق معدودات ، وحسبها علاء كأنها الدهر ، كان الفارق بين الصاحبين شاسعًا من جهة الحالة النفسية ، علاء كما هو لم تتغير حالته السيئة وإن كانت في ازديادها ، أما مصطفى فهو من النوع سريع النسيان وكأن شيئًا لم يحدث أو كأنه لم يسمع شيئًا من علاء ، تناسى أمر شربات لقتلها زوجها بنفس الدرجة التي تناسى بها سريعًا أمر قتله لمنيرة ، نهض يفرك عينيه متعجبًا من نوم علاء بجواره قائلًا له - وهو يهزه هزًّا-:

- علاء ؛ علاء يا صاحبي إيه يا ابني إنت كسلت تروّح ليلة امبارح عندما جئت لزيارتي أم أنك أحببت السجن فوددت البقاء بداخله كحب استطلاع .

نهض علاء وقال له :

- لا يا صاحبي شكلي سأظل هنا إلى الأبد أُرافقك خارجيًّا وداخليًّا ، هذا إن لم يفرق بيننا حكم الإعدام الذي ينتظر كل منا على فعلته .
- لا دا كلام كبير قوي وكله فوازير ، فهمني يا صاحبي وبشويش عليّ ، ما انت عارف إن فهمي على أدِّي .
- شوف يا سيدي .

وأخذ يحكي له حكايته التي لم يصدقها مصطفى المستمر في نوبة من هز الرأس يمينًا وشمالًا قائلًا له :

- والله ما أنا مصدق ولا كلمة مما قُلتها .

دقائق ونودي على علاء الذي وقف أمام مأمور القسم ، واعترف له بكل شيء ، فما كان من المأمور إلا أن كلف أحد الضباط بالذهاب فورًا إلى مسكن جيهان وعدم المجيء إلا وهي برفقته ، وطيلة طريق عودة الضابط برفقتها تعجب من

تصرفاتها وهي ماسكة بتليفونها ترنّ على زوجها فتجده مغلقًا ، فتعاود الكرة ولم يسلم تليفون مكتبه كذلك من هذه المحاولات ، وكل مرة تجد الردّ الوحيد من مدير مكتبه بأنه لم يأتِ بعد .

***

مرت لحظات عصيبة على جيهان وهي جالسة في مكتب مأمور القسم تنتظر رؤية من دمر حياتها وقلبها رأسًا على عقب ، وأثناء ذلك كان علاء يتقدم ببطء برفقة الضابط المكلف بالإتيان به من الحبس غير آبه من ردة فعل جيهان ، فكل ما يستطيع فعله هو التأسف لها والإقرار بالندم على ما فعله بها وهذا ما فعله ، كان متصورًا نهوض جيهان من مكانها تجاهه تنقضّ عليه لتنهشه بأظافرها كما يرى في الأفلام والمسلسلات ، لكنه وجدها قوية شامخة ، رأسها لا يزال مكانه يأبى الانكفاء أرضًا وهي تقول له :

- حرام عليك لماذا اخترتني أنا بالذات ؟ ألم تكن تعرفني وأنت مقدم على فعلتك الدنيئة هذه .

وإذا بخبط على الباب من أحد الضباط بالخارج يقطع كلامها ؛ إذ سمعته يقول للمأمور :

- رجال الصحافة والإعلام يقفون بالخارج يملئون الشارع والطرقات المؤدية إلى هنا .

في هذه اللحظة أحست جيهان بالرعب لأول مرة من هذه المهنة التي تعمل بها منذ سنوات طويلة ، أحست أن جسدها سيغتصب مرة أخرى إن خرجت إليهم ووقفت أمام كاميراتهم ينهشونها من خلال الصور الكثيرة التي سيتفننّون حتمًا في أخذها لها ، وحتمًا هناك جالسون في المقرات الصحفية المحررين المنتظرين

على أحرّ من الجمر مجيء هذه الصور على مكاتبهم ليبنون ويؤلفون ألف حكاية وحكاية عن كل صورة أخذت لهيئتها ، فقالت للمأمور وهي تتودد إليه :

- لو سمحت سيادتك سأضطر للانتظار هنا حتى يذهبوا بعيدًا .

فردَّ عليها المأمور :

- أنت تعرفين أصحاب مهنتك ، لن يذهبوا ولو بعد عشر سنوات من الآن.

وإذ به يقول لها :

- عندي فكرة سأعمل على تنفيذها من الآن .

وأشار بيده لعلاء :

أما زلت مصمِّمًا على اعترافك يا علاء بأنك الفاعل ؟

رد علاء :

- أنا الفاعل ولن أتراجع عما اعترفت به .

أمر مأمور القسم الضابط الواقف أمامه بعمل المحضر اللازم وتحويل علاء للنيابة فورًا ، وحوَّل بصره ناحية جيهان وقال لها :

- ستضطرين للانتظار في مكتبي إلى أن ينسحب كل زملائك وراء المتهم إلى النيابة .

شكرت جيهان المأمور على نجاح حيلته وتخليصها من آلات التصوير وعدساتها التي حتمًا لم تكن لتتركها في حالها ؛ نظرًا لاضطرار الكثيرين من زملاء مهنتها مرافقة علاء وهو خارج من باب القسم إلى مقر النيابة .

لم يكن مصطفى يتصور أن الجرم الذي ارتكبه علاء سيفوق ما ارتكبه لما رأى المصورين يهرولون وراءه لالتقاط الصور له ، وستجعله محط أنظار الجميع بين ليلة وضحاها ، وقال له :

- حسبت نفسي أنقذتك من شر منيرة لأجدك تقع في شر أكبر، ربنا معاك ومعايا .

كذلك لم يكن مصطفى يصدق نفسه وهو يرى شربات مرة أخرى ، بل ويجلس بجوارها ، جسداهما يتلامسان ، شفاههما على وشك الاقتراب لحد الالتحام ببعضهما ، فلم يكن بوسعهما فعل شيء أمام هذا الجيش الفياض من المشاعر سوى التشابك بالأيدي ، غير آبهين لنظرات من حولهما من الأهل والأقارب الذين جاءوا والدموع تسبقهما ، فلم يعد يعنيهما أمر عبدالرؤوف الواقف أمامهما والذي صال وجال وتجبَّر وعاند وكابر ليصل الأمر به إلى حد الجلوس متكومًا كالخرقة البالية لا يقوى على فعل أي شيء جراء الصدمة التي كانت أقوى من كل ما كان يوصف به ، يرى سهام شربات ومصطفى النارية مصوبة إليه يقولان له : «أنت السبب ، يا ريتك تختفي من أمام أعيننا كي ننعم بالراحة والهدوء في هذه اللحظات التي لن نرى بعدها بعضنا مرة أخرى « متمنين كسر حاجز الصمت الذي يشعران أنه يلفّ المكان من حولهما من خلال العالم الآخر الذي هيئا نفسيهما للدخول وحدهما إلى داخله ، عالم لا يعرفه إلا من أحب بصدق وذاق من خلال الوصول إلى الطرف الذي يحبه حروبًا وآلامًا وانتكاسات كثيرة كانت تعجل بهزمه .

وقد فُعل بالحبيبين الجالسين متجاورين مستسلمين من أول جولة ، وقد نالا عقابهما بسبب عدم إعلانهما التحدِّي بالدخول إلى الجولة الثانية من خلال حرب لا هوادة فيها بين كرٍّ وفرٍّ تستخدم فيها جميع الأسلحة حتى يكلل حبهما

بالانتصار، فالجولة الثالثة والحاسمة والتي كانت حتمًا ستقف في صفهما تعلنهما زوجين، إنهما الآن خارج حدود الدنيا بين الحياة والموت ليس بمقدورهما تقديم طلب بالرجوع لبداية الجولة الأولى عندما التقت عيناهما فتدافعت سهام الحب إلى قلبيهما ، ووحده القاضي الموضوعة أمامه جميع القوانين فقط ، هو من يقرر بحكمه عليهما بأن يعودا للبداية أو يجبرهما على الدخول مباشرة للجولة الثانية أم أنه سينبئهم بنهاية الجولات الثلاث من خلال حكم قاسٍ يعلمون أنه لا محالة سيصدره عليهم واضعًا حدًّا لحياتهما بالإعدام شنقًا ، وأن تلك الجلسات التي سيحضرانها إنما هي مجرد تحصيل حاصل ليخرج الشرّ مرفوع الرأس يعلن بكل ثقة كسبه جولة من الجولات الكثيرة التي أقصى فيها الجانب المسمى بالخير بالضربة القاضية .

ولم يعد مصطفى وشربات من عالمهما الآخر إلى حالة الغوغائية التي يتصف بها المكان من حولهما سوى ازدياد تلك الغوغائية نفسها التي لازمها الهرج والمرج بسبب الاندفاع الشديد للصحفيين وكاميرات القنوات التليفزيونية المتعددة التي تركت أغلب الأحداث على الساحة منتظرين بشغف استقبال جيهان المضطرة للمجيء ملبيةً للنداء الموجه إليها من رئيس النيابة لأخذ أقوالها ومواجهتها بعلاء المعترف بجرمه دون أية ضغوط أو تعذيب .

وللمرة الثانية علاء واقفٌ أمامها يصرّ على اعترافه بجرمه وأتبعه باعتذار لها لما ارتكبه في حقها ، فما كان من جيهان إلا أن ردت عليه وحالة من البرود تسيطر على مشاعرها ؛ لما وجدت في شخصه شابًّا متعلمًا مخارج الألفاظ لديه سليمة لبقًا مقنعًا إلى حد كبير، يجعل من يقف أمامه يكنّ له كل الاحترام .

تغلبت على مشاعرها المليئة بالغضب تجاهه وطردت كل ما كانت تكنه من عداء لشخصه المغتصب لجسدها دون أن تشعر أو تحس إلا بعد فوات الأوان ،

فقط هي كلماتها جعلتها تخرج من فمها كالحراب المسمومة تجرحه كما جرحها فتجعله يموت موتًا بطيئًا ، يتعذب أولًا كما تعذبت ، ويتألم كما تألمت لترد عليه:

- صدقني لن أقبل أسفك حتى لو ظللت ترجوني إلى يوم الدين ، فكل أملي الآن هو رؤيتك وأنت معلق وحبل المشنقة حول رقبتك .

وبسرعة البديهة أحسَّ رئيس النيابة أن بقاء جيهان أكثر من ذلك سيولد لديها حالة من الانفعال لم تصل لديها إلى ذروتها بعد ، فشكرها على مجيئها وأمرها بوضع إمضاءتها آخر ورقة المَحضر الذي كُتب فيه كل شيء من اعترافات علاء .

لتخرج جيهان مرفوعة الرأس شامخة ، غير عابئة بنظرات من حولها ، فقط لا يعنيها سوى شيء واحد تريد تحقيقه ؛ ألا وهو مصالحة زوجها ، فلم يكن يعنيها أي شيء آخر ، حتى عندما وقفت مضطرة أمام زملاء مهنتها طردت بكل قوة كل ما كانت تخشاه من صور كاميراتهم ، وقالت لهم :

- كل أسئلتكم التي تودون إجابتي عليها سأوجزها لكم في جملة واحدة ألا وهي : « زوجي العزيز الذي ما زلتُ أؤكد له من خلال كاميراتكم وأقلامكم أني ليس لي يد فيما حدث ، ودليل صدقي موجود بالداخل عند رئيس النيابة».

أرادت إيصال هذه الرسالة لمنصور الذي تحاول جاهدة العثور عليه بعد إغلاقه لتليفونه واختفائه المفاجئ ، لا تعلم بعد أنه ما زال مصممًا على النيل من عسقلاني الذي اتهمه ظلمًا وبهتانًا من أنه الشخص الوحيد الذي تجرَّأ وأقدم على ما فعله بها بل إنه زاد في تشكيكه واتهاماته بأن ما فعله إنما كان بمساعدة منها رغبةً في الحمل والولادة اللذين تحلم بهما مثل سائر كل النساء .

كان الوقت باكرًا جدًّا عندما وصل منصور بسيارته لجبل المطاريد ، يظن أنه لن يجد أحدًا في استقباله كالمرة السابقة لكنه احتمى بسيارته بمجرد نزوله منها ؛ خوفًا من أن تناله رصاصة غادرة من البنادق المنهالة طلقاتها صوبه بشكل هيستيري ، فأتاه إحساس بأنه هالك لا محالة ، متصورًا أن تحالفًا تم بين المطاريد وعسقلاني للخلاص منه بمجرد تفكيره في المجيء إلى مخبئهم مرة أخرى ، لكن صوت رحيم رنَّ في أُذنه بعد انقطاع الهجوم عليه يطمئنه بأن رجاله شربوا حتى الثمالة فزاغت أبصارهم وتخيلوه رجل شرطة أتى للقبض عليهم ، نحاهم جانبًا بإشارة من يده واستقبل منصور مرحبًا به ومتأسفًا له عما بدر منهم .

- شكلك بيقول إنك مصمم على أن ننفذ مهمتك التي أعلنَّا عدم رغبتنا القيام بها .
- نص كلامك صح ونصه الآخر ليس فيه شيء من الدقة .
- نوّرني يا سعادة البيه الصحفي الكبير.
- أنا مصمم فعلًا على قتل عسقلاني لكن أنا بنفسي من سيقتله ودورك فقط أنت ورجالك العمل على مساعدتي من خلال استعارتي لبعض ملابسك بجانب قطعة سلاح وإرسال رجل أو اثنين معي لتعريفي بمكان عسقلاني .
- ما دمت ستنفذ بنفسك فلا مانع عندي في مساعدتك ، وكل طلباتك أوامر.

لم يضيع منصور وقتًا، استقلَّ سيارته برفقته رجلين من المطاريد بعد نزعه لوحات أرقامها وإغمار هيكل السيارة الخارجي بالطين ، مبررًا ذلك بأن الشرطة ستطوّق المكان ، وحتمًا ستكون مطاردة مثيرة بينه وبينهم بعد تنفيذه لمهمته ، وبمجرد وصوله للبلابيش ترك السيارة جانبًا بجوار الزراعات عند مدخل القرية ، وشق طريقه خلف الرجلين اللذين يبحثان عن أنسب مكان ينفذ منصور مهمته منه.

اتخذت جيهان دار الرعاية ملاذًا آمنًا لها هربًا من زملاء مهنتها الذين لم يكونوا ليتركوها ترحل بكل سهولة من أمامهم ، فقد صمموا على ملازمتها في كل مكان تذهب إليه بكاميراتهم وميكروفاناتهم ، لذلك لم يكن أمامها أمام مطاردتهم لها سوى اضطرارها لتكملة بقية ساعات اليوم بجوار والدتها ، وهناك داخل الدار وبمجرد وصولها لاحظت الفتور والاستياء في وجوه العاملين تجاهها ، فتحاملت على نفسها ، ونادت كلًّا منهم بأسمائهم تسلم عليهم ، فلم تجد منهم ردًّا غير قول كلمة « أهلًا « بفتور واضح ، فزادها ذلك ألمًا ، لكنها تمالكت وصممت على مواجهتهم جميعًا لإيضاح ما يخفى عليهم من حقائق ، اتجهت لحجرة سندس مندفعة إلى داخلها بدون استئذان ، فما كان من سندس إلا أن اغتاظت عندما تأكدت من شخصيتها ، وبدا ذلك واضحًا من خلال تعابير وجهها ، وفي كل كلمة تخرج من فمها وهي تقول:

- أليس من الذوق يا سيادة الإعلامية الكبيرة أن تستأذني أولًا لأقرر إذا كان وقتي يسمح لمقابلتك أم لا ؟!!

وشوحت بيدها تجاه الباب وهي تكمل :

- اتفضلي اخر.....

قاطعتها جيهان :

- اوعي تكملي لاحسن وديني أنا في حالة لا تسمح لي بالدخول معك في معركة أقل شيء سأفعله هو إلقاؤك من الشباك .

حاولت سندس التكلم فقالت لها جيهان :

- دعيني أكمل كلامي ولا تُتهتهي أو تمأمأي مثل المعيز ما سأقوله لا بد من تنفيده فورًا ؛ سمعاني ؟!!

- حاضر... حاضر.

- دلوقتي وحالًا وفي التوّواللحظة اجمعي كل العاملين في الدارهنا يلا بسرعة وإلا وديني سأرتكب جناية ، ولعلمك بمجرد خروجي من هنا سأسعى جاهدة لإغلاق الداروانت عارفاني كويس لما أقول هاعمل يبقى هاعمل سمعاني؟!!
- سمعاكِ .
- يلا قومي فزّي ونفذي اللي قولتلك عليه .

وبمجرد خروج سندس من الحجرة جلست جيهان مكانها ، وبحثت في أدراج المكتب عن ورقة وقلم وأخذت تكتب وتكتب حتى امتلأت الورقة ، فتوقفت لأجل ذلك ووضعت ساقًا فوق الأخرى منتظرة دخول سندس عليها ، ووراءها كل العاملين كما أمرتها ، خمس دقائق هي المدة التي تحدثت فيها جيهان إليهم أوضحت لهم كل شيء يظنونه خافيًا عليهم ، كانت المرارة ممزوجة بكل كلمة تخرج من فمها وقبل سماحها لهم بالذهاب كل إلى عمله قالت لهم :

- أنتم تعرفونني جيدًا ، عِشرة بيني وبينكم ، كبيركم وكبيرتكم صغيركم وصغيرتكم أومن هم أوهي من تماثلني في العمر، بالله عليكم أعهدتم عليّ الكذب من قبل؟

فأومأ أغلبهم ولسان حالهم يقول « لا « ، وبعد انصرافهم خرجت وراءهم ونبهت سندس بأنها تركت ورقة مكتوبة بخط يدها على مكتبها أحسن لها أن تمزقها لأنها تحتوي كثيرًا من التجاوزات التي لو عرف بها المسئولون لأغلقوا الدارعلى الفور ووضعوا في يديها الكلابشات وجرّوها جرًّا إلى السجن ، جلست أمام والدتها وشكت لها تغيرقسمات الوجوه التي لم تبخل عليهم يومًا بشيء ، فقالت لها والدتها :

- ما دمتِ لم تفعلي خطأً فلا يضرنك شيء مما يرمونك به إثمًا وبهتانًا .
- دبريني يا ماما بعد طلاق منصور لي ظهرت الحقيقة ، أنت تعلمين أني أحبه

رغم ظنه السيئ بي ، وأظنه علم بها الآن ، فهل أتغاضى عما فعله واروح له واقول له سامحتك واترجاه ليعيدني إلى عصمته ؟ أم أنتظر حتى يأتي إليّ راكعًا ويقول لي : اغفري لي إساءتي إليك .

- لا هذا ولا ذاك يا بنتي ، الأحق بك والد الطفل الذي تحملينه الآن بين أحشائك .
- إنت بتقولي إيه يا ماما ! ... دا إنسان خسيس ... خسيس يا ماما .
- الله أعلم يا بنتي ... الله أعلم .

(٣٢)

استعد عسقلاني لحمل كفنه لمسافة الـ١٥٠ متر، خلع نعليه وأصبح حافي القدمين، ولم ينس أن تكون ملابسه بيضاء مثلما المتبع في حالات الصلح، اطمأن من أن أفراد لجنة الصلح على الجانبين واقفين متأهبين لدخوله السرادق الذي يوجد به عائلات القرية وعدد من رؤساء الأجهزة التنفيذية وبعض المسئولين، يترقب وصول صاحب الدم « والد الفتاة « ليقول له بعد وقوفه أمامه : « أقدم كفني لك « ، فيرد عليه صاحب الدم : « عفوتُ عنك « ، وتتم المصافحة بينهم على إنهاء الخصومة بقسم اليمين على التسامح والتآلف وعدم العودة مرة أخرى لمثل هذا العمل الذي يفرِّق ولا يجمع ، وسط تكبيرات الحاضرين ، وتعانق عسقلاني بخصمه لتنتهي بذلك الخصومة ، وقد حانت اللحظة المرتقبة ، خرج مطمئنًا فور سماعه نبأ مجيء صاحب الدم يتبعه أفراد كثيرون من عائلته ، رأى قيادات أمنية مكلفة بالحضور من قبل مديرية الأمن ورجال شرطة يلفّون المكان متأهبين للتصدي لأي تجاوز من كلا الجانبين ، سواء من أقاربه أو أقارب الخصم ، ناصرة واقفة بجوارنساء الإخوة الأربعة جالسة يحيطها أولادها الستة واضعة يدها على قلبها ، لسانها لا يذكر سوى « استريا ربّ « مع التكرار المستمر ، من حين لحين تطل برأسها ناحية الكبش الذي اختير بعناية للتمدد بجوار زوجها ، تتأكد إن كان ما يزال واقفًا بمكانه أم أن أحدًا من أصحاب الدم ذهب

به بعيدًا عن هذا المشهد الذي يترقب حدوثه الجميع ، عسقلاني قارب على الوصول لنقطة النهاية يتفحص بأطراف عينيه الحاضرين يود مصافحتهم فردًا فردًا ، ومعانقة معظمهم لما بذلوه من جهد في السعي إلى هذا الصلح ، منصور في المكان المناسب الذي اختير بعناية فائقة من قبل مرافقيه عليه فقط التصويب وبدقة إلى قلب عسقلاني الذي يراه يقترب أمامه ، بضع خطوات وينتهي هذا المشهد كما يتمناه الجميع ، إلا منصور المنتظر بشغف كلمة : «اضرب» ، قلبه يدق بشدة مع كل خطوة تطؤها قدما عسقلاني ، سبع خطوات .. ست خمس .. أربع .. ثلاث .. اثنان .. واحد .. اضرب ، سمعتها أذناه فنفذ على الفور وانطلقت الرصاصة إلى صدر عسقلاني مع تقدمه للخطوة الأخيرة فهوى ليسقط بجوار الكبش الذي ما يزال واقفًا ينتظر أي الواقفين بجواره يطرحه أرضًا ، وهل ستنحر رقبته أم رقبة عسقلاني.

تمنى منصور الانتظار حتى يتأكد من موت عسقلاني لكن الرجلين لم يمهلاه الانتظار للتأكد من ذلك ، شدَّاه شدًّا من جلبابه ليكون في مقدمتهما ودفعاه دفعًا عندما أحسا أنه يعمل على تثبيت قدميه مكانهما لا يرغب في تحريكهما والسير معهما :

- بسرعة يا منصور بيه تحرك لو عثروا علينا وسط هذه الزراعات التي ستفتش تفتيشًا ذاتيًا خلال لحظات بل واقتلاع زراعاتها من جذورها وتسويتها أرضًا ستقتلع رؤوسنا من مكانها هيا .

فانطلق منصور يعدو مثلهما ، انطلق بسيارته لا يأبه لمقتل طائر أو حيوان تحت عجلاتها وعند أقرب مكان أحسَّ أنه بعيد عن الشرطة ومطارداتها أوقف السيارة ونزل يساعد الرجلين في تنظيفها من الوحل المغطي جوانبها وسطحها ، ولم ينس إعادة لوحتيها المعدنتين إلى مكانهما، وأوصل الرجلين مودِّعًا رحيم ورجاله، غير

قابل لفكرة قضائه الليل في مغارتهم حتى الصباح ، فقد كان لديه هدف يأمل في تحقيقه نفذ منه تسعون بالمائة ولم يبق إلا عشرة بالمائة ، عليه الإسراع قبل حلول الليل الذي لم يتبق منه إلا القليل لتحقيق تلك العشرة بالمائة كي يستقبل اليوم الجديد دون هموم جاثمة فوق صدره ، سار بسيارته يقصد في وجهته مسكنه القديم فيلا جيهان، وتصور أنه بمد يده للمزلاج سيفتح الباب بسهولة لكن يده لامست قفلًا كبيرًا معلقًا فنادى بأعلى صوته كعادته في السابق عندما كان يعود في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل : « يا عسقلاني»، ضرب جبهته ببطن يده وقال : «عسقلاني وسنينه السودة « لفَّتْه الحيرة وهو يحاول طرد فكرة أنه غريب عن المكان ، وضع يده في جيوبه يبحث عن تليفونه ليهاتف جيهان ويعلمها أنه يقف خارجًا جاء لإعادة المياه لمجاريها يردّها إلى عصمته بعد قتله من اعتدى عليها ، لكنه تذكر أنه هشمه في مطلع اليوم ، فما كان منه إلا أن استسلم لفكرة أنه أصبح غريبًا عن هذا المكان الذي شهد أحلى أيام حياته مع جيهان التي لم يجد غير المناداة عليها بأعلى صوته : «يا جيهان يا إعلامية يا كبيرة أنا منصور ردّي على زوجك حبيبك أتيت لمصالحتك» لمح باب الحجرة التي كان عسقلاني يسكنها هو وأولاوده وزوجته في الماضي يخرج منها رجل في نفس هيئة عسقلاني ويشبهه إلى حد كبير ويقول بصوت يغلب عليه النعاس :

- مين ... مين عايز ست جيهان ؟

تقهقر منصور للخلف خطوتين أو ثلاث وهو يقول :

- أنا ... أنا .
- إنت مين انت ؟
- أنا زوج الست هانم .
- مين الست هانم، قصدك الست جيهان هانم، بس الست هانم مطلقة .

- يبقى أنا طليقها ، تسمح تروح تصحيها وتقول لها : البيه منصور أمام الباب ينتظر سماحك له بالدخول .
- حاضر... حاضر.
- تسمح يا ... إنت ... يا بواب .
- نعم يا سعادة البيه .
- هو انت تقرب لعسقلاني .
- عسقلاني مين يا بيه ؟
- ها ... لا لا روح ... يلا روح صحيها وزي ما فهمتك قولها منصور بيه .

استيقظت جيهان على صوت البوَّاب فلبَّت نداءه بعد ارتدائها ما يستر جسدها وقالت له :

- في حاجة يا عم رشوان ؟
- في واحد بيه بيقول اسمه منصور منتظر بالخارج ويريد مقابلتك ضروري .
- منصور ... افتحله الباب وخلّيه يدخل يا عم رشوان .

فرحت جيهان بادئ الأمر لمجيئه ، لكن عندما علمت منه بأمر قتله لعسقلاني كاد يغشى عليها ، وقالت له وهي تبكي :

- حرام عليك عسقلاني ليس له ذنب ، لقد سلم الجاني نفسه للعدالة واعترف بجريمته وهو الآن محبوس في قسم الشرطة .

صُدم منصور لقولها ، وذهب في نوبة من النفي عن طريق هزّرأسه وقال :

- لا مش صحيح أنت تكذبين عليّ .
- إذا لم تصدقني فهاك الجورنال الذي ترأس مجلس إدارته في صدر صفحته الأولى صورة الشاب ومانشيت عريض فيما معناه الشاب علاء يعترف

باغتصابه الإعلامية جيهان أثناء نومها ، حرام عليك حرام عليك ذنبهم إيه أطفال عسقلاني الستة وزجته الغلبانة ناصرة .

وألقت في وجهه بالجورنال ، أمسك منصور به وجلس يقرأ المانشيت بعناية ، ويتفحص صورة علاء مطأطأ الرأس لا يقوى على رفعها في مواجهة نظرات جيهان التي تحاصره ، استجمع قواه ، وقال بصوت مبحوح :

- جيهان ...
- يا نعم .

- جئت لإعلامك بأني أودّ إرجاعك لعصمتي مرة أخرى .

- بص يا منصور ؛ بالبلدي كده : « دا لما تشوف حلقة ودنك « ، لا أمان لك بعد قتلك لعسقلاني .

- أي زوج في مثل موقفي سيفعل ما فعلته ، ثم إن ما تحملينه بين أحشائك هو الآن من حقي، اسمي سيسبق اسمه في شهادة الميلاد سنربيه سويًّا .

- أنت بتحلم يا منصور ، وكما قالت والدتي : الولد لأبيه .

- يعني إيه يا جيهان ؟

- ما بين أحشائي سيكتب باسم والده يا منصور ، أنت عقيم ... عارف يعني إيه عقيم ، لم يعد يهمني منصور بتاع زمان الذي أحببته وكنت أكنّ له كل الاحترام ، أما الآن فمنصور مات ، منصور خرج من حياتي غير مأسوف عليه بعدما قتل رجل بريء ليس له ذنب ، الله يرحمك يا عسقلاني ، يعينك ويصبر قلبك يا ناصرة .

- شوفي يا جيهان .

- شوف انت يا منصور ، لن يجدي معي التهديد الآن ، عودتي لعصمتك تنسى ، ولو صممت على فعل ذلك سأضطر للذهاب للنيابة باكر وأبلغ عنك

بقتلك لعسقلاني ، ودلوقتي لم يعد لديّ وقت للرغي فيه معاك ، اقفل الباب وراك وانت خارج يا منصور .... بيه .

بعد إغلاقها للباب خلفه أجهشت بالبكاء لا تصدق أنه قتل عسقلاني ، وأثناء حيرتها بين التبليغ عنه وبين فكرة رجوعها إلى عصمته ، سمعت صوت البواب يناديها باسمها ، فخرجت إليه واجمة :

- في إيه يا عم رشوان ؟ مائة مرة أفهمك في جرس قدَّامك أهوه ، لما تعوزني في حاجة دوس عليه بدل صوتك المزعج ده .
- حاضريا ست هانم ، أوعدك آخر مرة .
- قولي عاوز إيه مني دلوقتي وخلصني .
- البيه منصور بيستسمحك في الدخول .
- وعاوز إيه تاني ؟
- بيقول : إن في حاجة مهمة تخصه هيخش يجيبها ويمشي طوالي .
- امشي يا عم رشوان قوله : لوله حاجة يروح ياخدها عن طريق القسم .

أغلقت الباب في وجه رشوان بكل ما يملؤها من غضب ، دخلت حجرتها مقبلة على سرير نومها لرمي جسدها عليه ، فوجدت قطها الأليف يحتل منتصفه فصرخت فيه وهي تشده من فروته وتلقيه أرضًا ، وهي تقول « إنت السبب في كل اللي جرالي ، إنت السبب ، كان لازم يكون مكانك كلب ياكل مصارين ابن الكلب اللي اغتصبني وأنا نايمة» .

بكت حتى جفت دموعها ولم تجد غير النوم لينسيها همومها وأوجاعها ، تمددت تحاول إغماض عينيها ، سمعت مواء القط المتحول لأنين لا يصدره إلا من أصابه مكروه ، أشفقت عليه ، وبدأت في البحث عنه خوفًا من فقده هو الآخر: « إنت الوحيد اللي فاضلّي بعد ذهاب كل الأحبة « قالت ذلك وهي تحاول جذبه

من أسفل السرير ، رأته جالسًا القرفصاء لا يتزحزح من مكانه ، خائفًا من حدوث مكروه له في لحظة غضبها هذه ، وأمام تعنته الواضح وعدم سماعه لندائها بالخروج اضطرت جيهان للوصول إليه ، جلست متكومة بجواره تتأسف له ، وعندما حانت لحظة خروجهما معًا لمحت طرفًا مدببًا لظرف ورقي أسفل مرتبة السرير ، سحبته برفق وخرجت به تاركة القط مكانه ، لم تنتظر حتى وصولها لأعلى السرير ، جلست مكانها بجواره تقلب الظرف تبحث عن كلمات على أحد جوانبه ، ولم تنتظر كثيرًا فتحته تقرأ ما بين السطور ، وبينما هي تقرأ تذكرت خبر- الآنسة حنفي في الصين - وتوابعه من الإحساس الغريب الذي تملَّكها في ذلك الوقت ، انهمرت دموعها وقالت : لم يكن إحساسي كاذبًا أبدًا ، كانت نتيجة التحاليل صادمة لها وكذلك محتوى التقرير المرافق الذي قرأته في انزعاج واضح تشمله رعشة قوية ، جعلتها تنتفض من مكانها وكأن حشرة سامة لدغتها ، فجعلتها تترنح يمنة ويسرة على وشك الموت ، تمالكت وتحكمت في قواها الخائرة أمام عينيها ، وأعادت قراءة التقرير مرة أخرى لعلها أخطأت في قراءة كلمات اللغة الأجنبية التي تجيد التحدث بها إجادة تامة ، قامت هاربة إلى الحمام كالمرة السابقة لاستفراغ ما في معدتها من طعام ، لكنها عندما عزمت النية على فعل ذلك تذكرت الجنين الذي تحمله بين أحشائها وتحس به يتحرك يركلها ركلًا في لحظاتها المُرة هذه ، فتماسكت وقالت لنفسها : لا ؛ لن أدمر نفسي بعد الآن ، كان عليّ تصديق إحساسي الذي لا يكذب عليّ منذ البداية ، فكل شيء يهون في سبيل الحفاظ على ما أحمله بين أحشائي .

(٣٣)

قبل جلسة النطق بالحكم على علاء بأيام زارته جيهان في محبسه ، وعرضت عليه فكرة زواجها منه ليس حبًّا في شخصه كما قالت له ، لكن لأنها على وشك الولادة ، وهي لا تريد لابنها القادم الدخول في متاهات وتعقيدات الروتين هي في غنى عنها ، فبمجرد استصدار شهادة ميلاد للمولود سينفصلا على الفور ، ومقابل كل ذلك ستتنازل عن القضية ، وكل منهما يكمل حياته كما يريد ، واشترطت عليه أيضًا عدم الظهور في حياتها مهما كانت الظروف والأحداث، انهمرت الدموع من عيني علاء وهو يقول لها :

- وددت إخراجك سكينًا من حقيبتك وطعني بها ولا تتركيني إلا جثة هامدة ، أنا لا أستحق كل هذا منك ، لن أستطيع رفع عيني في مواجهة والداي وهما يسألاني لمَ فعلت ذلك ونحن ربيناك على الصدق والأمانة وعدم معصية خالقك .
- إن الله غفور رحيم ، ويقول في كتابه الحكيم « فمَنْ عَفَا وأصْلَحَ فَأَجْرُهُ على اللهِ».
- صدق الله العظيم ... لكِ ما شئتِ .

***

ويومَ جلسة النطق بالحكم أتي بعلاء ومصطفى من محبسهما ، وكذلك شربات ، وضع ثلاثتهم في القفص انتظارًا لحلول دورهما ؛ إذ لم يكن ذلك بالغريب أو بالعجيب على القضاة الجالسين فوق منصة الحكم ، أن يصدروا أحكامهم في

ثلاث قضايا هامة أثرت في الرأي العام الذي يتابع أحداثها بكل شغف ، وبالأخص قضية اغتصاب علاء لجيهان .

اكتظت قاعة المحاكمة بالإعلاميين والصحفيين وبعض المحامين ، هذا غير بعض أقارب مصطفى وشربات ، وكذلك والدا علاء الواقفين في آخر القاعة ، يكادان يريان علاء المتصنع هو الآخر عدم رؤيتهما ؛ لإحساسه بالذنب مما فعله بحقهما ، يود مناداتهما والتأسف لهما ، لكنه يعلم - ولا أحد غيره - أنه خارج إليهما خلال دقائق ينكفئ تحت قدميهما يقبلهما ، والدة مصطفى وإخوته البنات لم يجدا إحراجًا في دفع كل من يقف في طريق تقدمهم نحو القفص للوقوف أمام مصطفى والتحدث معه ببضع كلمات تشدّ من أزره ، لاحظ مصطفى تورم وجه أخته سامية بطريقة لم يعهدها من قبل فسألها :

- ما لك يا سامية ؟ مين اللي اتجرأ وضربك في وجهك ليجعله وارمًا هكذا ؟

لم يكن بمقدور سامية الكلام ، فقط رفعت ذراعيها كي تريه أنهما ملفوفين بجبيرتين من الجبس ، فاستاء مصطفى لذلك ، واستشاط غضبًا من ذلك وكشَّر عن أنيابه وهو يوجه نفس السؤال لوالدته :

- مين يا ماما اللي عمل فيها كده ؟
- جوزها يا بني ، البعيد إبراهيم .
- إنتِ بتتكلمي جدّ ، إبراهيم هو اللي عمل كده يا سامية ؟

هزت سامية رأسها ، تبعتها والدتها تقول :

- الخسيس الندل اتهجم عليها جوه شقتي وضربها قدام عيني ، وقال إيه طول الوقت من ساعة ما اتجوزها كان يخشى ضربها خوفًا منك ، ولاطمئنانه عدم خروجك من السجن توعدها بتلقينها مثل هذه العلقة كلما تعافت من سابقتها .

- يا ابن الكلب .. بس تصدّقي يا بت يا سامية والله إنت تستاهلي ، أنا طول عمري أقول إنتِ مش عاوزة غيرراجل حمش يمشّيكي على العجين متلخبطهوش ، اسمعي كلام جوزك يا بت ، دا إبراهيم واد غلبان وعيشي عشان خاطرولادك ، سامحيه يا سامية دا يا ما سامحك .

اقترب منه عبدالرؤوف ، فتوقف مصطفى عن الكلام ، ونظرله نظرات يكاد من خلالها يلتهمه لولا حديد القفص الذي يفصل بينهما ، فتقدمت شربات هي الأخرى من خلف مصطفى متجهمة الوجه وهي تقول :

- إنت عايزمني إيه تاني يا با مش كفاية اللي انت عملته فيّا ؟!!

أسكتها مصطفى بإشارة من يده قائلًا لها :

- كفاية عليكي كده يا شربات ، سيبيني اتكلم بدالك ، بقولك إيه يا عبدالرؤوف ؛ أنا وشربات اتفقنا على عقد قراننا بعد سماعنا للحكم اللي هيقوله القاضي كمان شوية ، ومهما كان ، سننتظربعضنا حتى خروجنا ، حُبّنا عمره ما هيموت ، إنت سامع يا عبدالرؤوف ؛ حبنا عمره ما هيموت ، ودلوقتي ما اقدرش اقولك غيرامشي من هنا ، ابعد اخرج برة ، إنسي إن ليك بنت اسمها شربات ، شربات مراتي من هنا ورايح يا راجل يا ناقص ، مراتي على سنة الله ورسوله.

لم يستطع عبدالرؤوف الكلام فالدموع سبقته وانهالت على خديه ، أعطاهم ظهره وخرج طواعية من القاعة .

***

نادي الحاجب : « محكمة « ، فوقف الجميع احترامًا لدخول القضاة ، وسمعه علاء ينادي باسمه إيذانًا ببدء محاميه ومحامي جيهان بالترافع ، كانت مفاجأة للجميع عندما قدم محامي جيهان تنازلًا موثَّقًا في الشهر العقاري من قبل

موكلته بالإضافة إلى عقد زواج جيهان من علاء ، لم يكن اهتمام علاء منصبًّا على ما سيقوله القاضي من نطقه ببرائته ، نظر ناحية والديه يبحث عن فرحة خاصمتهما منذ اعترافه بفعلته ، طلب القاضي الهدوء والتزام الصمت وإلا أمر بإخلاء القاعة من الحضور .

نادى الحاجب على رقم القضية التالية في الرول ، وكانت قضية قتل مصطفى لمنيرة ، ترافع محامي مصطفى يحاول تبرئته بادعاء أن ما أجبره على قتل منيرة إنما دفاعًا عن شرفه بإتيانها برجل يعاشرها معاشرة الأزواج في حضوره دون خشية منه ، وإذا به يطلب سماع شهادة الشاب وليد والأربع بنات ، فدخل وليد القاعة وتكلم بإسهاب وحكى كل ما دار بينه وبين منيرة ، ودخلت بعده البنات وحكين كذلك ما رأينه وما سمعنه من فم منيرة قبل تركهم الشقة وهي ماسكة برقبة مصطفى تريد قتله .

أخذ القاضي استراحة ، بعدها بدأ في نظر قضية شربات التي طلبت الدفاع عن نفسها بعد تأسفها للمحامي الذي كلفه والدها بالدفاع عنها ، لأكثر من نصف ساعة مرافعة تكلمت وقالت والحاضرون في القاعة يسمعون ويتألمون ، بعضهم ذرفت عيونهم ، ولولا أن القاضي في أعلى المنصة لبكى هو الآخر مثلهم ، دارى دموعه حتى لا يُقال إنه تأثر بكلامها وحكم بحكم هو في صالحها بالتأكيد ، حاول محامي المجني عليه تكذيبها ، لكن القاضي أمره بعدم مقاطعتها ، ظهر الحارس سالم من بين الحضور وأعلن عن نفسه للقاضي مطالبًا بتسجيل اسمه كشاهد إثبات على كل ما فُعل بشربات التي أغفلت أو تناست عن قوله ، رفع القاضي الجلسة للمداولة والنطق بالحكم في القضايا الثلاث .

جلس علاء داخل القفص القرفصاء متمنيًا الحكم عليه بالإعدام بدلًا من الحكم بالبراءة الذي سيسمع القاضي ينطق به بعد قليل ، بينما تشابكت يدا

مصطفى وشربات يدعوان بأن يكون القاضي رحيمًا في حكمه عليهما ، متشبثين بأمل البراءة لعلهما يبدآن حياة جديدة معًا ، متحابين متفاهمين بعيدًا عن عبدالرؤوف الذي أصبح لا ولاية له على شربات ، بعد إعلانها أمام الجميع في آخر مرافعتها بأنها ستضطر آسفة لتغيير اسمها من شربات عبدالرؤوف إلى شربات سالم فهي ابنة للرجل الحقيقي الذي ساعدها في الخلاص من العبودية والذل والهوان والله أعلم فلولاه ما رأت وجوه كل الحاضرين أمامها .

***

نادى الحاجب مرة أخرى : « محكمة « ، ودخل القاضي ثانية القاعة ، وجلس على منصة القضاء ؛ منصة العدل ، وأصدر حكمه : بإخلاء سبيل علاء ، وحكم على مصطفى بثلاث سنوات ، أما بالنسبة لشربات فكان حكمه صادمًا لمحامي وأهل المجني عليه زوجها ، وفرحة لجميع من في القاعة ، عندما قال :

- أما بالنسبة للمتهمة شربات ، ومن خلال شهادة سالم أمامنا ، وكذلك عمال الفندق من خلال تحقيقات النيابة لتقصي الحقيقة كاملة ، فقد حكمت المحكمة عليها بسنة مع إيقاف التنفيذ .

تعانق مصطفى وشربات التي قالت لمصطفى :

- هل يوجد لديك مانع في أن أنتظرك مدة سجنك بجوار والدتك أخدمها وأقوم على رعايتها ؟

فقال لها مصطفى :

- لا مانع عندي يا حبيبتي ، بشرط أن نعقد قراننا الآن كما اتفقنا حتى لا يكون عند أبوكِ أية مبررات لتزويجك مرة أخرى دون رضاك .

- دا كان زمان يا حبيبي ، إنت نسيت إن أنا تخطيت السن القانونية وبعد اللي عمله مبقاش له حكم عليّا .

***

أُطلق سراح علاء ليلًا عن طريق القسم ، كان الوقت كما يعهده قبل سجنه في الهجيع الأخيرمن الليل ، فلم يشأ إزعاج والديه وإقلاقهما في هذا الوقت ، خرج وقد ساقته قدماه إلى الكورنيش لا يقصد في سيره سوى تجاوز الأسدين ليقف في منتصف الكوبري ، ينظرلنفسه في صفحة المياه يعاتبها ويؤنبها على ما اقترفه من ذنوب وآثام ، وعند مطلعه صادف العجوز يقصد نفس ما نواه ، فسلم عليه وانكبَّ على يديه وقبلهما ، لكنه وجد العجوز صامتًا ، فقط يحرك ساقيه إلى الأمام ، حاول علاء مساعدته فأبى العجوز ، سار بمحاذاته حتى تراءى لعينيه أُناس كثيرون يملؤون مسطح الكوبري عن آخره ، لا مكان لموضع قدم ، وما أدهش علاء أنه عندما تفحص الوجوه جميعها عند اقترابه منهم وجدها لشخص العجوز ، زادته الدهشة والحيرة عندما اقترب من أحدهم لمحادثته فوجده يُعرض عنه بتشويحة من يده ، وهكذا دواليك ، حاول مع كل من يقابله في طريق تقدمه نحو السور الحديدي ، وبدون مقدمات أوسابق إنذاروجدهم جميعهم يعتلون السور الحديدي ، ويلقون بأنفسهم انتحارًا إلى الأسفل ، حيث المياه تتخذ مجراها الطبيعي لا تهتم بانتحارهم ، فقط علاء هو الوحيد المأخوذ من الصدمة التي حدثت أمام عينيه دون سابق إنذار.

انفض الزحام من حوله وأصبح لا يرافقه أيّ من الأشباه سوى شخصية واحدة للعجوز تربت على كتفه من للخلف ، نظرله يتمنى أن يقول له : ماذا تريديني أن أفعل ؟ لكن العجوز سبقه بالقول يأمره : افعل مثلهم ، نظرعلاء لصفحة المياة المليئة بوجوه العجوز وأياديهم ممتدة إليه تشاور له بالنزول إليهم ، اعتلى

علاء السور الحديدي ونظر اليهم ، رؤوسهم توشك على الاختفاء داخل المياه يجرفها التيار معه وهو آخذ وجهته إلى أسفل الكوبري ، نزل علاء وهرول إلى الجهة الأخرى فوجدهم يختفون واحدًا تلو الآخر، نظر خلفه ليكلم العجوز فلم يجده ، سمع صوته فقط يناديه لكن من داخل المياه :

- علاء .

ويكررها ثلاثًا ، رد عليه :

- نعم أيها العجوز .

مكانك هنا ، تعالى ؛ انزل لتستقرّ بجواري ، انزل ولا تخشى المياه ، إنها ستطهر بدنك من كل خطيئة ارتكبتها ، كما طهرت بدني الذي يكتوي بنار الخطايا الكثيرة التي ارتكبتها .

اعتلى علاء السور الحديدي وألقى بنفسه في المياه ، لحظات مرت والصمت يخيم على المكان لم يقطعه سوى بعض الفقاقيع ظهرت مكان علاء الذي لم يظهر له أثر ولم يعد له وجود .

ضحك العجوز وضحكت أشباهه خلفه بعد ظهور وجوههم طالّة من المياه مرةً أخرى ، لتتلاشى ثانيةً ، ولتصبح صفحة المياه خالية إلا من دوامات صغيرة وبعض فقاقيع لأسماك تقفز لأعلى بين الحين والحين متراقصة فرحة بخلو المكان نهائيًّا من البشر في هذه الفترة من الليل .

بعد مرور ثلاث سنوات ...نهارًا

خرجت جيهان إلى فناء فيلتها تتلفت حولها ، وكأنها تبحث عن شيء ضائع منها ، ظهر الوجل على وجهها فجأة ، أسرعت الخطى نحو حجرة البوَّاب الموجودة عند المدخل ، خبطت على بابها والخوف يعتريها ، تنادي :

- عسقلاني ... يا عسقلاني ... يا ناصرة .

فُتح الباب عن وجه عسقلاني وهو يمسح فمه بكمِّه :
أيوه يا ست هانم ؛ لا مؤاخذة أصل انا بتغدى أنا وناصرة اتفضلي معانا .
لا شكرًا يا عسقلاني ، شفت منصور .
منصور بيه ، كان هنا من دقيقتين .
قلبي واكلني عليه يا عسقلاني بحثت عنه بالداخل فلم أجده .

أشار عسقلاني بيده خلفها وقال :

- أهو هناك أهو .

وجرى من أمامها ناحيته .

- يا منصور بيه يا منصور بيه .

شخط في أولاده الستة الملتفين حول منصور في دائرة صنعوها له يمسكون بطرف قميصه ويقولون :

- التعلب فات فات في ديله سبع لفات .

أخذ عسقلاني في نهرهم وإبعادهم عنه ، أمرته جيهان وهي تتقدم بخطوات ناحيتهم :

- دعهم يلعبون يا عسقلاني .

وجلست على ركبتيها تحتضن منصور ، وقد طبعت قبلة على خده وهي تقول له :

- كنت فين يا ولد يا عفريت ؟

ردَّ عليها منصور :

- كنت بلعب استغماية مع ولاد أنكل عسقلاني ، ممكن يا مامي تسيبيني أكمل لعب معاهم ؟
- هسيبك تلعب وياهم يا حبيبي بس بشرط ، برة باب الفيلا متهوبهوش أخاف عليك من الطريق ، ومش من الطريق وبس أخاف عليك كمان من التعلب المكار.
- حاضريا مامي .

طبع الطفل قبلة على خدها وتركها يعدو خلف أولاد عسقلاني ، وداخل دائرة تبعد عنها خطوتين أو ثلاث أخذوا يرددون :

- التعلب فات فات ... في ديله سبع لفات .

سمعت جيهان صوت فرملة سيارة توقفت أمام باب الفيلا ، فنهضت من جلستها تنتظر بشغف ظهور قائدها ، فُتح باب السيارة عن وجه منصور طليقها ، فنادت عسقلاني الذي كان داخلًا لتوه إلى حجرته .

- يا عسقلاني .

- نعم يا ست هانم .
- إقفل باب الفيلا كويس وأرجوك لا تسمح لأحد بالدخول .
- حاضريا ست هانم .

نادت جيهان مرة أخرى على منصور طفلها الصغيرذي الثلاث سنوات احتضنته ورفعته بين يديها تتوجه بخطواتها إلى الداخل ، ركل الطفل بقدميه وهو يقول :

- سيبيني يا مامي نفسي ألعب شوية .
- مش وقته يا حبيبي في بعوواقف قدام الباب أخاف عليك منه .

رنَّت الكلمات في أذن منصور ، فما كان منه إلا أن دخل سيارته وقادها منسحبًا بهدوء .

علا صوت أطفال عسقلاني الستة :

- التعلب فات فات ... وفي ديله سبع لفات .

تمت بحمد الله

إصدارات ليليت

عنوان الكتاب	تصنيف	اسم الكاتب	سنة
أريج الجذور	رواية	رامى عباس	٢٠١٣
مازالت الأشواك بجسدى	رواية	نادية البرعى	٢٠١٣
إلا الآن	ق.ق	سهير شكرى	٢٠١٣
امرأءة وحيدة أحبتنى	ق.ق	مصطفى ثابت	٢٠١٣
رئيسًا لمدة ١٢ دقائق	ق.ق	أسامة الحسينى	٢٠١٢
أميرة الدموع	رواية	محبوبة سلامة	٢٠١٢
بعث رُوّي	تاريخ	عادل خميس	٢٠١٣
أيُّووووه يا بيسو	ساخر	قدرى نوّار	٢٠١٣
فيها لامؤاخذة حاجة حلوة	ساخر	خالد بيومى	٢٠١٣
هيدرا .. رياح الشك والريبة	تاريخ	زهير الكاشف	٢٠١٣
رفاهية الألم	فلسفة	سالم ابراهيم سالم	٢٠١٤
عالم بلا مخلِّص	فلسفة	سالم ابراهيم سالم	٢٠١٢
عريانيين عيون	شعر.ع	نور الدين الشريف	٢٠١٢
الحكاية	شعر.ع	احمد نصر	٢٠١٢
ألم واحد	شعر.ع	م.شعراء	٢٠١٢
قوللى إنت مين	شعر.ع	نادر عبد المنعم	٢٠١٢
خاطرة من الجنة	شعر.ف	يسرية سلامة	٢٠١٢
بريد الكحل واغرباء	شعر.ف	رشا زقيزق	٢٠١٢
نقوش على خرز أزرق	شعر.ف	سامح سكرمة	٢٠١٢
حجات عنيدة	شعر.ع	نور البنا	٢٠١٢
الاستنزاف التاريخى للفائض الإقتصادى	اقتصاد	محمد مدحت	٢٠١٣
نظرة	ق.ق.ج	نور الدين الشريف	٢٠١٣
حديث الديناصور البنفسجى	نصوص	نتاج ورشة أدبية	٢٠١٣
رحلة اليقين	فكر	محمد عبد الغنى	٢٠١٣
الحياة فى البلاط الملكى المصرى	مترجم	الفريد جوشوا باتلر	٢٠١٣
هذيان كل يوم	ق.ق	مأمون المغازى	٢٠١٣
رامى مراد والغابات الكونية	رواية	مأمون المغازى	٢٠١٣
مكتوب	شعر.ع	محمدحسين	٢٠١٣

شوشو والقناية	أطفال	فضل مسعود	٢٠١٣
كوكو ابوعرف دوكو	أطفال	فضل مسعود	٢٠١٣
بوتشر كلب الأسد	رواية	فضل مسعود	٢٠١٣
حنين	رواية	سهير عبد الله	٢٠١٤
كاترينا	أطفال	عبد الله لخليفلي	٢٠١٤
فورمالين	ق.ق	شريف الغنّام	٢٠١٤
ألف نيلة ونيلة	أدب ساخر	أحمد السعيد	٢٠١٤
بين الحب والحرب	رواية	محمد عزب	٢٠١٤
انسان حكيم ناجح	تنمية بشر	خالد عمارة	٢٠١٤
وجفت البئر رسالة الى امرأة	نصوص	هانى عثمان	٢٠١٤
نوكيا	رواية	باسم سليمان	٢٠١٤
قصر غيلان	رواية	احمد بن عمارة	٢٠١٤
الأنفوشى	رواية	محمد عزام	٢٠١٤
موضوع	شعر	مصطفى فؤاد	٢٠١٤
مقامات الكيلانى	ادب ساخر	ماجد هاشم	٢٠١٤
روشتات شعرية	شعر	أحمد السعيد	٢٠١٤
الملكومانيا	أطفال	رضوى عادل	٢٠١٤
زوجات وأكروبات	م.قصصية	نادية البرعى	٢٠١٤
الأنفوشي	رواية	محمد عزام	٢٠١٤
مات حبا و عدوه انتحارا	شعر.ف	أحمد إبراهيم	٢٠١٤
اعترفي بيا	شعر.ع	محمود محمد حسن	٢٠١٤
رحلة فى صدر الأبدية	م.قصصية	بهاء الدين يحيى	٢٠١٤
قوارير	ق.ق.ج	شيرين طلعت	٢٠١٤
سكارلت	ق.ق	عمر كمال الدين	٢٠١٤
أرض رشيدة	رواية	عمر أحمد سليمان	٢٠١٤
أقفال العشق	رواية	محمد عزب	٢٠١٤
ستريتش	رواية	نضال كرم	٢٠١٤
لا تذهب للطبيب النفسى	انسانيات	وهبه نور الدين	٢٠١٤
حظر إرادة	تنمية بشرية	نهى مجدى	٢٠١٤

ميكرسكوب	أدب ساخر	ايمان ابراهيم	٢٠١٤
تغريبة لبغداد	شعر فصحى	سامى طه	٢٠١٤
أسس قيام العراق	تاريخ	سامى المبارك	٢٠١٤
فاوست مصرى	مسرحية	محمد بهاء الدين	٢٠١٤
مقالات الزهور	انسانيات	نور الدين الوافى	٢٠١٤
مدام خياط	رواية	سمير ذكى	٢٠١٤
سرابيل	م.ق.ج	هشام أبو سعده	٢٠١٤
قلقاس بن فرناس	رواية	عمر البدالى	٢٠١٤
استرجل واقرا ١٠ كتب	تنمية بشرية	باسم الجنوبى	٢٠١٤
سرابيل	ق.ق. ج	هشام ابو سعده	٢٠١٤
الخطايا	رواية	لويزة الجبالي	ط
حكايات ممنوعة	ق.ق	لويزة الجبالي	ط
نقوش الباسم	خواطر	باسم عوض الله	٢٠١٤
فينوس	رواية	ابراهيم السيد	٢٠١٤
آخر وريقات التوت	شعر .ع	عمرو عصام	٢٠١٤
أنين اوسر	تاريخ	عادل خميس	٢٠١٤
التحليل الجغرافي للأدب	نقد أدبي	جهاد ابو اسماعيل	٢٠١٤
حاج في مكة	مترجم	آرثر ويفل	٢٠١٤
مبعثرات على طاولة القدس	مسرح	حسام قنديل	٢٠١٤
طه في باريس	رواية	عاطف يوسف	٢٠١٤

٢٢٠٨/ ٢٠١٤ط١
الترقيم الدولى / ٣- ٩٩ - ٣٥١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

ليليت للنشر والتوزيع

احصل على نسختك من اصدارات الدار من مقر
مكتبة محطة مصر ٢٤ ش سيد درويش كوم الدكة